

مندی مکتبہ الاسکندریة

ایزابیل الیئندی

الحب و الظلام

ترجمة د. عالی علمانی



الفهرس

٩	ربيع آخر
٨٧	الظلال
١٩١	الوطن العذب

جميع الحقوق محفوظة للناشر

١٩٨٨/٤/٣٠٠٠

الأهالي

للطباعة والنشر والتوزيع

حشق هاتف: ٤٢٠٢٩٩ ص.ب. ٩٥٠٣ تلخس ٤١٢٤١٦

الرب و الظلال

ايزابيل الليندي

ترجمة صالح علاني

ايزابيل الليندي، التي ظهرت في دنيا الأدب فجأة حين صدرت روايتها الأولى «بيت الأرواح» عام ١٩٨٢، أصبحت تقف اليوم في الصف الأول مع الروائيين الناطقين بلغة سيرفانتس، وصارت تعتبر المرأة الوحيدة في تيار الواقعية السحرية في الرواية الأميركية اللاتينية.

تقول ايزابيل الليندي (وهي من مواليد ١٩٤٢): «لقد دخلت عالم الأدب بصورة مفاجئة، في سن لا تطمح فيه نساء أخريات بأكثر من رفوجوارب أحفادهن. لقد اقتحمت الأدب اقتحاماً وفوجئت بالصدى الذي أثارته كتيبي، لأنني لم أكن أتوقعه».

صدر للمؤلفة ثلاث روايات: «بيت الأرواح» ١٩٨٢، «الحب والظلال» ١٩٨٤، «ايفالونا» ١٩٨٧، إضافة الى مجموعة قصص قصيرة.

الناشر

هذه قصة رجل وامرأة، أحبا بعضهما
بعضاً بكل جوارحهما، لينجوا بهذا من حياة
مبتذلة. وقد حملت القصة في ذاكرتي
بحرص كي لا يبليها الزمن. والآن، في
ليالي هذا المكان الصامتة، استطعت روايتها
أخيراً. لقد فعلت هذا من أجلهما، ومن
أجل آخرين أو دعوني حيواتهم قائلين:
خذي، اكتبي كي لا تمحوه الريح.

أ.أ.

القسم الأول

ربيع آخر

الحب وحده يعلمه

يعيدنا أبرياء

فيوليتا بارا

اليوم الشمس الأول بخر الرطوبة التي تراكمت في الأرض خلال شهور الشتاء، ودفاً العظام الهشة للمسنين الذين استطاعوا الخروج للتنزه في محرات الحديدية . السوداوي وحده بقي في فراشه، لأنه لا جدوى من اخراجه إلى الهواء الطلق إذا كانت عيناه لا تريان شيئاً سوى كوابيسه الذاتية، ومسامعه صماء عن تغريد العصافير . كانت الممثلة خوسيفينا بيانثشي ترتدي فستاناً سابغاً من الحرير استخدمته قبل نصف قرن لتمثل تشيخوف، وتحمل مظلة تحمي بها بشرتها التي من بورسلان مفتت، وتتقدم على مهل بين الأصص التي ستملىء عما قريب بالأزهار واليعاسيب .

- يا للفتية المساكين - ابتسمت الثمانية لدى احساسها برعشة خفيفة بين أزهار اللاتنسيني، واعتقادها بوجود المعجيين بها، أولئك الذين كانوا يعشقونها سراً ويحبتون بين النباتات ليرصدوا مرورها .

تحرك الكولونيل بضعة سنتيمرات متكئاً على عكاز الألمنيوم التي يستخدمها في اسناد ساقيه الواهنتين كالقطن . فاحتفاء بالربيع الوليد، ولتحية العلم الوطني التي لا بد من ادائها كل صباح، علق على صدره ميداليات الكرتون والصفيح التي صنعتها له ايرين . وحين كان اضطراب رثته يسمع له، كان يصرخ مصدراً التعليقات للفرقة وأمراً الأجداد المرتعشين بالابتعاد عن ميدان التدريب، حيث يمكن لجنود المشاة ان يسحقوهم بخطواتهم الاستعراضية النشيطة وبأحذيتهم

العسكرية المصقولة . خفقت الراية في الهواء كطير رخمة غير مرئي قريباً من اسلاك الهاتف، واتخذ جنوده وضعية التأهب بصرامة : النظر إلى الأمام . . قرع طبول . . أصوات رجولية تترنم بالنشيد الوطني المقدس الذي لا تسمعه إلا اذناه . قاطعته ممرضة ترتدي زي الميدان، وكما هي عادة هؤلاء النساء، كانت صامته ومناقفة، وتحمل منديلاً لتمسح به اللعاب الذي سال على جانبي شفثيه وبلبل قميصه . أراد أن يقدم لها وساماً أو أن يرفّعها رتبة، لكنها دارت على أعقابها وتركته واقفاً مع نواياه المعلقة في الفراغ بعد أن حذرته من أنها ستضربه ثلاث ضربات على قفاه إن هو عاد لتلويث سرواله الداخلي، لأنها سئمت من تنظيف براز الآخرين . عمن تتحدث هذه المعتوهة؟ تساءل الكولونيل، واستنتج انها تشير بكلامها دون شك إلى الأرملة الأكثر ثراء في المملكة، فهي الوحيدة التي تستخدم الحفاضات في المعسكر بسبب جرح من قذيفة مدفع فتت جهازها الهضمي وأقعدتها إلى الأبد على كرسي ذي عجلات، ولكنها لم تكن تلقى التوقير اللازم رغم كل هذا، فلدى أدنى سهو منها يسلبونها دبابيس شعرها وشرائطها . ان العالم مليء بالأوغاد والسفلة .

- لصوص! لقد سرقوا خفي! - صرخت الأرملة .

فأمرتها المشرفة التي كانت تقود المقعد ذا العجلات لتضعها في الشمس :

- اصمتي أيتها الجدة، فقد يسمعك الجيران .

واصلت المقعدة توجيه الاتهامات إلى أن فقدت أنفاسها واضطرت إلى السكوت كي لا تموت، إنما بقيت لديها القدرة لتشير باصبع مصاب بالتهاب المفاصل إلى الماجن الذي يفتح سرواله ليعرض عضوه المحزن على السيدات . لم تكن أي منهن لتهتم به، باستثناء سيده ضئيلة ترتدي ملابس الحداد، كانت تراقب حبة التين اليابسة تلك بشيء من الحنان . فهي مغرمة بصاحبها وترتك باب غرفتها مفتوحاً في الليل لتحته على الدخول .

تمت الأرملة المترية :

- قحبة!

لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من الابتسام، لأنها تذكرت فجأة الأزمنة القديمة، عندما كان ما يزال لديها زوج، وكان يدفع لها ذهباً مقابل امتياز احتضانه بين فخذيه الثخينين، وكان يفعل ذلك بكثرة، حتى إنها توصلت إلى امتلاك كيس مليء بالذهب، بلغ من الثقل وزناً لا يمكن لأي بحار أن يحمله على كتفه.

- أين هي نقودي الذهبية؟

وردت عليها الموظفة التي كانت ساهية وراء الكرسي ذي العجلات:

- عم تتحدثين أيتها الجدة؟

- أنت سرقتها! سأستدعي الشرطة!

فردت الأخرى دون أن تضطرب:

- كفى ازعاجاً أيتها العجوز.

كانوا قد أجلسوا المفلوج على مقعد ودفروا ساقيه بشال، كان يبدو جدياً ووقوراً رغم تشوه نصف وجهه، وكانت يده العاجزة مدسوسة في جيبه بينما تحمل يده الأخرى غليوناً فارغاً. وبأناقته البريطانية، كان يرتدي سترة على مرفقيها رقعتان جلديتان. انه ينتظر البريد، ولهذا طلب أن يجلسه قبالة البوابة، ليرى ايرين حين تدخل ويعرف من النظرة الأولى ان كانت تحمل رسالة اليه. وإلى جانبه كان يتشمس شيخ حزين لا يبادل له الحديث لأنها متخاصمان، رغم أن كليهما قد نسي سبب الخصام. وقد يحدث أن يتوجه أحدهما بالكلام الى الآخر، في لحظة نسيان، فلا يتلقى جواباً، وذلك بسبب الصمم أكثر مما هو بسبب حالة العداء القائمة بينهما.

من شرفة الطابق الثاني، حيث البنفسجة لم تُنبت أوراقاً ولا أزهاراً بعد، أطلت بياتريس الكانترادي بيلتران. كانت ترتدي بنطالاً من جلد الغزال خروبي اللون وبلوزة فرنسية مائلة، تنسجم مع ظل حاجبيها وخاتمها الذي من الدهنج، متبرجة بمكياج الصباح، طازجة وهادئة بعد جلسة التمارين الشرقية التي تمارسها للاسترخاء من التوترات ونسيان أحلام الليل، وتحمل في يدها كأساً

من عصير الفاكهة لتسهيل الهضم وتنقية البشرة. تنفست بعمق ملاحظة الدفاع الجديد في الهواء، وحسبت الأيام المتبقية لرحلة اجازتها. لقد كان الشتاء قاسياً جداً، وقد فقدت خلاله لونها البرونزي. تأملت بصرامة الحديقة التي تحت قدميها، المتجملة بحلول الربيع، ولكنها لم تنتبه إلى البريق الذي في حجارة الجدران ولا إلى شذى الأرض الرطبة. لقد تمكن العشب الدائم من اجتياز أيام الصقيع الأخيرة، وما زال القرميد يتلألأ بندى الليل، وجناح النزلاء، بسقوفه ونوافذه الخشبية، كان يلمع كثيباً وباهتاً. قررت انه لا بد لها من تجديد طلاء البيت. كانت عيناها تحصيان المسنين وتفحصان أدق التفاصيل لتأكد من أن تعليماتها تنفذ. لم يكن ينقص أحد من النزلاء، باستثناء ذلك المغموم التعميس الذي يبقى في سريره وهو أقرب إلى الموت كآبة منه إلى الحياة. تفحصت كذلك المشرفات، ممعنة النظر في مرايلهن النظيفة والمكوية، وشعورهن المربوطة وخفافهن المطاطية. ابتسمت راضية، فكل شيء يسير على ما يرام وها قد انقضى خطر الأمطار وما يرافقها من أوبئة، دون أن تسلبها أيًا من زبائنها. وبقليل من الحظ ستضمن انتظام الايراد لبضعة شهور أخرى، لأن المريض المنهوك سيستمر في الحياة خلال الصيف كله.

ومن مرقبها، رأت بياتريس ابنتها ايرين وهي تدخل حديقة ملجأ «مشيئة الرب». وتأكدت ساخطة من أنها لم تستخدم الباب الجانبي المؤدي إلى البهو الخاص وإلى درج المنزل الذي في الطابق الثاني، حيث تقيمان. لقد أعدت مدخلاً خصوصياً منفصلاً لتتحاشى المرور من مأوى العجزة عند قدميها إلى بيتها أو خروجها منه، لأن الشيخوخة تبعث فيها الكآبة، وهي تفضل مراقبتها من بعيد. أما ابنتها فلا تضيع فرصة لزيارة النزلاء وكأنها تشعر بالسعادة في صحبتهم. يبدو انها اكتشفت لغة للتغلب على الصمم وفقدان الذاكرة. انها تتجول الآن بينهم لتوزع عليهم نوعاً من الحلوى الطرية، آخذة في اعتبارها أسنانهم الاصطناعية. رأتها تدنوم من المفلوج، فتعطيه رسالة، وتساعد على فتحها لأنه لا يستطيع عمل ذلك بيده السليمة الواحدة، وتبقى إلى جانبه متممة. بعد ذلك

قامت الفتاة بجولة قصيرة مع الرجل المسن الآخر، ورغم أن الأم لم تكن تسمع من الشرفة ما يقولانه، إلا أنها خمنت بانها يتكلمان عن ابنه وكنته وعن الطفل، وهو الموضوع الوحيد الذي يهيمه. لقد منحت ايرين كلاً منهم ابتسامة، أو مداعبة، أو وضع لحظات من وقتها، فيما يياتريس في الشرفة تفكر انها لن تفهم أبداً هذه الشابة الغريبة الطباع والتي لا تشبهها إلا قليلاً. وفجأة، دنا الجد الشهواني من ايرين ووضع كلتا يديه على نهديه، ضاغطاً إياهما بحركة أقرب إلى الفضول منها إلى الشبق. وقفت جامدة لبضع لحظات بدت لأمها زمناً لا نهائياً، إلى أن انتهت إحدى المشرفات للأمر فهرعت لتتدخل. لكن ايرين أوقفتها بايلاء، وقالت مبتسمة:

- دعيه. إنه لا يؤذي أحداً بهذا.

غادرت يياتريس موقع مراقبتها وهي تعض شفيتها. مضت إلى المطبخ، حيث كانت الخادمة روسا تقطع الخضار للغداء وتتناوم مع المسلسل الاذاعي. كانت مستديرة الوجه، سمراء، مبهمة السن، واسعة الخضن، لدنة الكرش، ضخمة الفخذين. فهي بدينة لدرجة انها لم تكن قادرة على مقاطعة ساتيها ولا على حك ظهرها بنفسها. كيف تنظفين مؤخرتك يا روسا؟ كانت إيرين تسألها في صغرها وهي مذهولة من هذه الكتلة المريحة التي تزداد كيلوغراماً كل عام. فترد عليها روسا دوماً، وفيه لعادتها في الاستشهاد بالأمثال: أية أفكار تخاطر لك أيتها الصغيرة! ان في السمنة لجمالاً.

قالت ربة البيت وهي تجلس على كرسي بلا مسند وترشف عصير الفاكهة

بيطء:

- اني قلقة بشأن ايرين.

لم تجب روسا بشيء، لكنها أطفأت المذياع داعية إياها بذلك للروح لها بما تكنه، فتهدت السيدة: علي أن أكلم ابنتي، لست أدري في أية شياطين تزج نفسها، ولا أعرف من هم هؤلاء المخشون الذين يرافقونها. لماذا لا تذهب إلى النادي لتلعب التنس وتتعرف هناك على شبان من طبقتها؟ إنها تفعل ما يحلو لها

متذرعة بعملها، لقد بدت لي الصحافة شيئاً مريباً على الدوام، مهنة أناس غير محترمين. لو أن خطيب إيرين يعرف مايجري لما احتمل ذلك، لأنه لا يمكن لخطيبة ضابط في الجيش أن تسمح لنفسها بهذا الترف. كم من المرات قلت لها هذا؟ ولا تقولوا لي أن الحفاظ على السمعة هو أمر عفا عليه الزمن. الزمن يتبدل، ولكن ليس إلى هذا الحد. ثم ان العسكريين يا روسا ينتمون الآن إلى المجتمع الراقي، وليسوا كما كانوا في السابق. لقد تعبت من شذوذات إيرين. لدي مشاكل كثيرة، حياتي ليست سهلة، وأنت تعرفين الكفاية. منذ اختفى اوسيبويوتاركاً الحسابات المصرفية مجمدة ومخلفاً لي قطاراً من النفقات جديراً بسفارة، صار عليّ أن آتي بالمعجزات كي أبقى في مستوى لائق؛ لكن كل شيء صعب، المسنون عبء، وأظن انهم يكلفون في نهاية المطاف من النفقات والجهد أكثر مما يعودون به من فائدة، ومن الصعب الحصول منهم على الايراد، خصوصاً هذه الأرملة اللعينة، فهي تتخلف دوماً في دفع شهريتها. ليست هذه التجارة بالرابحة على كل حال. ولم تعد لدي القوة الكافية لملاحقة ابنتي كي تضع أصبغة على وجهها وتلبس كما يشاء الرب حتى لا تُخيف خطيبها. لقد أصبحت في سن تستطيع معها الاعتناء بنفسها وحدها. ألا ترين ذلك؟ انظري إليّ، كيف ستكون حالي لولا عنادي واصراري؟ لولا ذلك لكنت مثل كثيرات من صديقاتي، وكان وجهي خريطة من التجاعيد وأقدام الندجانج، ولكانت جميع أجزاء جسدي مليئة بالكتل والدرنات. لكنني أحتفظ بقوام بنات العشرين وببشرة ناعمة. لا، لا يمكن لأحد القول ان حياتي خالية من الهموم، بل على العكس، ان القلق يفتك بي.

- انك تملكين وجهاً في المجد ومؤخرة في الغم يا سيدتي.

- لماذا لا تكلمين ابنتي يا روسا؟ أظن انها تستمع اليك خيراً من استماعها

إلي.

وضعت روسا السكين على الطاولة ونظرت إلى سيدة البيت بلا تعاطف.

فهي على خلاف مبدئي ودائم معها، وخصوصاً فيما يتعلق بايرين. لم تكن تقبل بتوجيه النقد إلى البنية، إلا أنها رأت أن الأم محقة في هذه الحالة. فهي تحب أيضاً

أن تراها مزينة بطرحة شفافة وأزهار عذرية ، وخارجة من بوابة الكنيسة برفقة الكابتن غوستافو مورانتي تحت صفين من السيوف المرفوعة ، لكن معرفتها بالعالم - التي احرزتها من خلال مسلسلات الاذاعة والتلفزيون - تشير إلى القدر الكبير من المعاناة وإلى الصروف التي لا بد من احتفالها قبل الوصول إلى النهاية السعيدة .

- من الأفضل تركها على هواها يا سيدتي . فمن يولد زيزاً يموت مغنياً . ثم أن ايرين لن تعيش حياة طويلة ، هذا باد في عينيها الساهيتين .

- بالله عليك يا امرأة ! أية حماقات تقولين !

دخلت ايرين المطبخ مرتدية تنورة قطنية فضفاضة وبشعرها القصير المشعث . قبلت المرأتين من وجنتيهما وفتحت الثلجة لتشم ما في داخلها . كانت أمها توشك أن تغفل لها خطبة مرتجلة ، لكنها أدركت في لحظة صفاء أن أي كلام سيكون بلا جدوى . فهذه الفتاة التي تحمل آثار بصمات على نهدها الأيسر كانت بعيدة عنها بعداً فلكياً .

- ها قد حل الربيع يا روسا . قريباً ستفتح أزهار اللاتسيني - قالت ايرين وهي تغمز بتواطؤ استطاعت الأخرى فهمه ، لأنها كانتا تفكران بالطفل حديث الولادة الذي سقط من طاقة النور .

سألت بياتريس :

- ماذا هنالك من جديد؟

- عليّ أن أكتب تحقيقاً يا أماه . سأقابل نوعاً من القديسة . يقولون انها تحقق

معجزات .

- أي نوع من المعجزات؟

فقالت :

- تزيل الثآليل ، تشفي الأرق والفؤاق ، تسكن اليأس وتجلب المطر .

تهددت بياتريس دون ان تبدي الرضا عن مزاج ابنتها . وعادت روسا إلى

- تقطيع الجزر وإلى المعاناة مع المسلسل الاذاعي ، وهي تدمدم انه عندما يوجد

القديسون الأحياء فالقديسون الأموات لا يحققون المعجزات . ذهبت ايرين لاستبدال ثيابها واحضار آلة تسجيلها بانتظار مجيء فرانيسكو ليال ، الذي يرافقها دوماً لالتقاط الصور أثناء عملها .



تأملت ديغنا رانكيليو الحقل ولمحت العلامات المبشرة بتبدل الفصل .
فتمت ما بين دعاءين :

- قريباً سيحل موسم تناسل الحيوانات وسيمضي هيبوليتومع السيرك .
كان من عاداتها مخاطبة الرب . وفي هذا الصباح ، وبينما هي مشغولة باعداد الفطور ، تاهت في صلوات واعتراقات مطولة . لقد قال لها ابناؤها مرات ومرات ان هذه العادة الانجليكانية تثير سخرية جميع الناس . ألا يمكنك عمل ذلك بصمت ودون تحريك شفقتيك؟ لكنها لم تكن توليهم اهتماماً . كانت تشعر بالرب كحضور جسدي في حياتها ، واكثر قرباً ونفعاً من زوجها الذي لا تراه إلا في الشتاء . ولم تكن تطلب من الرب سوى بعض المساعدات الضئيلة ، لأنها عرفت أن كثرة المطالب تثير في نهاية الأمر سخط الكائنات السماوية . فكانت تقتصر على طلب نصيحة حول شكوكها الكثيرة ومغفرة لأثامها وآثام الآخرين ، شاكراً أثناء ذلك أي حدث صغير مؤات : توقف المطر ، فارقت الحمى خائبتو ، نصجت البندورة في البستان . ومع ذلك ، فإنها تلح على المُخلص منذ أسابيع مطالبة بشفاء ايفانجيلينا .

- اشفها - كانت تتوسل هذا الصباح وهي تضرم نار المطبخ وتضع أربع طوبات لتسند إليها الشبكة الحديدية فوق الحطب المتقد : - اشفها يارب ، قبل أن يأخذوها إلى مشفى المجاذيب .

لم تفكر مطلقاً ، حتى ولا أمام موكب المتضرعين المتوسلين حدوث معجزة ، ان النوبات التي تصيب ابنتها هي من علامات القداسة . وأقل من ذلك كان ايمانها بالعفاريت المهيجة ، رغم ما تؤكد الفصوليات الثرثرات بعد رؤيتها فلماً عن الرقى السحرية في سينما القرية ، حيث اللعاب في الفم والعيون الزائغة هما اشارة

إلى وجود الشيطان . ان بديعتها وعلاقتها بالطبيعة وتجربتها الطويلة كأم لعدد كبير من الأولاد ، أتاح لها أن تقدر أن مرض ابنتها هو مرض جسدي ذهني ، لا وجود فيه لما هو شيطاني أو إلهي . فكان تعزوه إلى لقاحات الطفولة أو للعادة الشهرية . لقد عارضت دوماً جماعة الخدمة الصحية ، الذين يتنقلون من بيت إلى بيت لاقتناص الأطفال المختبئين بين أشجار البستان وتحت الأسرة . ورغم ان الأولاد كانوا يرفضون بأقدامهم مقاومين ، ورغم أنها كانت تقسم انهم قد عولجوا ، إلا أنهم كانوا يصطادونهم ويحقنونهم دون رحمة . كانت موقنة ان هذه السوائل تتجمع في الدم مسببة اختلالاً في الجسم . ومن جهة أخرى ، فإن الحيض الذي يعتبر حدثاً طبيعياً في حياة أي امرأة ، قد يؤدي إلى احتدام اهواء بعضهن والى تسليط أفكار آثمة على اذهانهن . ويمكن لأي واحد من هذين الأمرين - اللقاحات أو الحيض - أن يكون سبب الداء الرهيب . انما هناك شيء ثابت ومؤكد : فابنتها تنحل وتضعف ، كما يحدث للمصابين بأخبت الأمراض ، وان هي لم تشف خلال فترة معينة ، فستنتهي إلى الانهيار أو إلى القبر . لقد مات لها أبناء آخرون في طفولتهم بسبب الأوبئة أو في حوادث لا رد لها . ومثل هذا يحدث لكل الأسر . فإذا كان الطفل صغيراً جداً لم يبيكوه ، لأنه يصعد مباشرة إلى السماء مع الملائكة ، ليشفع للمؤجلين على الأرض . لكن فقدان ايفانجيلينا بدا لها مؤلماً ، لأنها ستكون مسؤولة أمام أمها الحقيقية . وهي لا تريد أن تبدو على أنها أهملت الفتاة ، لأن الناس سيتها مسون عندئذ من وراء ظهرها .

كانت ديفنا هي أول من يستيقظ في بيتها واخر من يأوي إلى الفراش . فمع صباح الديدك تكون في المطبخ لتضع الخطب فوق الجمر الذي ما زال ساخناً من اللهلة الفائتة . ومنذ ان تبدأ بغلي الماء للفظور ، لا تعود إلى الجلوس . فهي مشغولة دوماً بالأطفال والغسيل والطعام والبستان والبهايم . ومهامها اليومية متشابهة لا تبدل ، مثل سبحة محدودة الحبات تحصر وجودها . كانت لا تعرف الراحة ولا تنعم بها إلا عندما تضع مولوداً آخر . فحياتها عبارة عن طقوس متتالية لا تغيير فيها ، اللهم إلا تلك التي تشير إلى تبدل الفصول . ماكانت تعرف سوى العمل والتعب ،

وكانت أهدأ ساعات النهار بالنسبة لها هي ساعة الأصيل، حين تتناول أشغال الإبرة ومذيعاً يعمل بالبطارية، فتنتقل الى عالم ناء لا تفقه منه إلا القليل. ولم يكن قدرها بأفضل أو أسوأ من قدر النساء الأخريات. بل انها تجد نفسها أحياناً امرأة محظوظة، لأن هيبوليتولا يتصرف معها كفلاح جلف على الأقل، فهو يعمل في السيرك، فنان، يجوب الدروب، ويرى الدنيا ويروي لدى عودته أموراً عجباً. انه يتناول كؤوسه من النيذ، وهذا ما لا أنكره، لكنه طيب في أعماقه. هكذا كانت تفكر ديغنا. صحيح ان الفراغ الذي يسببه غيابه كان عظيماً في موسم اعداد الأرض، وفي موسم البذار، وموسم الحصاد، ولكن كانت لهذا الزوج الجوال خصال معوضة، فهو لا يقدم على ضربها إلا إذا كان مخموراً وحين لا يكون براديليو، الابن الاكبر، موجوداً. لأن هيبوليتورا نكيليو لا يرفع يده عليها أمام الفتى. ثم انها تنعم بحرية اكبر من حرية النساء الأخريات، وتزور الصديقات دون أن تطلب إذناً من أحد، ويمكنها حضور الطقوس الدينية في الكنيسة الانجليكانية الحقيقية، وقد ربت أبناءها على اخلاقيات هذه الكنيسة. وكانت معتادة على اتخاذ القرارات بنفسها دوماً، اللهم إلا في الشتاء، حين يرجع زوجها إلى بيته. وعندئذ تخني رأسها، وتخفض صوتها وتستشيريه قبل ان تتصرف. ولكن كان لهذه الفترة محاسنها أيضاً، رغم أن المطر والفقر كثيراً ما يبدوان أبدين على الأرض. فهي فترة راحة، تستريح خلالها الحقول، وتبدو الأيام أقصر، ويتأخر الفجر في البزوغ، فينامون منذ الساعة الخامسة كي يوفروا الشموع. وعندئذ، وفيما هي تحت دفء الأغطية، تتمكن من تقدير قيمة الرجل.

ولعمله كفنان، لم يشارك هيبوليتو في النقابات الفلاحية ولا في غيرها من بدع الحكومة السابقة، ولهذا تركوه بسلام ولم يلحق به أي سوء يأسفون عليه حين انقلب كل شيء ليعود كما كان في زمن الأجداد. لقد كانت ديغنا، وهي ابنة وحفيدة فلاحين، شديدة الحذر والحيطه. فلم تؤمن يوماً بكلمات المستشارين وعرفت منذ البدء ان الاصلاح الزراعي سينتهي نهاية سيئة. وقد أعلنت ذلك دوماً، لكن أحداً لم يولها اهتماماً. فكانت اسرتها أوفر حظاً من آل فلوريس، ذوي

أهنا نخيلينا الحقيقيين، ومن كثيرين من المشتغلين في الأرض ممن وضعوا آمالهم وحياتهم في مغامرة الوعود والقلقل تلك.

كان هيبوليتورا نكيليو يتمتع بسجايا الزوج الصالح، فهو هادىء، ليس بالمتقلب أو العنيف، ولم تُعرف له علاقة بنساء أخريات ولا رذائل كبرى. وهو يأتي إلى البيت في كل سنة ببعض المال، إضافة إلى هدية تكون بلا فائدة في معظم الأحيان، لكنها تقابل بالترحاب دوماً، لأن المهم هو النوايا. كان وسيم المظهر، لكنه لم يتخل عن الفضيلة أبداً مثلما يفعل غيره من الرجال الذين ما أن يتزوجوا حتى يبدأوا بمعاملة زوجاتهم كالبهائم، كما تقول ديغنا، ولهذا فقد منحته أبناء بسعادة، بل وبشيء من المتعة. وعندما تفكر بمداعباته تتورد خجلاً. فهي لم تسمح لزوجها بأن يراها عارية أبداً، لأن الحشمة قبل كل شيء. لكن ذلك لم يقلل من سحر مخدعها. كانت مولعة بالأشياء الجميلة التي يحسن قولها، فقررت أن تكون زوجة له أمام الله والسجل المدني، ولم تسمح له بملامستها لتصل إلى ليلة الزفاف عذراء، تماماً مثلما تمنى لبناتها أن يفعلن، وهكذا يفرضن احترامهن ولا يجزؤ أحد على اتهامهن بالخفة. لكن ذلك كان زمناً آخر، والحفاظ على عفة البنات يصبح أصعب فأصعب الآن. فما أن ترفع احدانا نظرها عنهن حتى يذهبن إلى النهر. . أبعثهن إلى القرية لشراء السكر فيغبن لساعات. أصر على أن يرتدين ملابس محتشمة، لكنهن يرفعن تنانيرهن، ويفتحن أزوار بلوزاتهن ويصبغن وجوههن. آه، يارباه! ساعدني على تربيتهن حتى الزواج وحينئذ أستطيع أن أستريح. لا أريد أن تتكرر المصيبة التي حلت بكبراهن، اغفر لها يا رب، لقد كانت صغيرة ولم تكن تدرك ما الذي تفعله، وقد جرى ذلك بسرعة مع المسكينة، حتى أنها لم تضطجع كما البشر، بل فعلت ما فعلته وهي واقفة، مستندة إلى جذع شجرة الفناء كالكلاب؛ احفظ الأخريات يارب كي لا يأتي تافه ليلهو بهن، لأن براديليو سيقتله في هذه المرة وستقع البلية على هذا البيت؛ لقد نلت حصني من العار والألم بخائيتو؛ الطفل المسكين، انه غير مسؤول عن عاره.

خائيتو، أصغر أفراد الأسرة، هو في الحقيقة حفيدها، ثمرة زنا ابنتها

الكبرى مع رجل غريب جاء في الخريف وطلب ان يسمحوا له بقضاء الليل في المطبخ . كان بارعاً بالمجيء بينا هيوليوتويجوب القرى مع السيرك وبراديليو يؤدي الخدمة العسكرية . هكذا هي الأمور، لم يكن يوجد في البيت رجل لأخذ الثأر، كما يقتضي الواجب . وعرفت ديغنا ما يجب عليها عمله : دثرت الوليد، وغذته بحليب فرس وبعثت بأمه إلى المدينة لتعمل كخادمة . وعند عودة الرجال إلى البيت، واجهتهم بالأمر الواقع وكان عليهم أن يقبلوا به . بعد ذلك اعتادوا على وجود الطفل بينهم وانتهوا إلى اعتباره ابناً آخر من أبنائهم . ولم يكن هو الابن الغريب الوحيد الذي نشأ في منزل آل رانكيليو، فقبل خائنتو التقطوا أبناء آخرين : أيتاماً تائهين طرقتوا باب البيت يوماً، ثم نسوا مع مرور السنين انعدام أصرة القرابة ولم يبق لديهم إلا العادة والحنان .

ملأت ديغنا الكأس بعشبة المنة لزوجها مثلما تفعل كل يوم مع اطلالة الفجر من وراء الجبال، ووضعت له كرسيه في الركن القريب من الباب، حيث الهواء أنقى . وأحرقت بضعة قوالب من السكر ووزعت اثنين منها في كل فنجان صفيحي لتحضر شراب البوليو^(١) للأبناء الكبار . ثم بللت خبز اليوم السابق ووضعت على الجمر، وصفت الحليب للأطفال، ومزجت في مقلاة سوداء من كثرة الاستعمال، خليطاً من البيض والبصل .



خمسة عشر عاماً مضت على اليوم الذي ولدت فيه ايفانجيلينا في مستشفى لوس ريسكوس، لكن ديغنا تستطيع أن تتذكره كما لو أنه حدث منذ وقت قريب . فبما انها كانت قد انجبت مرات عديدة، فقد وضعت مولودها بسرعة، ورفعت نفسها مستندة إلى مرفقيها، كما كانت تفعل دوماً، لترى الوليد وهو يخرج من أحشائها، متحققة من شبهه بأولادها الآخرين : الشعر الخشن القاتم كشعر الأب

١ - شراب أوراق النباتات تشبه النعناع

والبشرة البيضاء التي تفخر بها. لهذا، حين حملوا اليها طفلة ملفوفة بخرق ولمحت زغباً أشقر يغطي جمجمتها شبه الصلعاء، عرفت دون أدنى شك أنها ليست ابنتها. وكانت ردة فعلها الأولى ان انكرتها واحتجت، لكن المرضة كانت على عجلة من أمرها، فرفضت الاستماع إلى حججها، ووضعت لها اللفافة بين ذراعيها وانصرفت. بدأت الطفلة بالبكاء، ففتحت ديغنا قميص نومها بحركة قديمة قدم التاريخ، ووضعتها على ثديها، فيما هي تتداول مع جاريتها في صالة الأمومة المشتركة بأن هناك خطأ دون ريب: فهذه ليست ابنتها. عندما انتهت من ارضاعها، نهضت ببعض الصعوبة وذهبت لمقابلة القابلة المسؤولة عن الجناح، لكن هذه ردت عليها إنها مخطئة، وأنه لم يحدث شيء كهذا أبداً في المستشفى، ونددت بنظام استبدال الأطفال. وقالت لها أن أعصابها متعبة بالتأكد وحققتها دون أي كلام آخر بسائل في ذراعها، وأعادتها إلى سريرها. بعد ساعات من ذلك استيقظت ديغنا رانكيليو على صخب نساء أخرى تصرخ في الجهة المقابلة من الصالة:

- لقد استبدلوا ابنتي.

هرع عدد من الممرضات والأطباء الذين استنفرتهم الضجة، وجاء مدير المستشفى بنفسه. فانتهزت ديغنا الفرصة لتطرح مشكلتها بأشد الأساليب لباقة، لأنها لم تكن راغبة في استفزاز أحد. أوضحت أنها أخرجت إلى الدنيا طفلة سمراء وانهم جاؤوا بطفلة أخرى ذات شعر أشقر لا تشبه ابنتها في شيء. ماذا سيظن بها زوجها حين يراها.

استشاط مدير المستشفى غضباً: جاهلات، جاحدات. بدلاً من تقديم الشكر لأننا نساعدهن يثرن لي الفوضى. واختارت المرأتان السكوت وانتظار فرصة أخرى موالية. كانت ديغنا نادمة لأنها ذهبت إلى المستشفى، وحملت نفسها مسؤولية ما حدث. فجميع أولادها حتى ذلك الحين ولدوا في البيت، بمساعدة مامتها انكارناثيون، التي كانت تراقب الحمل منذ شهوره الأولى، ثم تأتي قبل الولادة بيوم، فتبقى في البيت إلى أن تتمكن الأم من العودة إلى مزاوله أعمالها.

كانت تأتي بأعشابها التي تساعد على ولادة سريعة وسهلة، وبمقصاتها التي باركها القس، وخرقها النظيفة المغلية، وضاداتها الموصلة، وبلاسمها من أجل حلقات الأثداء، وأدواتها التي تستخدمها للقص والشق، وخبوطها، وخبرتها المسلم بها. وفيما هي تهيء الأجواء للوليد القادم، كانت تتكلم دون توقف لتسلي النفساء، فتسرد الأخبار المحلية المتداولة وقصصاً أخرى من اختراعها، وهدفها من ذلك جعل الوقت قصيراً والألام خفيفة. تلك المرأة الضئيلة والرشيقة، العابقة بشذى دائم من البخور والخزامى، ساعدت في ولادة جميع أطفال المنطقة تقريباً منذ أكثر من عشرين سنة. ولم تكن تطلب شيئاً مقابل خدماتها، لكنها كانت تعيش من عملها ذاك، لأن الشاكرين فضلها كانوا يمرون من أمام بيتها تاركين هناك البيض أو الفاكهة أو الحطب أو الطيور، أو أرنباً برياً أو طير حجل من الصيد الأخير. وحتى في أسوأ أزمات البؤس، حين كانت المحاصيل تتلف وضروع البهائم تجف، لم تكن الضروريات تحجب عن بيت ماميتا انكارناثيون. كانت تعرف كل أسرار الطبيعة المرتبطة بعملية الولادة، وكذلك بعض الأساليب المضمونة للإجهاض بالأعشاب أو بعقب شمعة، لكنها لم تكن تلجأ إليها إلا في حالات مبررة. وإذا ما قصرت معارفها لجأت إلى بديتها. وحين يخرج الوليد إلى النور أخيراً، تقطع حبل الخلاص بمقصها العجيب لتمنحه القوة والعافية، ثم تتفحصه للحال من رأسه إلى أخمص قدميه لتتأكد من عدم وجود شيء غريب في تكوينه. فإذا ما اكتشفت فيه نقصاً أو بادرة تشير إلى أنه سيحيا حياة معذبة أو أنه سيكون عبثاً على الآخرين، فإنها تتخلى عن الوليد وتركه لمصيره، أما إذا كان كل شيء فيه كما أقره الله، فإنها تحمد السماء وتبادر إلى ادخاله في حركة الحياة بضربتين من كفها. ثم تقدم إلى الأم أوراق نبات لسان الثور لتطرد الدم الأسود وتخلصها من تعكر المزاج، وزيت الخروع لتنظيف الأحشاء، والبيرة مع صفار البيض النيء لتضمن لها حليباً وافراً. وتتولى شؤون البيت لثلاثة أو أربعة أيام، فتطبخ، وتكنس، وتقدم الطعام لأفراد الأسرة وتهتم بقطيع الأطفال. هكذا جرت جميع ولادات ديغنا رانكلييو، لكنها حين أنجبت إيفانخيلينا، كانت القابلة في السجن

بتهمة مزاوله الطب بشكل غير شرعي ، ولم تستطع مساعدتها . لهذا السبب وليس لأي سبب سواه ، لجأت ديغنا إلى مستشفى لوس ريسكوس ، حيث لاقت معاملة أسوأ مما يُعامل به المحكومون . فلدى دخولها وضعوا في معصمها لوحة تحمل رقماً ، وحلقوا لها الشعر في منطقة العورة ، وحمموها بماء بارد ومعقم ، دون أن يأخذوا في الاعتبار امكانية جفاف حليبها إلى الأبد ، ثم وضعوها في سرير بلا شراشف مع امرأة أخرى في مثل حالتها . وبعد أن نظروا ، دون أن يتنازلوا بالاستئذان منها ، في جميع ثقب جسدتها ، جعلوها تلد تحت مصباح وعلى مرأى من كل من شاء التطفل . تحملت كل ذلك دون تنهيدة تدمر واحدة ، ولكنها حين خرجت من هناك حاملة بين ذراعيها طفلة ليست هي طفلتها ، ومكلمة بالحياء الذي صبغها بالأحمر مثل راية ، أقسمت ألا تضع قدميها ثانية في مستشفى ما دامت على قيد الحياة . انتهت ديغنا من قلي خليط البيض والبصل واستدعت افراد الأسرة إلى المطبخ ، وجاء كل واحد منهم يحمل كرسية . فقد كان من عاداتها ، حين يبدأ الطفل بالمشي ، ان تكرس له كرسيّاً خاصاً ، لا يمكن لأحد سواه استخدامه ، وهو الملكية الخاصة الوحيدة في فقر آل رانكيليو المشترك . فهم يتقاسمون حتى الأسرة . والملابس تحفظ في سلال ضخمة من الخيزران ليأخذ أفراد الأسرة منها ما يحتاجونه كل صباح ، لأنه ليس هناك من مالك لشيء .

كان هيبوليتورانكيليو يرشف شراب ممتة بصخب ويمضغ الخبز ببطء ، بسبب أسنانه المفقودة وتلك التي ترقص في لثته . كان يبدو سليماً ، رغم أن بنيته لم تكن قوية مطلقاً . أما الآن ، فقد بدأ يشيخ بعد أن حطت السنون عليه فجأة . وتعزز زوجته ذلك الوضع الذي وصل اليه إلى حياة السيرك التشردية ، وتحواله الدائم دون هدف معين ، وإلى الأكل السيء ، وصباغ وجهه بتلك الأصبغة المستهترّة التي أباحها الله للتائهات في الشوارع ، وجعلها شديدة الضرر على شخص وقور . وفي سنوات قليلة ، تحول الشاب الوسيم الذي قبلته خطيباً لها إلى رجل ضئيل ذي وجه جاف لكثرة ما مارس عليه من حيل التنكر ، حتى أصبح الأنف يبدو كابريق . وصار يسعل كثيراً ويغفو أثناء تبادل الحديث معه . وقد اعتاد

خلال شهور الشتاء والبطالة الاضطرارية على تسلية الأطفال بارتداء ملابس المهرج . وتحت قناع الأصبغة الأبيض والفم الأحمر الضخم المنفرج عن قهقهة دائمة ، كانت ترى احاديث الإجهاد . ولأنه صار كهلاً إلى حد ما ، فقد كان يجد صعوبة متزايدة في الحصول على عمل ، فأخذت تبني الآمال على رؤيته مستقراً في الريف ليساعدها في أعمالها . فالتقدم يُفرض الآن بالقوة ، والمراسيم الجديدة تجثم كأحمال ثقيلة على كاهل ديغنا . فعلى الفلاحين الآن أن يتكيفوا مع اقتصاد السوق . فالأرض ومنتجاتها تخضع للمنافسة الحرة ، وازدهار كل فلاح يعتمد على انتاجه ومبادرته وكفاءته الادارية . وحتى الهنود الأميون كانوا يعانون المصير ذاته ، بعد أن اتاحت فرص عظيمة لمن يملكون المال ، لأنهم قادرون - ببضعة سنتات - على شراء أملاك الفلاحين الفقراء من أمثال آل رانكيليو ، أو استئجارها لمدة تسع وتسعين سنة . ولم تكن ديغنا ترغب في بيع أرضها وهجر المكان الذي أنجبت فيه أولادها وربتهم ، لتسكن في بلدة ريفية بائسة ، يسعى إليها الملاكون كل صباح لاستئجار ما يحتاجونه من أيد عاملة موفرين على أنفسهم بذلك الخوض في مشاكل مع المستأجرين . وكانت تقول ان هذا الوضع ليس إلا الفقر في الفقر ، وتسعى لجعل اسرتها تقوم بزراعة الكوادرات الست التي ورثتها . لكن صعوبة الصمود أمام المؤسسات الضخمة كانت تتزايد ، خصوصاً وإنما تفتقر إلى مساندة رجل يمد لها يد العون في هذه المشقات الكثيرة .

كانت ديغنا رانكيليو تشعر بالشفقة على زوجها ، فتحتفظ له بأفضل جزء من الطعام ، وبأكبر البيوض حجماً ، وبأنعم الصوف لتحوك له الكتزة والجوارب . كانت تحضر له الأعشاب لآلام الكليتين ، ولصفاء الدهن ، ولتنقية الدم والمساعدة على النوم ، انما لم يكن أمام هيبوليتو ، رغم عنايتها به ، مفر من الهرم . في هذه اللحظة تشاجر اثنان من الأطفال على بقايا مزيج البيض والبصل وكان يتأملهما دون مبالاة . لقد كان يتدخل في الأحوال الطبيعية ليفصل بينها بالصفعات ، أما الآن فعيناه لا تريان إلا ايفانخيلينا ، يلاحقها بعينه كما لو كان يخشى تحولها إلى مسخ مثل تلك المرأة التي في السيرك . كانت الفتاة لحظتئذ كائناً آخر بين الأولاد

المقرورين والمشعثين . ولم يكن في مظهرها ما يشير إلى ما سيحدث خلال بضع ساعات ، وبالتحديد عند انتصاف النهار .

- اشفها يا رب - كررت ديغنا وهي تغطي وجهها بمريلتها كي لا يراها الآخرون تتكلم بمفردها .



بدا الصباح رائقاً ، مما جعل هيلدا تقترح تناول الفطور في المطبخ المدفأ بحرارة الموقد فقط ، لكن زوجها ذكرها أنه لا يمكنها التهاون بأمر الرشوحات ، لأنها تعاني من رئيتها مذ كانت طفلة ، فالوقت حسب التقويم ما يزال شتاء ، رغم أن لون الصباحات وصداح القنبرات كانا ينبشان بقدم الربيع . كان عليهم الاقتصاد بالوقود ، فالوقت غلاء . لكن البوفسور ليال ، ونظراً لضعف بنية زوجته ، كان يصصر على اشعال مدفأة الكير وسين ، فكان جهاز التدفئة القديم ينتقل في غرف البيت في الليل والنهار مرافقاً تنقلات من يعيشون هناك .

فيما كانت هيلدا ترتب الأواني ، أطل البر وفسور ليال على الفناء ، مرتدياً معطفاً ولفحة وخفياً ، ليضع بذوراً في المعالف وماء في الاصص لا حظ البراعم . الدقيقة في الشجرة وقدّر أن الأغصان ستمتلئ بالأوراق عما قريب لتتحول إلى معقل أخضر يؤوي العصافير المهاجرة . كان يجب رؤية العصافير وهي تطير طليقة بقدر كراهيته للأقفاص ، فهو يرى أن حبسها لمجرد ترف امتلاكها أمام النظر هو جريمة لا تغتفر . كما انه كان مخلصاً لمبادئه الفوضوية حتى في التفاصيل : فإذا كانت الحرية هي الحق الأول للإنسان ، فلا بد لها ، وبجدارة أكبر ، ان تكون كذلك بالنسبة لتلك الكائنات التي ولدت في جانبيها أجنحة .

ناداه ابنه فرانيسكوم من المطبخ معلناً ان الشاي جاهز ، وان خوسيه قد جاء لزيارتهم . غذ البوفسور الخطي ، لأنه لم يكن معتاداً على استقباله في مثل هذا الوقت المبكر من أيام السبت ، وهو المشغول دوماً بمهامه الكثيرة في غوث الآخرين . رآه يجلس إلى المائدة ولاحظ لأول مرة أنه قد بدأ يفقد شعراً من مؤخرة رأسه .

سأله وهو يربت على كتفه :

- ماذا هنالك يا بني؟ هل حدث شيء؟

- لا يا أبتاه. رغبت في تناول فطور محترم أعدته أُمي فقط.

كان أمتن أفراد العائلة بنية وأكثرهم خشونة، والوحيد الذي ليست عظامه طويلة وليس له أنف معقوف كأنوف آل ليال. كان يبدو كصياد جنوبي ولا شيء في مظهره يشي بركة روحه. دخل مدرسة اللاهوت فور انتهائه من الليسيه دون ان يفاجيء هذا القرار أحداً باستثناء أبيه، فمند طفولته كانت له مواقف يسوعية، فكان في صغره يرتدي ملابس اسقف مستخدماً في ذلك مناشف الحمام، وكان يلعب محاكياً أداء القديس. لم يكن هناك من تفسير لهذه الميول، لأن أحداً في بيته لم يكن يمارس الشعائر الدينية بشكل مكشوف، وأمه التي تدين بالكاثوليكية، لم تكن تذهب إلى القديس مذ تزوجت. وكان عزاء البروفسور ليال حيال قرار ابنه هو انه لا يلبس مسوحاً كهنوتية وانما سروال عمال، كما انه لم يذهب للعيش في دير بل في حي بروليناري، وكان أقرب إلى هموم هذا العالم منه إلى أسرار الكنيسة. كان خوسيه يرتدي سروالاً ورثه عن أخيه الكبير، وقميصاً حائل اللون وكنتزة من صوف سميك حاكتها له أمه. وكانت يدها خشنتان من استخدام أدوات السباك التي يؤمن بها نفقات عيشه.

قال بلهجة ماكرة:

- إنني أنظم دورات في المسيحية.

- أرى ذلك - رد عليه فرانيسكو وهو يعرف ما يعنيه، إذ أنها يعملان معاً في

عيادة مجانية تابعة للخورانية، وكان مطلعاً على نشاطات اخيه.

وتنهدت هيلدا:

- أي خوسيه، لا تتدخل في السياسة. أتريدهم أن يسجنوك ثانية يا بني؟

آخر اتهامات خوسيه ليال كان أمنه الشخصي. فنفسه لا تتسع إلا للحالات

بؤس الآخرين. انه يحمل على كاهله حملاً لا يطاق من الآلام والمظالم. وكثيراً ما

كان يعاتب الخالق الذي يختبر ايمانه بهذه القسوة: إذا كان الحب الإلهي موجوداً؛

فإن كل هذا الألم البشري لا يعدو أن يكون أكثر من سخريّة . وفي خضم تلك المهمة الشاقة لاطعام الفقراء وايواء اليتامى فقد برقه الكهنوتي الذي اكتسبه في المدرسة الاكليريكية ، ليتحول نهائياً إلى كائن متجهم وجاف ، موزعاً ما بين القنوط والشفقة . لقد ميزه أبوه من بين أبنائه لأنه استطاع رؤية التشابه بين أفكاره الفلسفية وأفكار ابنه التي يعتبرها خرافات مسيحية فجّة . وهذا ما خفف من أساه ، ووصل به الأمر لأن يصفح عن ميول خموسيه الدينية ويتخلى عن التحسر في الليل ورأسه غارقة في الوسادة كي لا يثير قلق زوجته ، مفرجاً عن نفسه عار وجود خوري في العائلة .

قال خموسيه متوجهاً إلى فرانثيسكو:

- الحقيقة إنني جنّت في طلب أخي . عليك أن تأتي لمساعدة طفلة في الحمي . لقد اغتصبوها قبل اسبوع ، فأصيبت بالكم منذ ذلك الحين . استخدم معارفك السيكلوجية ، لأن الله وحده لم يعد كافياً لكل هذه المشاكل الكثيرة كما يبدو .

- اليوم لا أستطيع ، فعلي أن أرافق ايرين لالتقاط بعض الصور ، لكنني سأرى الفتاة غداً . كم عمرها؟

- عشر سنوات .

فهتفت هيلدا:

- يا الله ! أي مسخ استطاع عمل ذلك بتلك المسكينة البريئة؟

- أبوها .

فأمر البروفسور ليال:

- كفى من فضلك ! أم أنك تريد المرض لأملك؟

سكب فرانثيسكو الشاي للجميع ولبثوا برهة صامتين ، يبحثون عن موضوع للحديث كي يمحووا كآبة هيلدا ، المرأة الوحيدة في عائلة من الذكور ، والتي استطاعت أن تفرض رقتها ورسالتها عليهم . فهم لا يذكرون أنهم رأوها يوماً ساخطة . ولا مجال بحضورها لمشاحنات الصبيان ، ولا للنكات اللاذعة أو

البذءات . لقد كان الغم يستولي على فرانسيسكو في طفولته لاحتساسة بأن أمه ، التي عانت بها خشونة الحياة ، قد تضمحل شيئاً فشيئاً إلى أن تتلاشى نهائياً ، كأنها ضباب . فكان يهرع عندئذ إلى جوارها ، يعانقها ويتشبث بملابسها في محاولة يائسة للابقاء على حضورها ، على دفئها ، على راحة مريلتها ، وإيقاع صوتها . لقد انقضى زمن طويل على ذلك العهد ، إلا أن الخنوع عليها كان هو احتساسة الأكثر رسوخاً .

فرانسيسكو هو الوحيد الذي بقي في بيت أبويه بعد زواج خابيير وذهاب خوسيه إلى المدرسة الاكليريكية . كان يشغل الغرفة ذاتها التي كانت له في طفولته ، والتي تضم اثناً من خشب الصنوبر ورفوفاً تغص بالكتب . لقد نوى في احدى المرات أن يستأجر بيتاً مستقلاً ، ولكنه في أعماقه كان يجب رفقة أسرته ، كما أنه لم يكن يرغب من جهة اخرى في ان يسبب الماء لا مبرر له لأبويه اللذين لا يريان سوى ثلاثة مبرات تسمح للأبناء بالخروج من البيت : الحرب ، أو الزواج ، أو الرهبنة . ثم أضافا إليها سبباً آخر فيما بعد : الهرب من مطاردة الشرطة . كان بيت آل ليال صغيراً ، قديماً ، متواضعاً ، وبحاجة للطلاء والترميم . في الليل يثن بنعومة ، مثل عجوز منهكة ومصابة بداء المفاصل . لقد صممه البر وفسور ليال قبل سنوات طويلة ، واضعاً نصب عينيه ان الشيء الوحيد الذي لا غنى عنه هو مطبخ فسيح تدور الحياة فيه ويتسع لمطبعة سرية ، وفناء لنشر الملابس والجلوس لتأمل العصافير ، وعدد كاف من الغرف توضع فيها أسرة الأولاد . وما خلا ذلك يعتمد على اتساع الروح وسعة المخيلة ، وهكذا ما كان يقوله كلما ادعى أحدهم ضيق البيت أو تواضعه . استقروا فيه ، وكان ثمة متسع ورحابة صدر لاحتضان الأصدقاء المنكوبين والأقرباء القادمين من أوروبا هرباً من الحرب . كانوا أسرة متألفة ، فإلى أن بلغ الأولاد سن المراهقة ، وصاروا يحملون شواربهم ، كانوا يدرسون أنفسهم في سرير أبويهم ليقرأوا الجريدة في الصباح وليطلبوا من هيلدا أن تحك لهم ظهورهم . وعند ذهاب الابنين الكبيرين ، أحس آل ليال أن البيت صار واسعاً ، وصاروا يرون ظلالاً في الاركان ويسمعون أصداء

في المرات، ولكن الأحفاد ولدوا فيما بعد وعاد الصخب المعتاد إلى البيت .

كانت هيلدا تقول كلما نزل المطر أو ظهر ثقب يقطر منه الماء :

- لا بد من اصلاح السقوف واستبدال أنابيب التمديدات .

فيرد زوجها :

- لماذا؟ فما زال لنا بيت في تير ويل^(١)، وعندما يموت فرانكو سنرجع إلى

اسبانيا .

كان البروفسور ليال يحلم بالعودة إلى وطنه منذ اليوم الذي حملته فيه السفينة بعيداً عن شواطئ أوروبا . وقد أقسم وهو ساخط على الزعيم^(٢)، ألا يستخدم الجوارب إلى أن يأتيه خبر دفنه، دون ان يتصور ان تحقيق رغبته سيتأخر عشرات السنين . وقد سبب له عهده هذا ظهور حراشف في قدميه وحمل له المضايقات في حياته المهنية . فقد كان يجتمع في بعض الأحيان بشخصيات رابعة أو يُتتدب لاجراء امتحانات في المعاهد والأكاديميات، فكانت قدماه العاريتان في حدائيه الواسع ذي النعل المطاطي تثيران تقولات الآخرين . لكنه لشدة اعتداده بنفسه، كان يفضل أن ينظروا إليه كأجنبي غريب الأطوار أو كبائس لا يكفي دخله لشراء الجوارب على أن يقدم أية تفسيرات . وفي المناسبة الوحيدة التي استطاع فيها الذهاب مع اسرته إلى الجبال للاستمتاع بالثلج عن قرب، بقي في الفندق وقدماه زرقاوان ومتجمدتان كسمك الرنكة .

قالت له هيلدا متوسلة :

- البس جورباً يا رجل . ألا ترى أن فرانكولا يعرف شيئاً عن عهدك .

فألهمها بنظرة ملؤها الوقار وبقي وحيداً إلى جانب المدفأة . وعندما مات

١ - تير ويل : مدينة اسبانية . ويبدو واضحاً ان البروفسور ليال وزوجته هما من المهاجرين الاسبان الذين لجأوا الى بلدان امريكا اللاتينية بعد الحرب الأهلية الاسبانية وسقوط الجمهورية سنة ١٩٣٩ .

٢ - الزعيم Caukillo : من ألقاب الجنرال فرانكو، قائد التمرد ضد الجمهورية الاسبانية .

عدوه اللدود، لبس زوجاً من الجوارب الحمراء اللامعة التي تعبر بحد ذاتها عن كل فلسفته في الوجود، لكنه وجد نفسه مضطراً إلى نزع الجوربين من قدميه قبل مضي نصف ساعة على لبسهما، فقد أمضى زمناً طويلاً دون أن يستخدمها، ولم يعد بإمكانه احتمال الجوارب بعد كل ذلك الزمن. حينئذ، ولكي يداري عجزه، أقسم على مواصلة عدم استخدام الجوارب إلى ان يسقط الجنرال الذي يحكم بيد من حديد وطنه بالتبني.

كان يقول:

- ألبسوني جوارب عندما أموت، اللعنة. أريد الذهاب إلى الجحيم

بجوارب حمراء.

لم يكن يؤمن باستمرار الحياة بعد الموت، لكن كل احتياط في هذا المجال كان غير ذي قيمة بالنسبة لجلبته النبيلة. لم تجعله عودة الديمقراطية في اسبانيا يستخدم الجوارب كما أنها لم تُرجعه إلى وطنه، لأن أبناءه وأحفاده وجذوره الاميركية أقدته. كما ان البيت لم يرمم كما يجب، لأن العائلة شُغلت باهتئات اخرى بعد الانقلاب العسكري. فبسبب أفكاره السياسية، أدرج اسم البروفسور ليال في لائحة غير المرغوب فيهم وأجبر على التقاعد. لم يفقد تفاؤله وهو يجد نفسه بلا عمل وبراتب تقاعدي ضئيل، بل انه طبع في المطبخ بطاقات يعرض فيها اعطاء دروس في الأدب ووزعها حيث استطاع. وقد تمكن بتلاميذه القليلين من تحقيق تعديل طفيف على الميزانية، فاستطاعت الأسرة ان تعيش حياة بسيطة وتقدم المساعدة إلى خابيير، حين وجد الابن الأكبر نفسه في ضائقة مادية جدية لا يستطيع معها القيام بأود زوجته وأطفاله الثلاثة. انحدر مستوى معيشة آل ليال، كما حدث لكثيرين من وسطهم، فاستغنوا عن نفقات حضور الحفلات الموسيقية، والمسرح، والكتيب، والاسطوانات وبعض وسائل الترفيه الأخرى التي كانت تبعث السعادة في أيامهم. وفيها بعد، حين أصبح مؤكداً أن خابيير لن يجد عملاً، قرر والده بناء غرفتين وحمام في الفناء ليضمه اليهم مع أسرته. كان الإخوة الثلاثة يجتمعون في نهاية كل اسبوع ليينوا الأجر تحت اشراف البروفسور ليال،

الذي كان يحصل على معلوماته من كتاب في تعليم البناء اشتراه من تصفية كتب قديمة . وحيث أنه لم تكن لأي منهم أدنى خبرة في هذه المهنة، ولأن الكتاب كان ناقصاً عدة صفحات، فقد كانت نتيجة عملهم متوقعة . فحين ينتهي البناء، سيكون عبارة عن جدران متموجة يفكرون باخفائها بلبلاب يغطيها . لقد عارض خابيير حتى النهاية فكرة العيش عالية على والديه . فقد اكتسب بالوراثة طبع الاعتداد بنفسه .

- حيث يأكل ثلاثة، يأكل ثمانية - قالت له هيلدا دون أن تبدل من رصانتها المعهودة . فهي حين تتخذ قراراً يكون قرارها غير قابل للاستئناف في الغالب .
وأضاف البر وفسور ليال :
- إنها أزمئة رديئة يا بني ، وعلينا أن نتعاون .

وعلى الرغم من المصاعب، فقد كان يشعر بالرضا عن حياته، وكان سيشعر بالسعادة التامة لو لم تقلقه منذ سنوات شبابه العاطفة الثورية العاصفة التي حددت مسار حياته وطباعه . فقد كرس جزءاً كبيراً من نشاطه ووقته وماله لنشر مبادئه الايديولوجية . ربي ابناؤه الثلاثة على عقيدته، وعلمهم منذ نعومة أظفارهم على كيفية تشغيل آلة الطباعة السرية التي في المطبخ، ورافقهم لتوزيع المنشورات عند أبواب المصانع من وراء ظهر الشرطة . وكانت هيلدا إلى جانبه دوماً في الاجتماعات النقابية، حاملة سنابير الحياكة التي لا تكل في يديها والصوف في كيس على ركبتيها . وفيما زوجها يخطب في الرفاق، تسرح هي في عالم سري، متذوقة ذكرياتها وحائكة العواطف، ومعيدة بناء أجمل ما لديها من أشواق، ساهية تماماً عن صخب المناقشات السياسية . وعبر عملية اصطفاء طويلة وهادئة، تمكنت من محو الجزء الأعظم من نكباتها السابقة ولم تحتفظ إلا بالذكريات السعيدة . فهي لم تتحدث يوماً عن الحرب، ولا عن القتلى الذين دفنتهم، ولا عن الحادث الذي وقع لها ولا عن مسيرتها الطويلة الى المنفى . الذين يعرفونها يعزون هذه الذاكرة الاصطفائية الى الضربة التي شقت رأسها في

شبابها، لكن البر وفسور ليال، القادر على فهم مدلول الايحاءات، كان يشك انها لم تنس شيئاً. كل ما في الأمر انها لا تريد حمل أحزان قديمة، ولذا فإنها لا تأتي على ذكرها، وتلغيتها بالصمت. لقد رافقت زوجته عبر كل الدروب خلال زمن طويل، حتى إنه لا يستطيع أن يتلمّح الحياة بدونها. فقد سارت إلى جانبه بخطوات واثقة في مظاهرات الشوارع. وربيا أولادهما في تعاون حميم. ومدت يد العون معه لآخرين أكثر بؤساً منهم، وعسكرت في العراق في ليالي الاضرابات، وكانت تستيقظ منذ الفجر لتخيط ملابس للآخرين حين لا يكفي راتبه للقيام بأود الاسرة، وقد رافقته بالحماس نفسه إلى الحرب وإلى المنفى، وحملت له الطعام الساخن إلى السجن عندما اعتقل، ولم تفقد اترانها يوم حجزوا على اثاث بيتها، كما لم تفقد طيب مزاجها حين ناما مرتعشين من البرد على سطح الدرجة الثالثة في سفينة اللاجئين. كانت هيلدا تتقبل كل شذوذات زوجها - وهي ليست بالقليلة - دون ان تعكر صفوها، لأنها لم تفعل شيئاً خلال حياتها المشتركة الطويلة إلا مراكمة الحب نحوه.

قبل زمن بعيد، وفي ضيعة اسبانية صغيرة، بين جبال وعرة وكروم عنب، طلبها للزواج. فردت عليه إنها كاثوليكية وتفكر بالبقاء كذلك، وانه لا يوجد لديها شيء شخصي ضد ماركس، لكنها لا تطيق وجود صورته فوق السرير، وإنها ستعمد أولادها لتحول دون المجازفة بموتهم مسلمين وانتهائهم إلى الليمبوس^(١). كان بروفوسور المنطق والأدب شيعوياً مندفعاً وملحداً، لكنه لم يكن يخلو من بعد نظر، وأدرك أنه لا شيء سيبدل من رأي الصبية المتوردة الهشة ذات العينين البراقتين، والتي أحبها حباً مؤكداً. وكان من الخير له بالتالي أن يفوضها للتوصل معها إلى اتفاق. فاتفقا على الزواج من خلال الكنيسة، وهي الطريقة القانونية الوحيدة للزواج في ذلك الزمان، وأن يتلقى الأولاد أسرار الكنيسة على أن يتلقوا

١ - الليمبوس Limbo : موطن الأرواح المنسية أو المهملة، المحرومة من دخول الجنة لغير ذنب اقترفته، كأرواح الأطفال غير المعمدين.

علمهم في مدارس علمانية، وأن يختار هو أسماء الأبناء الذكور بينما تختار هي أسماء الاناث، وأن يُدفن في قبر بلا صليب، توضع عليه لوحة يختار هو مضمون الكتابة التي ستنقش عليها. وقد وافقت هيلدا لأن هذا الرجل الضامر ذا اليدين الشبهتين بيدي عازف بيانو، والذي في عزوقه نار متقدة هو من كانت تريده زوجاً لها. وقد نفذ البر وفسور الجزء الخاص به من الاتفاق بالاستقامة الصارمة التي يتصف بها، لكن هيلدا لم تكن بمثل استقامته. فيوم ولادة الابن البكر، كان زوجها غارقاً في غمرة الحرب، وعندما استطاع الذهاب لرؤيتها، كان الابن قد تعمد باسم خايير، مثل جده. وكانت المرأة في حالة يرثى لها والوقت غير مناسب للبدء في خصام، لكنه قرر أن يلقيه فلاديمير، الأسم الأول للينين. غير أنه لم يستطع فرض ذلك أبداً، فحين كان يناديه بهذا الأسم، كانت زوجته تسأله أية شياطين يعني، وكان الصغير من جهته ينظر إليه مذهولاً ولا يرد عليه. وقبل الولادة الثانية، استيقظت هيلدا في صباح أحد الأيام لتروي حلماً رأتها: ستلد طفلاً ذكراً، ولا بد من تسميته خوسيه. تجادلا بعصية لبضعة أسابيع، إلى أن توصلا إلى حل مناسب: خوسيه ايلتش. ثم قذفا قطعة عملة معدنية في الهواء ليقررا أي الأسمين يستخدمان فكسبت هيلدا، إلا أن الذنب في هذه المرة لم يكن ذنبها، وإنما ذنب الحظ الذي لم يرقه الاسم الثاني للقائد الثوري. بعد عدة سنوات ولد الابن الأخير، وكان البر وفسور ليال قد فقد شيئاً من حماسه تجاه السوفييت، فنجما الوليد من تسميته أوليانوف. وأطلقت عليه هيلدا اسم فرانيسكو، تكريماً للقديس دي اسيس، شاعر الفقراء والحيوانات. وربما لهذا السبب، ولكونه الأصغر سناً والأكثر شبيهاً بأبيه، أولته حناناً خاصاً. وقد كافأ الطفل حب أمه الشامل بعقدة أوديب مكتملة دامت حتى بلوغه سن الرشد حين جعله التبديل الذي طرأ على حياة أخويه يدرك أنه توجد نساء اخريات في هذا العالم.

في صباح يوم السبت هذا، أنهى فرانيسكو تناول الشاي، وألقى على كتفه الحقيبة التي تضم معدات التصوير وودع الاسرة.

قالت أمه :

- تدثر جيداً، فهواء الدراجة النارية مؤذ.

فقال زوجها:

- دعيه يا امرأة، فهو لم يعد طفلاً.

وضحك الابن.



في الشهور الأولى التي تلت ميلاد ايغانخيلينا، ندبت ديغنا رانيكليوسوء طالعتها وفكرت بان السماء تعاقبها لذهابها إلى المستشفى بدلاً من البقاء في البيت . فالكتاب المقدس يقول : بالألم ستلدين ، وهذا ما ذكرها به القس الموقر كذلك . لكنها أدركت فيما بعد كم هي نوايا الرب بعيدة الغور . فربما كانت هذه المخلوقة الشقراء ذات العينين الزرقاوين تعني شيئاً في قدرها . وبمساعدة روحية من جانب الكنيسة الانجليكانية الحقيقية ، قبلت الاختبار وأبدت استعدادها لحب هذه الطفلة ، رغم نزواتها . كثيراً ما كانت تذكر الطفلة الأخرى ، التي أخذتها الاشبينة فلوريس والتي هي ابنتها الحقيقية . وكان زوجها يواسيها بالقول إنها تبدو أكثر عافية وقوة ولا بد أنها ستعيش حياة أفضل في بيت الأسرة الأخرى .

- آل فلوريس يملكون قطعة أرض جيدة . ويشاع أنهم سيشترون جراً . وهم ذوو خبرة ، وينتمون إلى النقابة الفلاحية - هكذا كان هيبوليتويرر الأمر بعد عدة سنوات ، وقبل أن تنفض الكارثة على بيت آل فلوريس .

بعد الولادة ، حاولت المرأتان المطالبة بابنتيهما ، مؤكدين انها رأتاهما تولدان وانهما انتهتا إلى وقوع الخطأ من لون شعرهما ، لكن مدير المستشفى رفض الاستماع إلى أي كلام في هذا الموضوع وهدد بارسالهما إلى السجن بتهمة بث الافتراءات ضد المؤسسة الصحية . واقترح الابوان استبدال الابنتين ببساطة وحل القضية ، لكن المرأتين لم ترضيا بعمل ذلك دون سند قانوني . وقررتا أن تبقي كل منهما مؤقتاً على الطفلة التي تحملها بين يديها إلى أن تتضح المشكلة أمام السلطات . ولكن بعد اضراب في جهاز الخدمات الصحية ونشوب حريق في

السجل المدني، حيث استبدل الموظفون واختفى الأرشيف، انتهت آمالهما بالوصول إلى نتيجة مرضية. فاختارتا أن تربي كل منهما ابنة الأخرى وكأنها ابنتها. وعلى الرغم من أنهما كانتا تعيشان على مسافة ليست بالبعيدة، فقليلاً ما كانت الفرصة تسنح لهما للقاء، لأن حياتيهما كانتا منعزلتين. لقد اتفقتا منذ البدء على أن تدعو كل منهما الأخرى بلقب اشبينة، وإن تعمدا المولودتين بالاسم ذاته، حتى إذا ما استعادتا كنيتهما الشرعيتين يوماً لا تضطران إلى التآلف مع اسم جديد. كما أطلعتا الصغيرتين على الحقيقة مذ وصلتا إلى سن الإدراك، لأنهما ستعرفان ذلك عاجلاً أو آجلاً. فجميع أهل المنطقة يعرفون قصة الايفانخيلينتين المستبدلتين، ولن يعدم من ينقل القصة إلى الفتاتين.

أصبحت ايفانخيلينا فلوريس فلاحه تقليدية سمراء، ذات عينين ثاقبتين، ووركين ضخمين ونهدين مكورين، ومستقرة تماماً فوق ساقيهما المتينتين والمنحوتتين. كانت متينة وذات مزاج مرح. أما آل رانكيليو فكانت من نصيبهم ابنة بكاءة، ممسوسة، هشة ومحتاجة لعناية دقيقة. كان هيبوليتو يوليها اهتماماً خاصاً، تقديراً منه واحتراماً لبشرتها الوردية وشعرها الأشقر، الغريبين تماماً عن الأسرة. فهو يراقب ابنائه الذكور مراقبة صارمة حين يكون في البيت، كي لا يتجاوزوا الحدود مع هذه الطفلة التي لا تحمل دماءهم. وقد فاجأ ابنه براديليو في مناسبتين وهو يداعبها ويلامسها بخبث، وبيوسها، ولكي يضع حداً لميوله في ملامستها ضربه ضرباً كاد يؤدي به إلى الحياة الأخرى، لأن ايفانخيلينا ستكون أمام الله والبشر مثل اخته. لكن هيبوليتو لم يكن يقيم في البيت إلا لبضعة شهور وغير قادر على فرض احترام أوامره في بقية شهور السنة.

فمنذ أن هرب للعمل في سيرك وهو في الثالثة عشرة من عمره، مارس هيبوليتو رانكيليو هذه المهنة ولم يعد يهتم بسواها مطلقاً. كانت زوجته وأولاده يودعونهم عندما تبدأ الأجواء الطيبة الدافئة وتزهو الخيام المرقعة. يمضي من قرية إلى قرية ذارعاً البلاد لعرض مهاراته في جولات كرنفالية بائسة ومرهقة. كان يؤدي أعمالاً متعددة تحت الخيمة. ففي أول الأمر كان يقفز على الأرجوحة ويؤدي

الحركات البهلوانية، لكنه فقد القدرة على التوازن والمهارة مع مرور السنين، ثم عمل لوقت قصير في ترويض ضواري تبعث على الرثاء، فكانت تثير شفقتهم وتحطم أعصابه. ثم قنع أخيراً بالعمل كمهرج. لقد كانت حياته، مثل حياة أي فلاح، محكومة بحالة الأمطار وضوء الشمس. وخلال شهور البرد والرطوبة، لم يكن الحظ يتسم للسيركات الفقيرة، فكان يركن للبيات الشتوي في بيته، ولكنه مع تنفس الربيع، يقول لأهل بيته وداعاً وينطلق دون تردد، تاركاً لزوجته مسؤولية الأولاد وأعمال الحقل. فهي تحسن إدارة هذه الأمور خيراً منه، لأنها تحمل في عروقتها خبرة أجيال عديدة. والمرة الوحيدة التي ذهب فيها إلى القرية ومعه نفود المحصول ليشتري ملابس ومؤونة للسنة، شرب حتى سكر وسرقوا منه كل شيء فافتقدت مائدة آل رانكيليو السكر لعدة شهور، ولم يحصل أي منهم على حذاء جديد، ومن هنا جاءت ثقته بتفويض زوجته مسؤولية المهات التجارية. وكانت هي أيضاً تفضل ان تكون الأمور على هذا الحال. فمنذ بدء حياتها الزوجية ألقت على عاتقها مسؤولية الاسرة والزراعة. وكان من الأمور الطبيعية رؤيتها منكبّة على المعجن أو على المحراث، أو محاطة بحشد صبية من مختلف الأعمار يتعلقون بأذيالها. ثم كبر براديليو وظنت انه سيساعدها في أعمالها الكثيرة، ولكن ابنها كان منذ بلوغه الخامسة عشرة أقوى وأطول فتى عرفته تلك الانحاء، لهذا أدرك الجميع انه بعد انتهائه من الخدمة العسكرية سيلتحق دون ريب بسلك الشرطة.

عندما تهطل أول الأمطار، كانت ديغنا رانكيليو تنقل كرسيها إلى المر وتجلس هناك لمراقبة منعطف الطريق. وفيما يداها مشغولتان دوماً في صنع سلال من القش أو في تقييف ملابس الأطفال، كانت عينها المتيقظتان ترنوان إلى الطريق بين الفينة والفينة. وفجأة، في يوم لا على التعمين، يظهر شبح هيبوليتو الضئيل حاملاً حقيبته الكرتونية. ها هو ذا محط اشواقها يتجسد في آخر الأمر، مقترباً بخطوات تصبح أكثر تناقلاً عاماً بعد عام، لكنه رقيق ومرح كما كان على الدوام. فيدوخ قلب ديغنا، تماماً مثلما حدث لها في المرة الأولى منذ سنوات بعيدة، حين، تعرفت عليه عند شباك التذاكر في سيرك جوال، ببدلته البالية المخططة

بالأخضر والذهبي وتعابير عينيه السوداء والهاثجة، محرضاً الجمهور على الدخول لمشاهدة الاستعراض. كان له حينئذ وجه مريح، لأنه لم يكن قد وضع قناع المهرج على بشرته بعد. لم تكن زوجته قادرة على استقباله استقبالاً طبيعياً أبداً. فقد كانت تضغط على صدرها لتداري انفعالات مراهقة تدفعها للقفز نحوه والتعلق بعنقه لتخفي دموعها. لكن شهور الفراق كانت تولد فيها الخفر وتجعلها تحيي بتحية متحفظة، خافضة عينها، ومتوردة الوجنتين خجلاً. هاهذا رجلها هنا. لقد رجع. كل شيء سيبدل لبعض الوقت، لأنه يتقن التمويض عن غيابها. وفي الشهور التالية تبتهل إلى جميع الأرواح الخيرة التي في كتابها المقدس كي يستمر هطول المطر دون توقف ويتجمد التقويم على شتاء بلا نهاية.

أما بالنسبة للأبناء، فقد كانت عودة الأب حدثاً لا أهمية له. فلدى رجوعهم في أحد الأيام من المهلثة ^{أو من العسل في الحقل}، يجلسون جالساً إلى جانب الباب على كرسية المقيش، وكأس المتة في يده، منسجلاً مع لون الخريف، وكأنه لم يتعد يوماً عن هذه الأرياف، وعن هذا البيت، وعن هذه الدوالي التي تحف عناقيدها المعلقة في الكلابات، وعن الكلاب المستقلية في الفناء. ويلمح الأولاد عيني أمهم المعكرتين، وحيوية حركاتها في خدمة زوجها، ومراقبتها الثقلة لهذه اللقاءات بين الأبناء وأبيهم لتحول دون اقدام الأولاد على أية سفاهة. فاحترام الأب هو دعامة الأسرة، كما يقول العهد القديم، ولهذا فإنه ممنوع على الأولاد أن يدعونه باسم «طوني تشالوسينا»، كما لا يحكيهم الجديث عن عمله كمهرج، ولا أن يوجهوا إليه أسئلة، وأن ينتظروا إلى أن يجدهم عندما يرغب في ذلك. في سنوات شبابه، عندما كان هيبوليتو يقذف بواسطة مدفع من أحد طرفي خيمة السيرك إلى الطرف الآخر، ويهوي على الشبكة وهو يخيق برائحة البارود ويتسم ابتسامة قلقة، كان يمكن للأولاد أن يشعروا بالفخر به بعد أن يرايهم الحرف عليه، لأنه كان بطير مثل باشق. لكن ديغنا لم تعد تسمح لهم بالذهاب إلى السيرك فيما بعد ليروا أباهم وهو ينحدر ليقصر على أداء القفزات التهرججية، لأنها كانت تفضل أن يحتفظوا في ذاكرتهم بتلك الصورة الناجحة وألا ينجلوا من

ملا بسه كمهرج عجوز، ذليل ومهان، يطلق الريح، ويتكلم بصوت مصطنع ويضحك بلا سبب. وعندما مر السيرك من لوس ريسكوس وهو يجردباً منتوف الفرو ونودي على الأهالي بالمزمار ليشهدوا الاستعراض الدولي العظيم الذي ينشده الجمهور في كل مكان، رفضت أخذ الأولاد خوفاً من رؤية المهرجين، لأنهم جميعهم متشابهون في الهيئة وكلهم مثل هيبوليتو. ومع ذلك، وفي حمية المنزل، كان يتنكر ويطلي وجهه، ولكن ليس لأداء قفزات تهريرية لا وقار فيها أول رواية نكات بذيثة، وإنما ليمتعهم بقصصه عن الغرائب: المرأة الملحية، والرجل الغوريلا الذي تصل قوته حد القدرة على سحب شاحنة بسلك مثبت بين أسنانه، وأكل النار القادر على ابتلاع شعلة متقدة بالنفط لكنه يعجز عن اطفاء شمعة باصابعه، والقزمة بيضاء الشعر والوجه التي تمتطي ردف عنزة، والبهلوان الذي سقط على رأسه من الأرجوحة العليا ولطح الجمهور الموقر بفترات دماغه. ولدى الانتهاء من رواية هذه الحكاية المأساوية، كان هيبوليتو يعلق موضعاً:

- ان دماغ المسيحيين مشابه لأدمغة البقر.

ولم يكن أولاده يملون الاستماع إلى القصص ذاتها مرة بعد اخرى وهم متعلقون حول أبيهم. وأمام عيون أفراد الأسرة المشدوهين الذين يستمعون إلى كلماته المتوقفة في الزمن، كان هيبوليتو رانكيليو يسترد كل الوقار المسفوح في الاستعراضات المبتذلة، حيث يكون محطاً للسخریات.

في بعض ليالي الشتاء، وبعد أن يكون الأطفال قد ناموا، كانت ديغنا تخرج الحقيبة الكرتونية المخبأة تحت السرير وتصلح على ضوء شمعة ملابس عمل زوجها، فتعيد تثبيت الأزرار الضخمة الحمراء، وترفو ما تمزق هنا وتضع رقعة استراتيجية هناك، وتلمع بشمع النحل الحذاء الأصفر العجيب، وتحيك سراً جوارب التنكر المخططة. وكانت تستغرق في هذا العمل كاستغراقها الحاني في لقاءاتهما الغرامية القصيرة. ففي الصمت الليلي تتعاطم الأصوات الخافتة، ويصفع المطر قرميد السطح وتُسمع بوضوح أنفاس أولادها النائمين في الأسرة

المجاورة، حتى أنه يمكن للأم أن تحزر أحلامهم . في ذلك الصمت . كان الزوجان يتعانقان تحت الغطاء، حابسين أنفاسهما، يلفها دفء مؤامرتها الغرامية السرية . وعلى خلاف غيرهما من الفلاحين، فقد تزوجا بعد أن أحب كل منهما الآخر، وبالحب أنجبا أولاداً . ولهذا فإنهما لم يندما على مجيء طفل جديد حتى في أفسى أزمنة الجفاف أو الزلازل أو الفيضانات، حين تكون القدور فارغة، لأن الأطفال مثل الورد والخبز، كما تقول إحدى مباركات الرب .

كان هيبوليتورانكيليو يغتنم فرصة وجوده في البيت لينصب الأسيجة، ويجمع الحطب، ويصلح أدوات العمل، ويرقع السقف عندما يهدأ المطر . ومن مدخرات جولاته السيركية، ومن بيع العسل والخنازير، كان يقوم بأوداسرته بفضل تدابير اقتصادية متشددة . لم يكن الطعام يفتقد في سنوات الرخاء، ولكن المال كان شحيحاً حتى في أحسن الأوقات . ما كانوا يرمون أو يهدرون شيئاً . فالصغار يأخذون ملابس من هم أكبر منهم سناً ويستخدمونها إلى أن لا تعود الأنسجة المهترئة تحتل مزيداً من الترييق وتتفتت مثل قشور جافة . والكنزات الصوفية كانت تُفك حتى آخر خيط منها، فيغسل الصوف ثم تعاد حياكته . كان الأب يصنع نعالاً للجميع، وكانت الأم لا تريح سنانير حياكة الصوف وماكينه الخياطة . ما كانوا يشعرون بالفاقة مثل بعض الفلاحين الآخرين، لأنهم كانوا يملكون الأرض الموروثة عن الأجداد، ولديهم بهائمهم وأدوات عملهم الزراعية . لقد تلقوا مرة فيما مضى قرضاً زراعياً وأحسوا بالازدهار لبعض الوقت، لكن الأمور ما لبثت أن عادت إلى وتيرتها القديمة . كانوا يعيشون على هامش سراب التقدم الذي يُنزل النكبات ببقية أرجاء البلاد .

همست ديغنا لزوجها :

- هيبوليتو، كفاك نظراً إلى ايفانجيلينا .

فقال :

- قد لا تأتيها النوبة اليوم .

- ستأتيها دوماً . لا نستطيع عمل شيء .

انتهت الأسرة من تناول الفطور، وتفرق أفرادها، ساحباً كل منهم كرسية الخاص. كان الصغار يسيرون يومياً، من الاثنين وحتى يوم الجمعة، نحو نصف ساعة من المشي السريع للذهاب إلى المدرسة. وفي الأيام الباردة، تعطي الأم لكل واحد منهم حصاة مسخنة في النار ليضعها في جيبه، وبهذا تبقى يداه دافئتان. كما كانت تعطيهم قطعة من الخبز وقالبين من السكر. ففي السابق، حين كانوا يقدمون لهم حليباً في المدرسة، كانوا يستخدمون السكر لتحليته، ولكنهم منذ سنوات صاروا يمصون قطع السكر في الفسحة وكأنها حلوى. ان نصف ساعة المسير هذه كانت رحمة إلهية، لأنهم حين يصلون إلى البيت تكون نوبة اختهم قد انقضت ويكون الزائرون قد انصرفوا. لكن اليوم هو السبت، وسيكونون حاضرين في الغالب، وسيلبل خائيتو فراشه من هول كوابيسه. ايفانخيلينا لم تعد تذهب إلى المدرسة مذ ظهرت أول علائم تغيرها. إن أمها تذكر بدقة كيف بدأت المصيبة. كان ذلك يوم مؤتمر الضفادع بالذات. لكنها متأكدة من أن هذا الحادث لا علاقة له بمرض الطفلة.

في صباح أحد الأيام الباكر، اكتشفوا وجود ضفدعتين متكبرتين تتأملان المشهد الطبيعي قريباً من تقاطع السكة الحديدية. وبعد ذلك بقليل جاءت ضفادع أخرى كثيرة قادمة من كل الاتجاهات، ضفادع مستنقعات صغيرة، وطفادع أبار متوسطة الحجم، وطفادع بيضاء من السواقي، وطفادع رمادية من الأنهار. أطلق أحدهم صوت الانذار، فهرع الجميع لرؤيتها. وفي أثناء ذلك انتظمت الضفادع في صفوف متلاحمة وانطلقت في مسيرة منتظمة. وأثناء الطريق انضمت إليها ضفادع أخرى حتى صار هناك حشد أخضر يتجه نحو الطريق العام. انتشر الخبر، وجاء الفضوليون سيراً على الأقدام، وعلى الخيول، وفي الحافلات، متداولين حول هذه الأعجوبة التي لم يسبق لها مثيل. واحتل ذلك الموازيك النسابض بالحياة اسفلت الشارع الرئيسي المؤدي إلى لوس ريسكوس، مجبراً السيارات التي كانت تذرع الطريق في تلك الساعة على التوقف. وقد حاولت شاحنة متهوره التقدم، فانزلقت فوق جثث الضفادع الممزقة وانقلبت عن الطريق

وسط حماس الأطفال الذين سارعوا للاستيلاء على البضائع التي تناثرت في الحرش. طارت الشرطة فوق المنطقة في طائرة هليكوبتر للتأكد من أن هناك مئتان وسبعون متراً من الطريق مغطاة بصفادع متراصة حتى لتبدو وكأنها سجادة براقية من الطحالب. اذيع الخبر من الاذاعة، وبعد وقت قصير حضر الصحفيون يرافقهم خبير صيني من الأمم المتحدة، أكد أنه قد رأى ظاهرة مشابهة في طفولته في بكين. نزل الأجنبي من سيارة سوداء ذات لوحات رسمية، حياً إلى اليسار وإلى اليمين وصفق الحشد له، خالطين طبعاً بينه وبين رئيس جمعية المغنين الهواة. وبعد أن تفحص الشرقي تلك الحشود الهلالية لبضع دقائق، استسج انه لا مبرر للذعر، فالأمر لا يعدو أن يكون مؤتمراً للصفادع واستخدمت الصحافة تلك التسمية. ولأن الزمن كان زمن فقر وندرة، فقد سخرت الصحف قائلة انه نظراً لافتقاد المن، أرسل الرب الصفادع من السماء كي يطبخها شعبه المختار مع الثوم والكزبرة.

عندما أصابت النوبة ايفانخيلينا، كانت الصفادع المشاركة في المؤتمر قد تفرقت، وكان مصورو التلفزيون ينزلون معداتهم عن الأشجار، والساعة تشير إلى الثانية عشرة ظهراً، وكان الهواء يتلألأ نقياً، وقد غسله المطر. بقيت ايفانخيلينا وحدها في البيت يومئذ، وكانت ديغنا وحفيدها خائيتو يطعمان الخنازير فضلات المطبخ. فبعد أن ألقيا نظرة على استعراض الصفادع، أدركا أنه لا وجود لما هو أكثر من ذلك، فالأمر ليس إلا اجتماع دويات مقرف، فرجعا إلى عملهما. ونبهتها صرخة حادة وجلبة تحطم آوان خزفية إلى ان شيئاً يحدث في البيت. هرعا إلى هناك، فوجدا ايفانخيلينا مستلقية على الأرض، مستندة على عقبيها ومؤخرة رأسها، ومنحنية إلى الوراء مثل قوس، وهي تقذف الزبد من فمها، ومحاطة بالفناجين والأطباق المهشمة.

لجأت الأم المذعورة إلى الوسيلة الأولى التي خطرت لها: أفرغت عليها سطلًا من الماء البارد، لكن هذا لم يهدئها، وإنما ضاعف من حالتها المرعبة، فتحول الزبد إلى لعاب وردي عندما عضت الصبية لسانها، وانقلبت عيناها

لتضييعا في اللانهاية، وانتفضت مرتعشة وعبقت الحجره بالكآبة ورائحة البراز. كان التوتور عنيفاً، حتى ان جدران الطين السميكه بدت وكأنها تهتز بزلزال في داخلها. فاحتضنت ديغنا خائيتو مغطيه عينيه كي لا يرى ذلك السحر المشؤوم. استمرت النوبه لبضع دقائق، مخلفه الانهاك لايفانخيلينا والذعر للأم والأخ، وانقلاب البيت رأساً على عقب. عندما جاء هيپوليتو والأولاد الآخرون الذين كانوا يتفرجون على مؤتمر الضفادع، كان كل شيء قد انقضى، وكانت الفتاة تستريح على كرسيها والأم تجمع فتات الأطباق المهشمة.

قال الأب مشخصاً الداء عندما اخبرته بما حدث :

- لقد لدغها عقرب أحمر.

- فحصتها من رأسها حتى أخص قدميها. ليست لدغه.

- لا بد أن يكون الصرع إذن.

لكن ديغنا كانت تعرف أعراض هذا الداء وتعلم انه لا يؤدي إلى تخريب الأثاث. وفي مساء ذلك اليوم بالذات قررت أخذ ايفانخيلينا إلى سيمون المداوي. فنصحها هيپوليتو قائلاً:

- من الأفضل أن تأخذها إلى طبيب.

- أنت تعرف رأيي بالمشافي والأطباء - ردت امرأته وهي موقنة أنه إذا كان

للصبيه من علاج، فإن دون سيمون سيعرفه.

لقد انقضت حتى يوم السبت هذا خمسة أسابيع على النوبه الأولى دون أن يتمكنوا من عمل شيء للتخفيف عنها. وهاهي ايفانخيلينا تساعد أمها في غسل الأدوات، فيما الصباح يمضي، وتقرب الظهيرة المرهوبه.

قالت ديغنا آمره:

- أعددي الأباريق للماء والدقيق يا بنيتي.

بدأت ايفانخيلينا بالغناء وهي تصف أواني الألمنيوم والحديد المطلي فوق الطاولة. وكانت تسكب في كل اناء ملعقه من الدقيق المحمص وقليلاً من

العسل . وستضيف الماء فيما بعد لتقدمها إلى الزائرين الذين يأتون في لحظة غيبوتها، آملين ان يستفيدوا من وقوع معجزة بائسة .

همهمت ديغنا :

- لن أقدم لهم شيئاً ابتداء من يوم غد . سنخرب بيتنا .
- لا تقولي هذا يا امرأة . ألا ترين أن الناس يأتون بدافع المحبة . ولن يجعلنا تقديم قليل من الدقيق أكثر فقراً - رد عليها هيبوليتو، فأطرقت رأسها . لأنه هو الرجل وهو دائماً على صواب .

كانت ديغنا توشك على البكاء، وأدركت أنها بدأت تفقد أعصابها، فمضت بحثاً عن بعض أزهار الزيزفون لتغلي منها شراباً مهدئاً . لقد كانت الأسابيع الأخيرة عذاباً لا يطاق . فهذه المرأة القوية الصابرة، التي راكمت الآلام وتحملت الفاقة المدقعة، ومهام الأمومة ومشاقها دون أية شكوى، أحست انها على حافة الغرق حيال هذا السحر الذي يجثم على بيتها . كانت متأكدة من أنها فعلت كل ما تستطيعه من أجل شفاء ابنتها، حتى انها أخذتها إلى المستشفى حائثة بقسمها الذي أقسمته بالالتقاء ذلك المكان أبداً . لكن كل جهودها كانت بلا جدوى .

★ ★ ★

حين قرع فرانثيسكو جرس الباب، تمنى ألا تظهر له بياتريس الكانترا . فهو يشعر بالحياء في وجودها .

- هذا هو فرانثيسكو ليال يا ماما، أحد رفاقي - هكذا قدمته إيرين لأمها للمرة الأولى ، منذ عدة شهور .

وردت السيدة التي لم تستطع احتمال ما تضمه كلمة رفيق من معنى ثوري :
- زميلك ، أليس كذلك ؟

منذ ذلك اللقاء عرف كل منهما ما يمكن أن ينتظره من الآخر، ومع ذلك لقد سعيا لإظهار المودة، ليس لمسرة نفسيهما وإنما لعاداتهما في حسن المعاملة

من عصر النهضة
واللباقة. استقصت بياتريس دون تأخير وعلمت ان فرانثيسكو ينحدر من ابوين اسبانيين مهاجرين بلا ثروة، ينتميان إلى تلك الفئة من المثقفين المأجورين الذين يعيشون في أحياء الطبقة الوسطى. وراودتها الشكوك في الحال من أن مهنته كمصور، وأخلاقه، ودراسته النارية ليست مؤشرات على حياة بوهيمية. فقد كانت للشباب أفكاره الواضحة التي لا تلتقي مع أفكارها. ان ابنتها ايرين تنسج علاقات مع أناس غريبين وهي لا تعارضها في ذلك، لأن معارضتها ستكون دون جدوى على كل حال، ومع ذلك فقد مانعت بكل ما استطاعت صداقتها مع فرانثيسكو. ولم تكن تروقها رؤية ايرين سعيدة بعلاقتها به، ورؤيتها متحدين بروابط العمل المشترك المتينة، كما لم يكن يروقها أبداً تخيل نتائج مثل هذه الصداقة على خطوبتها من الكابتن. لقد اعتبرته شخصاً خطيراً، لأنها هي نفسها كانت تشعر بالميل إلى عيني المصور السوداوين، ويديه الطويلتين وصوته الهاديء.

ومن جهته، أدرك فرانثيسكو منذ الوهلة الأولى كنه عقيدة بياتريس وأوهامها الطبقية. فوقف عند حد معاملتها معاملة مهذبة ومتحفظة، متأسفاً لكونها أم أفضل صديقة له.

وحين رأى البيت، فتن ثانية بالجدار السميك الذي يحيط بالعقار، والمبني من أحجار نهرية مدورة، تحف بها نباتات قزمية ظهرت بفعل رطوبة الشتاء. كانت هناك لوحة معدنية وقبورة كتب عليها «مأوى عجزة» وتحث هذه العبارة اسم للمأوى ينسجم مع مزاج ايرين الساخر: «مثنىة الرب». لقد فتنه دوماً ذلك التباين القائم بين الحديقة المشذبة، حيث ستفتح عما قريب أزهار الداليا والورد والدلبوث في انفجار شذى ولون، وشيخوخة نزلاء الطابق الأول من المبنى المتحول إلى مسكن للمسنين. أما في الطابق العلوي فكان كل شيء متناسقاً وينم عن ذوق رفيع. فهناك السجاد الشرقي، والأثاث الفخم، واللوحات الفنية التي اقتناها اوسيبوييلتران قبل ان يختفي. كان البيت مائلاً لبيوت الحي الأخرى، لكن بياتريس، وبدافع الحاجة، أدخلت عليه بعض التعديلات، محتفظة قدر الامكان بواجهة المدخل على حالها كي يبدو البيت من الشارع فخماً مثل البيوت

المجاورة. فقد كانت شديدة الحساسية في هذا الأمر، فهي لا تود الظهور كمن تتاجر بالمسنين، وانما كما لو كانت تقوم بعمل خيري. يا للمساكين. أين ستنتهي بهم الأحوال إذا نحن لم نعتن بهم؟

وكانت تستخدم مثل هذا الحذر عندما تتحدث عن زوجها. فهي تفضل اتهامه بالذهاب إلى مكان مجهول برفقة امرأة سيئة السمعة، على ان تبدي شكوكاً في اتجاه آخر. والحقيقة انها كانت ترتاب في أن غيابه ليس مرتبطاً بمغامرة عاطفية، بل أن الاحتمال الأرجح هو أن قوى الأمن قد صفتة سهواً أو أنها تعتقله نتيجة خطأ ما في أحد المعتقلات، مثل معتقلين كثيرين يدور الهمس حول مصيرهم في السنوات الأخيرة. ولم تكن هي وحدها من يفكر بمثل هذه الأفكار السوداء. فقد كانت صديقاتها يراقبها بريبة في أول الأمر، ويهمسن فيما بينهن من وراء ظهرها أن اوسيبو بيلتران قد وقع في قبضة السلطة، وانه اقترف والامر كذلك ذنباً دون شك: فقد يكون شيوعياً اختلط بالناس المحترمين مثل أولئك الموجودين في كل مكان. ولم تكن بياتريس ترغب في تذكر التهديدات والسخریات الهاتفية، ولا الرسائل المغفلة التي كانت تنزلق من تحت الباب، ولا تلك المناسبة التي لا سبيل إلى نسيانها حين أفرغوا أكواماً من القمامة على سريرها. ففي تلك الليلة لم يكن في البيت أحد، لأن روسا كانت قد خرجت كذلك، وحين رجعت بياتريس مع ابنتها من المسرح، كان كل شيء مرتباً ولم تستغربا سوى صمت الكلبة. بدأت ايرين بمناداتها والبحث عنها في الغرف وبياتريس وراءها تشعل الأنوار. وصعقتا وهما تريان على الأسرة حينئذ ركاماً من الفضلات والعلب للفراغة وقشور البيض القذرة وأوراقاً ملطخة بالبراز. ووجدتا كليو محبوسة في إحدى الخزائن وهي كالميتة، وبقيت الكلبة على هذا الحال خمس عشرة ساعة إلى ان استعادت وعيها من تأثير المنوم. جلست بياتريس في تلك الليلة تتأمل القذارة والبراز على سريرها دون أن تدرك معنى هذا الاستفزاز. لم تستطع ان تخمن من هو الذي حمل أكياس القمامة إلى البيت، وفتح الباب بفتاحة لصوص، وخدّر الكلبة وحقّر كل شيء

بهذه الطريقة . لم يكن مسكن العجزة الذي في الطابق الأول موجوداً في ذلك الحين ، كما لم يكن لديهم خدم سوى روسا والجنائتي .

بكت بياتريس :

- لا تحدثي أحداً بهذا الذي جرى يا بنتي . انها اهانة ، عار .

- لا تفكري بالأمر كثيراً يا أماء . ألا ترين انه عمل شخص معتوه؟ لا

تقلقي .

لكن بياتريس الكانترا كانت تعلم أن لهذه الالهانة علاقة ما بزوجها ، فشمته مرة اخرى . تذكرت تفاصيل ذلك المساء الذي هجرها فيه اوسيبو بيلتران . كان يهجس في تلك الأيام بصفقة الخراف المخصصة للمسلمين وبالجزارة الخيرية التي اوصلته إلى الافلاس . كان قد مضى على زواجهما أكثر من عشرين سنة وكان صبر بياتريس قد نفذ . ما كانت قادرة على احتمال لا مبالاته وخياناته الزوجية الكثيرة ، واساليبه المستنكرة في انفاق النقود على الطائرات الصغيرة المفضضة ، وخيول السباق ، والتهايل الجنسية ، وولائم في المطاعم ، وموائد القمار ، والهدايا الثمينة التي يقدمها لنساء أخريات . ولم يهدأ زوجها بعد بلوغه سن النضج ، بل على العكس ، فقد تفاقمت عيوبه وازداد ولعه بالمغامرة مع ظهور الشيب في فوديه والتجاعيد حول عينيه . فصار يغامر برأس ماله في صفقات جنونية ، ويهيم على وجهه لأسابيع في رحلات غريبة ، ابتداء من الطواف مع عالمة آثار اسكندنافية حول القارة وحتى الابحار في رحلة فريدة لعبور المحيط في طوف تدفعه الرياح غير الموالية . وكانت جاذبيته تفتن جميع الناس إلا زوجته . وفي واحدة من مجادلاتها العنيفة ، فقدت السيطرة على نفسها وانهالت عليه بوابل من الشتائم والتأنيب . كان اوسيبو بيلتران رجلاً مؤدباً يمل أي شكل من أشكال العنف . فرفع يده طالباً هدنة وقال مبتسماً أنه سيخرج لشراء سجائر . خرج بهدوء ولم تعد تعرف عنه شيئاً منذ ذلك الحين .

- لقد هرب من ديونه - هكذا كانت تفكر بياتريس حين لا تجد المبرات

الكافية لتعلقه بامرأة اخرى .

لم يترك أي أثر يدل على مكانه . كما لم يُعثر على جثته . وقد اعتادت هي في السنوات التالية وضعها الجديد، محاولة بجهود حثيثة الظهور أمام صديقاتها على أنها تعيش حياة طبيعية . جابت وحدها وبصمت المشافي ، والسجون ، والقنصليات الأجنبية مستقصية ، وبدأت تحريات سرية بالتعاون مع وكالة مخبرين خصوصيين ، لكن أحداً لم يستطع العثور عليه . وأخيراً ، وبعد أن انهكها التجوال على عدة مكاتب ، قررت اللجوء إلى مقر النائب الرسولي . لقد كان وسطها الاجتماعي ينظر بازدراء إلى مثل هذا التصرف ، لذلك لم تتجرأ على الاقدام عليه علانية حتى ولا أمام إيرين . فقد كان يُنظر إلى مقر المطرانية على انه وكر رهبان ماركسيين وعلمانيين خطرين متفرغين لمساعدة أعداء النظام . وكانت تلك هي المؤسسة الوحيدة التي تخوض الحرب ضد الحكومة ، ويقودها الكردينال ، واضعاً سلطة الكنيسة التي لا تهزم في خدمة المطاردين دون أن يهتم بسؤالهم عن لونهم السياسي . وحتى اليوم الذي احتاجت فيه للمساعدة ، كانت بياتريس تعلن بعجرفة انه على السلطات أن تمحوعن الخريطة هذه المؤسسة وان تعتقل الكردينال وأتباعه العصاة . لكن مساعيها في البحث عن زوجها ذهبت أدراج الرياح ، لأنهم لم يستطيعوا كذلك في مقر النائب الرسولي من التوصل إلى أية أخبار عن غائبها . حتى بدا وكأن ربح النسيان هي التي اختطفت زوجها .

أفسدت الشكوك أعصاب بياتريس . فنصحتها صديقاتها بممارسة تمارين اليوغا والتأمل الشرقي لتهدىء من قلقها الدائم . وحين صارت تقف على رأسها بمشقة ، فيما قدماها متجهتان إلى أعلى ، متنفسة من سرتها ، ومركزة تفكيرها في النيرفانا^(١) ، كانت تتمكن من نسيان مشاكلها ، لكنها لم تكن قادرة على البقاء هكذا طوال النهار . وفي اللحظات التي كانت تفكر فيها بحالتها التي صارت إليها ، كانت تصاب بالذهول لسخرية قدرها . فقد تحولت إلى زوجة مفقود ، هي التي طالما قالت أن أحداً لا يُفقد في البلاد وأن هذه الدعاوي ليست إلا افتراءات معادية للوطن . وحين كانت ترى النساء القلقات يتظاهرن كل يوم خميس في الساحة ، وهن يعلقن على صدورهن صور أفراد أسرهن المفقودين ، كانت تقول

أنهن ماجورات بذهب موسكو. ولم يخطر ببالها أبداً أنها قد تجد نفسها في مثل وضع هاتيك الأمهات والزوجات اللاتي يبحثن عن ذويهن. لم تكن أرملة في العرف الشرعي، ولن تصير كذلك قبل انقضاء عشر سنوات، حين سيمنحها القانون وثيقة وفاة لزوجها. ولم تستطع التصرف بالأموال التي خلفها اوسيبوييلتران ولا أن تضع يدها على شركاء زوجها الزنبيين الذين تحولوا إلى دخان حاملين معهم أسهم شركاتهم. بقيت في بيتها متكلفة مزاج الدوقة، انما دون أن يكون لديها المال اللازم للحفاظ على نمط حياتها كسيدة من سيدات الحي الراقي. ولضيقها من النفقات، كانت على وشك رش البيت بالنزين واحراقه لقبض قيمة التأمين، حين خطرت لايرين الفكرة الملهمة باستثمار الطابق الأرضي.

اقترحت لايرين يومها قائلة:

- الآن، حيث عائلات كثيرة تهاجر إلى الخارج ولا تستطيع حمل الأجداد معها، اظن اننا نقدم لهم خدمة عظيمة بتولينا مسؤولية هؤلاء المسنين. كما يمكننا بهذا الحصول على دخل بسيط.

وهذا ما فعلته. تم تقسيم الطابق الأول إلى مقصورات، وأقامتا حمامات جديدة ومساند في الممرات لاسناد الشيوخوخة وتثبيت الأرجل الواهنة، وغطنا الدرج بأرضية خشبية مستوية لتسهيل انزلاق مقاعد المقعدين ذات العجلات ووزعنا في كل مكان مكبرات صوت تبث موسيقى هادئة تطفىء الحزن وتسكن القنوط، وون إن يدور بخلدديها أن هذه الموسيقى ستقع على آذان صباء.

استقرت بياتريسي ولبنتها في الطابق العلوي، ومعها روسا التي تعمل في خدمتهم منذ أزمته لا تطالها الذاكرة. وزينت الأم المنزل بأفضل مقتنياتها مستبعدة أي ابتذاله، وبدأت تعيش من الايراد الذي يدفعه نزلاء «مسيئة الرب». فإذا ما طرقت الحاجة بابها بالحاح أشد، كانت تتحرك ضمن أقصى حدود الحذر لتبيع لورحة، أو حلية فضية أو إحدى المجوهرات الكثيرة التي اقتنتها كتعويض عن الهدايا التي كان زوجها يقدمها لعيشقاته.

★ ★ ★

كانت ايرين تأسف لاكتئاب أمها من هذه المشاكل النافهة . وكانت تفضل العيش في مكان أكثر تواضعاً وتحويل البيت كله لايواء مزيد من النزلاء المسنين ، وبذلك تستطيعان تغطية نفقاتها بحيوحة ، لكن بياتريس كانت تفضل قتل نفسها في العمل واللجوء إلى كل البهلوانيات كي لا ينكشف أمر انحدارها المادي . فترك البيت سيعني اعترافاً علنياً بالفقر . لقد كانت الأم وابنتها مختلفتين اختلافاً كبيراً في نظرتها للحياة . كما أنهما لم تكونا على اتفاق فيما يتعلق باوسيبوييلتران . فبياتريس تعتبره رجلاً خبيثاً قادراً على الاحتيال ، ومتعدد الزوجات ، اضافة إلى ارتكابه أعمال نصب اخرى اضطرته إلى الفرار وذيله بين ساقيه ، ولكنها حين تعلن عن هذه الآراء تتصدى لها ايرين بضراوة . فالفتاة تعبد أباهما ، وتأبى التصديق انه قد مات ، وترفض الاعتراف بعيوبه . ولم تكن لتهتم بالاسباب التي حملته على الاختفاء من عالمه المعروف . فعاطفتها نحوه كانت غير مشروطة . فهي تحتفظ له في ذاكرتها بصورة الرجل الأنيق ، ذي الوجه النبيل ، والطباع المصوغه من مزيج المشاعر الطيبة والعواطف الجياشة التي تجعله بعيداً عن تخوم السفالة . لقد كانت تلك الصورة الغريبة تثير هلع بياتريس ، ولكنها الملامح التي تذكرها ايرين بحنان شديد .

كان اوسيبوييلتران هو الابن الأصغر لأسرة من المزارعين الأثرياء ، وقد هامله اخوته على انه متلاف لا علاج له ، وذلك لتبذيره واقباله على الحياة ، على عكس بخل ذويه وسوداويتهم . وما أن توفي ابواه ، حتى اقتسم اخوته التركة ، فأعطوه حصته وما عادوا يريدون معرفة أي شيء عنه . باع اوسيبويو أراضيه وسافر إلى الخارج حيث بدد في بضع سنوات أمواله حتى آخر قرش أ منها في ملاه تليق بالامراء ، حسب تعابيره الطائشة . ثم رجع إلى الوطن في سفينة شحن ، وكان ذلك كافياً لتجريده نهائياً من كل قيمة في عيني أي فتاة تسعى إلى الزواج . لكن بياتريس الكانتر اغرمت بأساليبه الارستقراطية في التعامل ، وبلقبه وبالجو الذي يهبط به . كانت تنتمي إلى اسرة من الطبقة الوسطى ، وكان طموحها منذ الطفولة هو ارتقاء السلم الاجتماعي . أما رأس مالها فكان جمال تقاطيعها ، وتكلفت

أساليبها وبعض العبارات غير المتقنة بالانكليزية والفرنسية كانت تنطقها بطلاقة توحى معها وكأنها تتقن هاتين اللغتين . وكان الورنيس الثقافي يتيح لها لعب دور مهم في الصالونات ، كما منحها مهارتها في الاعتناء بشخصيتها سمعة واسعة كامرأة أنيقة . كان اوسيبوييلتران مفلساً عملياً ، وقد لامس القاع في عدة جوانب من حياته ، إلا أنه كان واثقاً من أن تلك الحال ليست سوى أزمة عابرة ، لقناعته بأنه لا بد لذوي الحسب النجيب من أن يعودوا ثانية . ثم انه كان راديكالياً . ويمكن ايجاز العقيدة الراديكالية في ذلك الحين بكلمات قليلة : مساعدة الأصدقاء ، وسحق الأعداء ، وتحقيق العدالة فيما عدا ذلك من الحالات . فساعده أصدقائه ، ومن خلال لعب الغولف أحياناً في النادي الأكثر خصوصية ، وامتلاك شرفة خاصة في ميدان سباق الخيل واشترك في المسرح البلدي ، ثم بدعم من جاذبيته ومزاجه الذي هو أشبه بمزاج نبيل بريطاني ، توصل إلى جذب شركاء له في كل أصناف الأعمال التجارية . وبدأ يعيش حياة بذخ ، لأنه رأى أن العيش بطريقة اخرى ليس إلا حماقة ، وتزوج من بياتريس الكانتر الضعفه حيال النساء الفاتنات . ففي المرة الثانية التي دعاها فيها إلى الخروج معه ، سألته هي نفسها دون أية مقدمات عن نواياه تجاهها ، لأنها لم تكن ترغب في تبديد الوقت . كانت قد أتمت خمساً وعشرين سنة من عمرها ولم يعد بإمكانها اضاءة شهور اخرى في مغازلات لا فائدة منها ، وكل ما كان يهمها هو الحصول على زوج وحسب . وقد أضحكت صراحتها هذه اوسيبويو كثيراً ، ولكنها حين رفضت الخروج برفقته ثانية ، أدرك ان حديثها كان جدياً . ولم يستغرق منه التراجع عن موقفه منها وتهوره في طلب يدها للزواج سوى لحظة واحدة ، لكن حياته كلها لم تكفه للندم على ذلك التصرف . أنجبا ابنة واحدة ، ايرين ، التي ورثت شرودها لأبيها الملائكي وطيب مزاج أبيها الدائم . وفيما الطفلة تكبر ، عقد اوسيبوييلتران صفقات كثيرة ، عاد عليه بعضها بالربح الوفير ، وكان بعضها الآخر جنوناً واضحاً . كان رجلاً واسع المخيلة ، وخير برهان على ذلك ما كينة قطاف جوز الهند . فقد قرأ يوماً في احدى المجلات أن جني محصول جوز الهند يدوياً يرفع كثيراً من كلفة هذه

الثمار، لأنه على الوطنيين أن يتسلقوا النخلة بالتناوب، فيقطف أحدهم جوز الهند ثم يعود للنزول كي يصعد غيره. وهذا يضيع وقت كثير في الصعود والنزول، كما ان العامل قد يهوي من أعلى الشجرة أحياناً متسبباً بذلك في نفقات اضافية غير متوقعة. فقرر التوصل إلى حل. أمضى ثلاثة أيام معتكفاً في مكتبه ومعذباً نفسه بمشكلة ثمار جوز الهند، التي يمكننا القول انه لم يكن يعرفها عن قرب، لأنه كان قد استبعد السفر إلى المنطقة المدارية من برامج رحلاته، كما انهم في بيته ما كانوا يستهلكون مأكولات دخيلة. لكنه استقصى، ودرس حجم الثمرة ووزنها، والمناخ والتربة المناسبين لزراعتها، وموسم القطف، ومدة النضوج وتفصيل أخرى. بعد ذلك صاروا يرونه وهو مستغرق في رسم التصاميم طوال ساعات، وكانت نتيجة هذا السهر الطويل آلة قادرة على جني كمية هائلة من ثمار جوز الهند في الساعة. ذهب إلى السجل وحصل على براءة اختراع ذلك البرج الزاحف المزود بذراع قابلة للانقباض والانفتاح، وسط قهقهة ذويه واصدقائه الذين ما كانوا يعرفون جوز الهند أيضاً وهو في حالته الأولية كثمار، ولم يروه إلا متوجاً قبعات راقصات المامبو أو مبشوراً فوق حلوى حفلات الزفاف. تنبأ أوسيبوي بيلتران أن آله لجني جوز الهند ستنتفع في شيء يوماً ما، وقد أثبت الزمن انه كان على صواب.

كانت تلك المرحلة عذاباً دائماً لبياتريس ولزوجها. أراد أوسيبوي أن يبتز العلاقة قبل استفحال الداء بانفصال أبدي عن هذه الزوجة التي تعاديه وتلاحقه بثراتيل ساخطة، لكنها رفضت دون أن يكون لديها أي سبب آخر سوى الرغبة في تعذيبه ومنعه من إقامة علاقة جديدة مع أي واحدة من منافساتها. وكانت تتذرع بتأمين حياة اسرية مستقرة لايرين، وتقول له: قبل ان تسبب لابنتي المأ كهذا، هليك أن تمر فوق جثتي. وكان زوجها على وشك أن يفعل ذلك، لكنه فضل هراء حريرته. فقد عرض عليها في ثلاث مناسبات مبالغ طائلة كي تسمح له بالانفصال عنها بسلام، ووافقت في المرات الثلاث، ولكنها كانت تراجع في اللحظة الأخيرة، بعد أن يكون المحامون قد أعدوا كل الاوراق اللازمة ولم يعد

ينقص سوى التوقيع الملزم . وكانت معاركها الكثيرة معه تعزز الكراهية في نفسها .
لهذه الأسباب وألف سبب عاطفي آخر، لم تكن ايرين تبكي والدها . فلا شك انه
قد فرليتحرر من قيوده ، ومن ديونه ، ومن امراته .

عندما قرع فرانثيسكو ليال باب البيت ، خرجت ايرين لاستقباله ترافقها
كليو التي كانت تنبح عند قدميها . كانت الشابة قد استعدت للرحلة وأضعة الكنزة
على كتفيها ومنديلاً على رأسها ، وحاملة آلة التسجيل .
سألها :

- أتعرفين أين تعيش هذه القديسة؟

- في لوس ريسكوس ، على بعد ساعة من هنا .

تركا الكلبة في البيت ، وركبا الدراجة النارية واتطلقا . كان الصباح منيراً
ودافئاً وبلا غيوم .



اجتازا المدينة كلها: الشوارع المظلمة بالأشجار الوارفة بين منازل الحي
الراقي الفخمة ، فمنطقة الطبقة الوسطى الرمادية والصاخبة ثم أحزمة البؤس
العريضة . وفيما الدراجة تطير ، كان فرانثيسكو ليال يشعر بايرين المستندة إلى
ظهره ويفكر بها . المرة الأولى التي رآها فيها ، قبل أحد عشر شهراً من هذا الربيع
المشؤوم ، ظن انها صبية هاربة من احدى حكايا القراصنة والأمراء ، وانها تتبدى له
كأعجوبة لا يدركها أحد سواه . كان يبحث في تلك الأيام عن عمل خارج نطاق
مهنته . فعيادته الخاصة أضحت خاوية من الزبائن ، ومثقلة كاهله بنفقات باهظة
هون أية أرباح . كما أنهم أقالوه من عمله في الجامعة بعد أن أغلقوا كلية علم
النفسي التي اعتبرت مزرعة خصبة للأفكار الضارة . أمضى شهوراً وهو يجوب
العماهد والمشافي والمصانع دون أية نتيجة سوى القنوط المتزايد ، إلى أن اقتنع أن
سنوات دراسته ودرجة الدكتوراة التي نالها في الخارج لن تنفعه شيئاً في المجتمع
الجديد ، ولپس ذلك لأن الحاجة الانسانية لمهنته قد حُلّت فجأة وأصبحت البلاد

ماهولة بأناس سعداء، وانما لأن الأغنياء ما كانوا يعانون من مشاكل وجودية،
والآخرون ما كانوا بقادرين على تغطية نفقات ترف العلاج السيكولوجي، رغم
حاجتهم اليه، فكانوا يضغطون على اسنانهم ويتحملون بصمت .

صارت حياة فرانثيسكو ليال، المترعة بالمصادفات الطيبة في سنوات
مراهقته، تهدولدي انتهاء العشرينات منها فشلاً ذريعاً لعيني أي مراقب محايد،
واكثر من ذلك لعيني ذويه . لقد أحس بالعزاء والتماسك لفترة بمزاولته لمهنته سراً،
ولكن سرعان ما توجب عليه أن يساهم في ميزانية الأسرة . فالعسر في بيت آل ليال
كان يتحول إلى فقر . وقد احتفظ بتماسكه إلى أن أيقن أن جميع الابواب موصدة
أمامه ؛ ففقد زمام نفسه في أحد الأيام، وانهار في المطبخ حيث كانت أمه تعد
العشاء . وحين رأته على هذه الحال، مسحت يديها بالمريلة، ورفعت الصلصة
عن الموقد وعانقته كما كانت تفعل وهو صبي، وقالت له :

- ليس الطب النفسي هو مجال العمل الوحيد يا بني . امسح أنفك وابحث
في جهة اخرى .

لم يكن فرانثيسكو قد فكر باستبدال مهنته حتى ذلك الحين، لكن كلمات
هيلدا ألهمته دروباً جديدة . فأسرع إلى استبعاد الرأفة بنفسه واستعرض مهاراته
ليختار من بينها واحدة منتجة وتتيح له قدراً من المتعة كذلك . فاختار التصوير
كبداية، حيث المنافسة ضئيلة . كان قد اشترى منذ سنوات آلة تصوير يابانية مع
كل معداتها، ورأى أن الوقت قد حان لنفض الغبار عنها واستخدامها . وضع في
محفظته بعض أعماله الفوتوغرافية، وقلب دليل الهاتف ليرى أين يعرض نفسه،
وهكذا وصل إلى مجلة نسائية .

كانت مكاتب المجلة تشغل الطابق الأخير من مبنى قديم يحمل اسم
مؤسس دار النشر مكتوباً على البوابة بحروف مذهبة . ففي حقة الإزدهار
اللغابي، حين جرت محاولة زج الجميع في حفلة المعرفة ورذيلة الاعلام، وصار
الورق المطبوع يباع بكميات أكبر من كميات أرغفة الخبز، قرر أصحاب المؤسسة
ترميم البناء ليتلاءم مع اندفاعة الإعلام الجنوبية التي تعصف بالبلاد . بدأوا

باصلاح الطابق السفلي، وفرشوا الأرض بالسجاد، وغطوا الجدران بخشب فاخر، واستبدلوا الأثاث غير المتناسق بمناضد من الألمنيوم والزجاج، ونزعوا النوافذ ليفتحوا كوى انارة، وأغلقوا السلم ليشقوا ثغرات يدخلوا فيها صناديق المصاعد الحديدية، ووضعوا عيوناً الكتر ونية تفتح الأبواب وتغلقها بعملية أشبه بالسحر. كانت طبقات المبنى قد تحولت إلى متاهة حين توقف العمل فجأة. ولم تصل أعمال الترميم مطلقاً إلى الطابق الخامس، الذي احتفظ بآثاره ذي اللون غير المحدد، وآلاته الخرافية، وصناديق ارشيفه وثقوب سقفه التي تقطر دون عزاء. ولم تكن لهذه المعدات المتواضعة علاقة كبيرة بالمجلة الفاخرة التي كانت تصدر هناك، والتي كانوا يستخدمون في طباعتها جميع ألوان قوس قزح على ورق مصقول، وأغلفة تتسم عليها ملكات جمال متخففات من الملابس، وريبورتاجات نسائية جريئة. رغم أنهم في السنوات الأخيرة، وبسبب الرقابة، صاروا يضعون لطخات سوداء في الصدور العارية، ويستخدمون عبارات ملطفة للإشارة إلى كلمات ممنوعة مثل: اجهاض وطيز وحرية.

كان فرانيسكو ليال يعرف المجلة لأنه كان يشتريها أحياناً لأمه. ولم يكن يذكر من اسماء محرريها سوى اسم ايرين بيلتران، الصحفية التي تكتب بجرأة باللغة، وهي مزية نادرة في تلك الأيام. لذلك، ولدى وصوله إلى استعلامات المجلة، طلب مقابلتها. قادوه إلى صالة فسيحة مضاءة بنافذة عريضة تظهر من خلالها في البعيد كتلة الجبل المهيبة، الضاحية الحامية للمدينة. رأى أربع طاوولات عميل، تعمل فوقها أربع آلات كاتبة. وفي طرف الصالة، كان مشجب عليه ملابس من أقمشة زاهية. وكان هناك منحن يرتدي ثياباً بيضاء ويسرح شعر احدى الفتيات، بينما فتاة اخرى تنتظر دورها، جالسة دون حراك مثل صنم، وغارقة في تأمل جماها. أشاروا له إلى ايرين بيلتران، وما أن رآها من بعيد حتى أحس بانجذاب إلى تقاطيع وجهها وشعرها الغريب المنفوش على كتفيها. استدعته بابتسامة متغنجة كانت هي الشرط الأخير للاقتناع بأن هذه الفتاة قادرة على سلبه حتى أفكاره، لأنه رأى فيها تجسيدا لقراءاته الطفولية ولاحلام مراهقته. حين تقدم

منها كان قد فقد اتزانه ، ووقف أمامها مضطرباً ، غير قادر على رفع نظره عن هاتيك العينين اللتين يبرزهما المكياج . واخيراً استخرج صوته وقدم نفسه .
- اني أبحث عن عمل - قال ذلك فجأة وهو يضع على الطاولة محفظته التي تضم نماذجه الفوتوغرافية .

فسألته بصراحة ، ودون أن تخفض صوتها :

- هل أنت في القائمة السوداء؟

- لا .

- يمكننا الكلام إذذ . انتظري خارجاً وحين أنتهي هنا سأجتمع بك .
خرج فرانثيسكو متفادياً الطالوات والحقائب المفتوحة على الأرض ، والتي تحتوي على شالات ومعاطف فراء تبدو وكأنها غنائم رحلة صيد حديثة . اصطدم بهاريو ، مصفف الشعر الذي انزلق بمحاذاته وهو يسرح باروكة ذات شعر شاحب ، واخبره وهو يمر ان الشقراوات هن تقليعة هذه السنة . انتظري في ردهة الاستعلامات لوقت بدا له قصيراً جداً ، لأنه تشاغل بالنظر إلى حركة عارضات الأزياء غير الاعتيادية بملابسهن الداخلية ، وإلى أطفال يحملون حكايا لمسابقة طفولية ؛ وإلى مخترع يصصر على نشر اعلان عن جهازه الذي اخترعه لقياس التدفق البولي ، وهو جهاز مستحدث لقياس اتجاه تدفق البول وغزارته ؛ ومحين مغمومين بمنغصات الهوى يبحثان عن عيادة الحب ؛ وسيدة ذات شعر كهرماني أسود قدمت نفسها على أنها براجة وبصارة ، وعندما رأته توقفت مشدوهة ، كما لو أنها تراه في نبوءة ، وهتفت :

- ستعيش حياً عظيماً . . إنني أقرأ ذلك في جيبك .

كان فرانثيسكو قد قطع علاقته بخطيبته الأخيرة قبل عدة شهور وقرر البقاء بمنأى عن أية شبهاة غرامية . بقي جالساً هناك كتلميذ معاقب ، دون أن يدري ما يقول وهو يشعر أنه في وضع مضحك . داعبت شعره بأصابع يدها الخيرية ، **وتفحصت** راحتي يديه وقالت انه من مواليد برج القوس ، رغم ان له أسلافاً من **برج** العقرب ، لأنه موسوم بعلامم الجنس والموت . . والموت على وجه التحديد .

أخيراً انصرفت العرافة، فاستراح فرانثيسكو الذي لم يكن يفهم شيئاً من دائرة البروج ولا يؤمن بقراءة الكف والتنجيم وغيرها من الخرافات. بعد ذلك بقليل ظهرت ايرين بيلتران واستطاع رؤيتها بكامل قامتها. فبدت كما تحيلها تماماً. كانت ترتدي تنورة طويلة جداً من قماش مطرز يدوياً، وبلوزة من القطن الخام، وحزاماً مجدولاً من عدة ألوان يشد على خصرها، وحقية جلدية متفخخة مثل حقيبة ساعي البريد. مدت له يداً صغيرة ذات أظافر قصيرة، وفي جميع أصابعها خواتم ومجموعة أساور برونزية وفضية في معصمها.
سألته:

- أيعجبك الطعام النباتي؟ - ثم أمسكته من ذراعه دون أن تنتظر الاجابة، وقادته نزولاً على السلم، لأن المصاعد معطلة، مثل اشياء كثيرة أخرى في مبنى المجلة.

لدى خروجهما إلى الشارع، انعكست الشمس بقوة على شعر ايرين، وفكر فرانثيسكو انه لم يرف في حياته شيئاً بمثل هذه الروعة. ولم يستطع كبح دافع دفعه لتحريك أصابعه وملامسته. فابتسمت لأنها كانت معتادة على اثاره الدهشة في مجال جغرافي لم يكن مألوفاً فيه رؤية شعر بهذا اللون. وعند وصولهما إلى الناصية توقفت، وأخرجت مظروفاً ملصقة عليه الطوايع ووضعت في صندوق البريد قائلة بغموض:

- إنها رسالة لشخص ليس لديه من يكاتبه.

على بعد كوادرتين وجداً مطعماً صغيراً، مكاناً يرتاده نباتيون، وروحانيون، وبوهيميون، وطلاب، ومرضى قرحة معدية. كان المحل مزدحماً في تلك الساعة، ولكنها كانت زبونة دائمة. حياها صاحب المطعم باسمها، وقادهما إلى أحد الأركان وأجلسهما إلى طاولة خشبية مغطاة بشرشف مخطط وملطخ بالزبيب والجوز. استمتع فرانثيسكو وايرين بمضغ الأطعمة ببطء، فيما كل منهما يدرس الآخر بعينه. وسرعان ما أحسا بالثقة وتحدثت هي عن عملها في المجلة، حيث تكتب عن هرمونات عجيبة تحقن في الاذرع لمنع الحمل، وعن كمادات

طحالب بحرية لمحو آثار التقدم في السن عن البشرة، وعن غراميات أمراء وأميرات البيوت الملكية الأوروبية، وعن عروض أزياء فضائية أورعوية، حسب تقليعات باريس الموسمية، وموضوعات أخرى مختلفة الأهمية. وعن نفسها قالت إنها تعيش مع أمها، وخادمة قديمة وكلبتها كليو. وأضافت إن أباهما خرج منذ أربع سنوات ليشتري سجائر، واختفى نهائياً من حياتهم. أما خطيبها، الكاتب في الجيش، غوستافو مورانتي، فلم تأت على ذكره. وسيعلم فرانيسكو بوجوده فيما بعد.

قدموا لها كحلى بعد الطعام قطعاً من ثمار البابايا مع الفطر، وهي الثمار التي تنمو في المناطق الشالية الدافئة. فداعتها إيرين بعينها وبالملعقة، مستمتعة بالانتظار. وأدرك فرانيسكو أن الفتاة تحترم، مثله، بعض المتع الدنيوية. ولم تأكل إيرين كل الحلوى، بل أبتت قطعة منها في الطبق، وقالت موضحة:

- سأستمتع بمذاقها مع الذكرى بعد قليل. أما الآن، فلنتحدث عنك. .
بكلمات قليلة، لأن ميوله الطبيعية وظروف مهنته كانت تدفعه إلى الإيجاز، وإلى الاستماع باهتمام في المقابل، روى لها انه منذ زمن لا يجد عملاً في مجال الطب النفسي، وانه بحاجة للعمل في أي مهنة شريفة. ويخيل إليه أن التصوير مجال مناسب، لكنه لا يرغب في التحول إلى واحد من هؤلاء الهواة المتسولين الذين يعرضون خدماتهم في حفلات الزفاف والعماد وأعياد الميلاد، ولهذا لجأ إلى المجلة.
سألته إيرين:

- سأقابل غداً بعض المومسات، هل تريد خوض التجربة معي؟
وافق فرانيسكو على الفور، مبعداً شبحاً من الكتابة عن روحه لدى رؤيته مدى سهولة كسب العيش بالضغط على زر، وصعوبة ذلك بالمقابل من خلال وضع خبرته ومعارفه التي حصلها طوال سنوات من الدراسة في خدمة الغير.

حين جيء لها بالحساب، فتحت حقيبتها لتخرج نقوداً، لكن فرانيسكو كان قد تلقى تربية يدعوها أبوه تربية الرجولة الصارمة، لأن التهذيب ليس نقيضاً للشورية. فسارع لتناول فاتورة الحساب متجاوزاً الخطوات التي خطتها الداعيات

إلى التحرر في حملاتهن من أجل المساواة، ومفاجئاً الصحفية الشابة مفاجأة غير منتظرة.

قالت له محتجة :

- أنت بلا عمل، دعني أدفع .

وسيكون هذا أحد الأسباب القليلة لمجادلاتها خلال الشهور التالية.

سرعان ما حصل فرانيسكوليبال على المؤشر الأول من مؤشرات عدم ملاءمة عمله الجديد. ففي اليوم التالي رافق إيرين إلى المنطقة الحمراء من المدينة، معتقداً أنها قد قامت باتصالات سابقة. لكن الأمر لم يكن كذلك فقد وصلا إلى حي المواخير عند الغروب وراحا يذرعان الشوارع تانهين، حتى ان بعض الزبائن الأقوياء تصدوا للفتاة ليسألوها عن تسعيرتها. وبعد مراقبة قصيرة، اقتربت إيرين من امرأة سمراء تقف على ناصية أحد الشوارع، تحت أنوار الإعلانات المضيئة بعدة ألوان.

- عفواً يا آنسة، هل أنت قحبة؟

اسرع فرانيسكوبالاستعداد لحمايتها إذا ما قامت الأخرى بتوجيه ضربة من حقيبتها إليها، وهو أمر له ما يبرره. لكن شيئاً من ذلك لم يحدث، بل ان ما حدث هو العكس تماماً. إذ نفخت السمراء نهدبها كبالونين محبوسين في بلوزتها التي توشك ان تتمزق وابتسمت مضيئة الليل بريق سن ذهبي في فمها، وردت :

- في خدمتك يا ابنتي .

وضحت لها إيرين الأسباب التي استدعت وجودها هناك، فأبدت الأخرى استعدادها للتعاون مبدية تلك النوايا الطيبة التي يُظهرها الناس نحو الصحافة. أشار ذلك فضول زميلاتها وبعض العابرين، فالتفت هناك خلال دقائق مجموعة بشرية عرقلت السير في الشارع، فاقترح فرانيسكواخلاء الطريق قبل أن تأتي دورية، كما يحدث كلما اجتمع أكثر من ثلاثة أشخاص دون تصريح مسبق من القيادة. قادتهم السمراء إلى مقهى المدرسين الصيني، حيث واصلوا الحوار الممتع

مع القوادة ونساء المحل الأخريات، فيما الزبائن ينتظرون بصبر، بل انهم أبدوا استعدادهم للمشاركة في الحوار إذا تعهدت باغفال ذكر اسمائهم.

لم يكن من عادة فرانثيسكو توجيه الأسئلة الحميمة خارج عيادته ولغير أهداف علاجية، ولهذا السبب أحس بالخجل حين استجوبت ايرين المرأة استجاباً مكثفاً: كم رجلاً تستقبل كل ليلة، ما هو مجموع دخلها، التسعيرة الخاصة بالتلاميذ والمسنين، أمراضها، أحزانها وشكاواها، سن الاعتزال، ما هي نسبة العموم والشرطة. وكان التحقيق يكتسب على شفيتها سحر براءة باهرة. ولدى انتهائها من عملها كانت قد نسجت علاقة طيبة مع سيدات الليل، حتى أن صديقها خشي ان تقرر الانتقال للعيش في المندرين الصيني. ثم عرف فيما بعد أنها تعمل دوماً بهذه الطريقة، مضيئة شيئاً من روحها على كل ما تقوم به. فقد رآها في الشهور التالية وهي توشك أن تتبنى طفلاً حديث الولادة حين قامت باجراء ريبورتاج عن اليتامى، وتلقي بنفسها من طائرة لمجاراة بعض المظليين، ويغنى عليها من الرعب في منزل لاستحضار الأرواح بعد تعرضها لساعات طويلة من الفزع.

لقد رافقها منذ تلك الليلة في معظم خطواتها كصحفية. وساهمت الصور في ميزانية آل ليال وأحدثت تحولاً في حياة فرانثيسكو الذي اغتنى بمغامرات جديدة. وعلى النقيض من تفاهة المجلة وبريقها الزائف، كان هناك واقع العيادة القاسي في حي أخيه خوسيه، حيث كان يذهب ثلاث مرات في الاسبوع لعلاج أشد الحالات يأساً، رغبة منه في المساعدة، لأنه لم يكن هناك من عزاء لكل ذلك البؤس. لم تخامر الشكوك أحداً في المجلة بالمصور الجديد. كان يبدو رجلاً هادئاً، حتى أن ايرين نفسها لم تعرف شيئاً عن حياته السرية، رغم أن بعض المؤشرات الغامضة كانت تستثير فضولها. وبعد زمن طويل، عند اجتيازها تحوم الظلال، ستكتشف الوجه الآخر لهذا الصديق الوديع قليل الكلام. لقد تمتنت علاقتها خلال الشهور التالية، ولم يعد أحدهما يستغني عن الآخر، فقد اعتادا قضاء وقت العمل وساعات الفراغ معاً، مخترعين الذرائع المختلفة كي لا يفترقا. كانا

يتقاسمان الأيام ويصيهما الدهول لكثرة الاشياء التي يشتركان في حبها: فهما
مغرمان بالموسيقى ذاتها، وقرأان للشعراء أنفسهم، ويفضلان النيذ الأبيض المز،
ويضحكان في ايقاع متطابق، وتشير حفيظتهما المظالم ذاتها، ويحجلان من
المخجلات نفسها. وكانت ايرين تستغرب ~~أحياناً~~ فرانشيسكو أحياناً ليوم أو يومين،
لكنه كان يتجنب تقديم التفسيرات، وكان عليها قبول ذلك دون توجيه أسئلة.
فكان شعورها هذا مشابهاً لشعور فرانشيسكو حين تذهب مع خطيبها. لكن أياً
منهما لم يعرف الاعتراف بالغيرة.



ذهبت ديغنا رانكيليو لاستشارة دون سيمون، المعروف في كل أرجاء المنطقة
باستطبائاته الصائبة، والتي تفوق شهرتها استطبابات المستشفى. كان يقول أن
الأمراض نوعان: أما إنها تشفى وحدها وإما أنها لا علاج لها. وفي الحالة الأولى
يمكنه تخفيف آلام المريض واختصار الزمن اللازم للشفاء. أما إذا جاءه مريض لا
رجاء في شفائه، فإنه يرسله إلى طبيب لوس ريسكوس، منقذاً بذلك سمعته
وملطخاً في طريقة بالشكوك سمعة الطب القليدي. وجدته الأم جالساً على كرسي
من القش أمام باب بيته، على بعد ثلاث كوادرات من ساحة القرية. كان يهرش
كرشه بلطف ويتحدث بصوت عال إلى بيغاء تتوازن متأرجحة على مسند
الكرسي.

قالت له ديغنا مبتسمة:

- ها أنذا قد جئتك بابنتي.

فرد المداوي باعتداد:

- أليست هذه هي ايفانخيلينا المستبدلة؟

ردت ديغنا بالايجاب. ونهض الرجل متمهلاً ودعاهما للدخول إلى منزله.
دخلتا غرفة فسيحة معتمة، تغص بالقوارير والأغصان الجافة والأعشاب المتبدلية
من السقف والأدعية المطبوعة المعلقة في أطر على الجدران؛ كانت تبدو أشبه

بكهف يقطنه ناج من الغرق منها بعبادة عالم، كما كان يجب أن يسموه. فهو يؤكد انه طبيب مجاز من الپرازيل، ومن يرتاب في ذلك يعرض عليه شهادة متسخة مهوره بتواقيع مركزشة ومحاطة باطار من رسوم ملائكة مذهبة. كانت هناك ستارة من المشمع تفصل ركناً من الحجرة. وفيما الأم تروي تفاصيل نكبتها، كان يستمع وعيناه مغمضتان في تركيز ساهم، ويصوب بعض النظرات العرضية إلى ايفانخيلينا، متقصياً آثار الحدوش على بشرتها، وشحوب وجهها، ورغم الوجنتين اللتين يشققهما البرد والظلال البنفسجية تحت العينين، فقد كان يعرف هنيه الأعراض. ولكن ليتأكد تماماً، أمرها بالدخول إلى ما وراء الستارة ونزع كل ملابسها.

قال وهو يضع البيغاء تلى الطاولة ويلحق بايفانخيلينا:

- سأفحص هذه الصغيرة يا سيدة رانكيليو.

وبعد أن فحصها بدقة، وجعلها تبول في مبوله ليدرس طبيعة بولها، عزز دون

سيمون شكوكه:

- لقد أصابتها عين.

فسألت ديغنا رانكيليو مذعورة:

- وهل لهذا شفاء يا دون؟

- نعم، له شفاء. ولكن علينا اكتشاف المسبب لنتمكن من معالجة الداء.

أنفهمين؟

- لا.

- تقصي عن يكره الصبية وأخبريني لأتمكّن من تحسين حالتها.

- لا أحد يكره ايفانخيلينا يا دون سيمون. انها طفلة بريئة. من ذا الذي

يستطيع الضرر بها هكذا؟

- رجل مغتاز بعد الصد أو امرأة غيورة - أشار المداوي وهو ينظر إلى نهدي

المريضة الصغيرين.

انفجرت ايفانخيلينا بالبكاء يائسة، وانتابت أمها ارتعاشة غضب، فهي

تراقب، ابنتها عن قرب، وكانت متأكدة من انها ليست على علاقة غرامية بأحد، بل انها لا تستطيع أن تصدق أن هناك من يمكنه الحاق الضرر بها. كما أن ديغنا فقدت بعض ثقتها بدون سيمون مذ علمت كيف تخونه زوجته، واستنتجت، وهي محقة في استنتاجها، انه لا يمكن لحكمته ان تكون واسعة كما يدعي مادام هو الشخص الوحيد في القرية الذي لا يعرف شيئاً عن قرونه. ارتابت في تشخيصه للمرض، ولكنها لم تشأ ان تظهر بمظهر عدم اللياقة، فطلبت بكثير من المواربة أن يصف لها دواء ما كي لا تنصرف من عنده صفر اليدين.

- صف للصغيرة بعض الفيتامينات يا دون، لنرى ان كانت تشفى. فربما هي مصابة إلى جانب ضربة العين بالطاعون الانكليزي.

أعطاهها دون سيمون حفنة أقراص من صنع بيتي وبعض الأوراق المطحونة في هاون والمتحولة إلى غبار.

- اذبي هذا في نبيذ وأعطها منه مرتين في اليوم. وعليك أن تضعي لها كذلك كمادات خردل وتغطسيها في ماء بارد. ولا تنسي مغلي أوراق البلوط، فهو ينفع دوماً في مثل هذه الحالات.

- وهل ستشفى بهذا من النوبات؟

- ستخفض سخونة بطنها. ولكنها لن تتحسن ما دامت مصابة بالعين.

وإذا ما جاءت نوبة اخرى فأحضرها كي أرقبها.

بعد ثلاثة أيام من ذلك، رجعت الأم وابنتها لتكثيف العلاج، لأن ايفانجيلينا صارت تعاني نوبة يومية عند الظهر. وفي هذه المرة تصرف المداوي بحزم. قاد المريضة إلى ما وراء ستارة المشمع، وعراها بيديه وحمها من رأسها إلى أخمص قدميها بمزيج مؤلف من الكافور والكحول الأزرق والماء المقدس في نسب متساوية، وذلك باهتمام خاص الأجزاء المتأثرة بالداء: الكعيبين، والنهدين، والظهر، والسرة. لقد صبغ التدليك والفرغ واحتكاك هاتيك اليدين الغليظتين بشرة الصبية بلون سماوي خفيف وسبب لها هيجاناً عصبياً كاد يؤدي بها إلى الاغماء ولحسن الحظ. فقد كان لديه نوع من شراب الورد لتهدئة المريضة، لكنه

أفقدتها الوعي وجعلها ترتعش . بعد تعزيم الاستشفاء أعطى الأم قائمة طويلة من الوصايا وعدة أنواع من الأعشاب الطبية : أوراق صور لمعالجة الضيق والجزع ، والهندباء من أجل كبح العواطف ، وكف الذئب لمنع خمود الهمة ، وأوراق الرتم للحيلولة دور الانتحاب والبكاء ، وأوراق البهشية للوقاية من العين والحسد ، والصنوبر لإشفاء وخز الضمير والهلع . وأشار عليها أن تملأ طشتاً بماء من النبع ، وتلقي فيه الأوراق والأزهار وتركها ترنخ في ضوء النهار لأربع ساعات قبل أن تغليها على نار هادئة . وذكرها انه لإشفاء القلق الغرامي لدى البريئين ، لا بد من وضع حجر قدح في طعامهم والحيلولة دون تقاسمهم السرير مع أفراد الأسرة الآخرين ، لأن سخونة الشبق معدية ، مثلها مثل الحصبة . وأعطائها اخيراً زجاجة تحتوي على أقراص كالسيوم ، وصابون معقم لحمامها اليومي .

بعد مرور اسبوع نحلت الصيبة وزاغ بصرها ، وصارت يداها ترتعشان ، ومعدتها تتقلب ، وتواصلت النوبات اليومية دون انقطاع . عندئذ حملتها ديغنا رانكيليو ، قاهرة مقاومتها الطبيعية ، إلى مستشفى لوس ريسكوس ، حيث فحصها طبيب شاب قدم حديثاً من العاصمة ، يتكلم بمصطلحات علمية ، ولم يسمع في حياته من قبل بأمراض مثل ضربة العين . فأكد لها ان ايفانجيلينا مصابة بالهستيريا . ونصحها بتجاهل الأمر وانتظار أن يهدى انقضاء سنوات المراهقة أعصابها . ووصف لها مسكناً قادراً على طرح ثور أرضاً ، ونبهها الى وجوب ارسالها إلى مستشفى الطب النفسي في العاصمة إذا لم تفارقها نوبات الجنون هذه ، وقال انهم سيعيدونها هناك إلى رشدها بالصدمات الكهربائية . أرادت ديغنا أن تعرف إن كانت الهستيريا تسبب اهتزاز الفناجين على رفوف الخزانة ، واكتئاب نباح الكلاب ، وسقوط وابل حجارة لامرئية وصاخبة على السطح وارتعاش اثاث البيت ، لكن الدكتور فضل عدم الخوض في هذه الأعماق واكتفى بتوصيتها بوضع أواني المطبخ في مكان آمن وتقييد الحيوانات في الفناء .

أغرق الدوار ايفانجيلينا أول الأمر في سبات عميق ، أشبه بالموت . فكانوا يفتحون لها عينيها بصعوبة كبيرة لتأكل . إذ أنهم صاروا يدسون لقمة الطعام بين

شفتيها ثم يرشون وجهها بماء بارد لتذكّر مضعفها وأبتلاعها . وكان عليهم أن يرافقوها إلى المرحاض ، لخشيتهن من سقوطها هناك وهي نائمة . ولم يكن هذا السبب يتوقف إلا عند الظهيرة ، وفي موعد نوبة غيبوبتها المعتادة ، وهي اللحظة الوحيدة التي تبدي فيها شيئاً من الحيوية . وقبل مضي أسبوع ، لم تعد الأقراص التي وصفت لها في المستشفى تؤثر فيها ، ودخلت مرحلة شرود وكآبة ألزمتها السكون والأرق في الليل والنهار . حينئذ بادرت الأم إلى دفن الأقراص في حفرة عميقة في البستان ، حيث لا يمكن لأي كان حي أن يجدها .



لجأت ديفنا رانكيليو اليانسة إلى ماميتا انكارناثيون ، التي وافقت على فحص الصبية بعد أن أوضحت بشكل قاطع أن اختصاصها هو عمليات الولادة والحبل ، وليس النوبات الناجمة عن مسببات أخرى . وجاءت إلى البيت في صباح أحد الأيام . واستطاعت مشاهدة غيبوبة الجنون والتأكد بعينها من ان ارتعاش الاثاث وهياج الحيوانات ليست مجرد تقولات ، وإنما هي الحقيقة المرئية .

قالت مبينة رأياها :

- هذه الصبية يلزمها رجل .

أغضب كلامها آل رانكيليو الذين ما كانوا قادرين ان يصدقوا بأن صبية محترمة ، ربوها كابنة لهم ، وألوهها عناية خاصة وصانوها من الاحتكاك حتى باخوتها ، يمكن لها ان تهيج مثل كلبة . هزت القابلة رأسها متجاهلة هذه الحجج وأصررت على تشخيصها ، وأوصت بأن يوكلوا اليها القيام بأعمال متناصلة ، ليحولوا بذلك دون ازدياد شرودها .

- البطالة والعفة يوصلان إلى الكآبة . وعليكم في جميع الأحوال ان تزوجوها ، لأن هذه الزويرة لن تنتهي دون فعل .

لم تتقيد الأم المستنكرة بهذه النصيحة الأخيرة . لكنها نفذت وصية الابقاء

على الفتاة مشغولة دوماً، فأعادت اليها بذلك البهجة والنوم، إنما لم تتمكن من تخفيف حدة النوبات التي تصيبها.

وسرعان ما علم الجيران بهذه الشذوذات وبدأوا يتجولون حول البيت. وكان أكثرهم جرأة يطوفون منذ الصباح الباكر ليروا المظاهرة عن قرب. وحاولوا أن يهدوا لهذه الحالة فائدة عملية، فاقترح بعضهم على ايفانخيلينا المتواصل مع الأرواح التي في المطهر أثناء نوبتها، وان تتنبأ لهم عن المستقبل وتهدىء المطر: وأدركت ديفنا أن انتقال المسألة إلى يد العامة سيجعل الناس يبعدون من كل مكان ليجوسوا في بستانها، ويدنسوا فناء بيتها وينسخرها من ابنتها. وهذا لن تجد ايفانخيلينا إلى الأبد رجلاً محترماً يقترن بها ويمنحها أطفالاً هي في أمس الحاجة إليهم. ولأنها فقدت الأمل في العلم، فقد ذهبت لزيارة راعيها الانجليكاني في الحوش المطلي بالنيلة، والمستخدم كمعبد لأتباع يهوه. لقد كانت عضواً فعالاً في الأخوية البروتستانتية الصغيرة، فاستقبلها الراعي بمودة. روت له دون اخفاء أي تفصيل عن النكبة التي تحتم على بيتها، موضحة انها قد أبعدت ابنتها عن أية علاقات آئمة، بما في ذلك نظرات اخوتها وأبيها بالتبني.

استمع الموقر إلى الحكاية باهتمام بالغ. ووضع ركبته على الأرض لوضع دقائق، وغرق في التأمل طالباً إيجاء من الرب. ثم فتح الكتاب المقدس كيفما اتفق له وقرأ أول عبارة وقعت عليها عيناه: «وكان هولوفيزيس سعيداً جداً بها فشرب الخمر دون حساب، شرب أكثر مما شربه في حياته كلها». ففسم سعيداً رد الرب على مشكلة خادمته رانكيليو:

- هل ترك زوجك شرب الكحول يا أختاه؟

- حضرتك تعلم ان هذا مستحيل.

- كم من السنوات مرت وأنا أعظه بالامتناع عنه؟

- لا يستطيع تركه، فالخمر متغلغل في دمه.

- قولي له ان يقترن من الكنيسة الانجليكانية الحقيقية، ونحن قادرون على

مساعدته. أرايت سكيراً بيننا؟

أيدت ديغنا أقواله عدة مرات متتالية لتبرر ضعف زوجها . فالقضية ترجع إلى يوم ميلاد ابنها الثالث الذي مات فور ولادته . ولم يكن هيبوليتو يملك نقوداً لشراء تابوت ، فوضع الملاك الصغير في علبة حذاء ، وحمله تحت ابطه ومضى به نحو المقبرة . وفي الطريق ، حاول اخماد احزانه ببضع رشفات من الخمر ، ثم واصل الشرب إلى ان نسي نفسه . وعندما استعاد وعيه وهو ملقى على برميل ، كانت العلبة قد اختفت . ورغم انه جال المنطقة كلها للبحث عنها ، إلا أنه لم يجدها أبداً .

- تصور الكوابيس التي تنتابه أيها الموقر . ما زال مسكين هيبوليتو يحلم بهذا الأمر . يستيقظ صارخاً لأن ابنه يناديه من الليمبوس . وكلما تذكر ذلك لجأ إلى الزجاجة . هذا هو سبب سكره ، وليس الفجور أو الاثم .

- لدى المدمن على الكحول عذر جاهز دوماً . ان ايفانخيلينا هي بوق الرب ، وبمرضها يدعو الرب زوجك للصالح قبل فوات الأوان .

- مع كل تقديري أيها الموقر ، إلا أنني أفضل ، إذا ما أتاح لي الرب الخيار ، رؤية هيبوليتو مخموراً بوقار بدلاً من رؤية ابنتي تعوي مثل كلبة وتتكلم بصوت رجولي .
- هذه غطرسة آثمة يا اختاه! من أنت حتى تشير علي يهوه كيف يقود مصائرنا البائسة؟

وبدافع الغيرة صار الراعي الانجليكاني يتردد منذ ذلك اليوم على بيت آل رانكيليو بكثرة ، يرافقه بعض أعضاء جمعيته الوريين ، لمساعدة الفتاة بصلواتهم الجماعية . لكن أسبوعاً آخر مضى دون ان تظهر على ايفانخيلينا علائم التحسن . وفيما أحد المتطفلين يطوف مترصداً حول البيت في موعد النوبة ، اكتشف طريقة للإفادة من هذا الوضع . فقد اصطدم بكرسي ، وليتفادى السقوط استند عرضاً على السرير الذي تتلوى الفتاة فوقه . وفي اليوم التالي اختفت الآليل التي كانت تملأ يده . فانتشر خبر المعجزة في الحال وازداد عدد الزائرين بشكل مفرغ ، وكان هؤلاء الزائرون على يقين من انهم سينالون الشفاء في لحظة النوبة . وقد نفص أحدهم الغبار عن قصة الايفانخيليتين المستبدلتين في المستشفى وأضيفت القصة إلى

نسيح المعجزة التي وقعت . حيث شد قدر الموقر أن المسألة خارج نطاق معارفه واقترح أخذ المريضة إلى الخوري الكاثوليكي ، فكنيسته ، نظراً لكونها أقدم عهداً ، تمتلك خبرة أكبر في شؤون القديسين ومآثرهم .

استمع الأب ثيريلو في الكنيسة إلى القصة من شفاه الابوين رانكيليو وتذكر ان ايفانجيلينا هي الوحيدة بين أبناء جيلها التي لم تشارك في المناولة الأولى في المدرسة لأن أمها تنتمي إلى جماعة الهرطقة البروتستانتية . انها احدى نجاج قطيعه المفتونة ببهرجة طبل الانجليكانيين وصنجهم ، ولكنه لا يستطيع رغم ذلك أن يجيب نصيحته عنها .

- سأصلي من أجل الصبية . فرحة الرب واسعة وقد يساعدنا ، رغم ابتعادك عن الكنيسة المقدسة .

- شكراً يا ابتاه . ولكن إضافة للصلوات ، ألا يمكنك أن ترقبها لطرده

الشیطان منها؟

رسم الكاهن اشارة الصليب مستنكراً . لا بد أن مصدر هذه الفكرة هو خصمه البروتستاني ، لأنه لا يمكن لتلك الفلاحة أن تخوض في مثل هذه الأمور . فالغاتيكان ما عادت تنظر ، في الأزمنة الأخيرة ، بعين الرضى الى هذه الطقوس ، بل إنها كانت تحول دون ذكر الشيطان ، وكأنها وجدت انه من الأفضل تجاهله . لقد كانت لديه هوبالذات دلائل لا تدحض حول وجود الشيطان ، مفترس الأرواح ، ولهذا لم يكن يميل إلى المواجهة معه في طقوس مرتجلة . ثم أن وصول الخبار مثل هذه الممارسات إلى مسامع رؤسائه ، سيلف شيخوخته برداء الفضيحة السوداء نهائياً . ومع ذلك ، فإن الحس العام كان ينبهه إلى أن الاجراء كثيراً ما يؤدي إلى مآثر لا تفسر لها ، ولربما أدى ترديده لصلوة أبانا الذي في السموات بضع مرات ، وبعض رشاشات من الماء المقدس إلى تهدئة المريضة . وقال للأم أن هذا يكفي ، مستبعداً احتمال الإصابة بمس شيطاني . فطرده الأرواح لا يمكن تطبيقه على مثل هذه الحالات ، لأن ذلك يعني ضرورة الانتصار على الشيطان بالهدات ، وكاهن هرم ووحيد مثله ، منسي في قرية ريفية ، لا يمثل نداً مهيباً

لمواجهة قوى الخبيث، إذا ما افترضنا أن سبب الآم ايفانجيلينا هو هذه القوى .
وأمرها بالمصالحة مع الكنيسة الكاثوليكية المقدسة ، لأن هذه النكبات تحل بمن
يرتابون بربنا في مذاهب الزندقة . لكن ديغنا كانت قد رأيت مالكي الأراضي وهم
يتهايمسون مع الخوري في حجارة الاعتراف في الكنيسة ، وما بين تمتات «أنا
الخطيء» والهمس ، كان يتجسس على الفلاحين ويشي بهم ، ويبلغ عن بساتينهم
الصغيرة ، لهذا السبب فقدت ثقتها بالكاثوليكية ، واعتبرتها حليفة الأغنياء
ومعادية للفقراء في عصيان مكشوف لوصايا يسوع الذي بشر بعكس ذلك .
أصبح الأب ثريلو يتردد منذ ذلك الحين على منزل آل رانكيليو كلما
سمحت له مشاغله الكثيرة وساقاه المتعبتان . في المرة الأولى التي جاء بها ، اهتزت
قناعاته الراسخة أمام مشهد الفتاة المعذبة بهذا الداء الغريب . ولم يجد الماء المقدس
والصلوات نفعاً في التخفيف من أعراض المرض ، كما أنها لم تزد من تفاقمه ،
فاستنتج ان الشيطان بعيد عن هذه المسألة . والتقى مع الموقر البروتستانتى في
المسيحى الروحي ذاته . إذ اتفقا على التعامل مع الداء على أنه مرض عقلي وليس
كتجلل الهي في جميع الأحوال ، لأن المعجزات التافهة المنسوبة إلى الصبية تبدو
غير جديرة بالاهتمام عند التمعن بها . وقد قاوما معاً الخرافة بعد أن درسا الحالة
واستخلصا ان اختفاء بعض التآليل التي غالباً ما تشفى وحدها ، وتحسن المناخ ،
وهو أمر طبيعي في هذه الفترة من السنة ؛ ومواتاة الحظ المريبة في بعض ألعاب
البخت ، ليست كافية لتبرير هذه الهالة من القداسة . لكن حجج الكاهن
الكاثوليكي والراعي البروتستانتى القوية هذه لم توقف مواكب الحج الى بيت آل
رانكيليو . وقد انقسم رأي الزوار الذين كانوا يأتون طلباً للأفضال . ففيما كان
بعضهم يؤكد المنشأ الريانى للأزمة ، كان آخرون يعزونها إلى سحر شيطاني
خبيث . وكان البروتستانتى والخوري والقبلة وطبيب مستشفى لوس ريسكوس
يشكلون جوقة تزعم انها المستيريا ، لكن أحداً لم يشأ الاصغاء اليهم في حماس
مهرجان المعجزات التافهة ذاك .



تخيلت ايرين انها تطير فوق ظهر تنين مجنح وهي تحتضن خصر فرانثيسكو، وتلصق وجهها بنسيج سترته الخشن فيما شعرها يتطاير مع الهواء . خلفاً آخر بيوت المدينة وراءهما، وصار الطريق يمتد وسط حقول مجفوفة بأشجار حور لامعة . ويعيداً كانت تظهر الجبال المحاطة بضباب البعد الأزرق . كانت ايرين تركب مدلية ساقها على جانبي القسم الخلفي من المقعد، تائهة في تخيلات مستحضرة من طفولتها، وكأنها تعدو على فرس عبر الكثبان في حكاية شرقية . كانت تستمتع بالسرعة وبالارتعاشة المزلزلة بين ساقها، وبالزججة الرهيبة التي تحترق جلدها، مفكرة بالقديسة التي ستقابلها، وبعنوان لتحقيقها الصحفي ، وبمخطط هذا التحقيق الذي سينشر على أربع صفحات مع صور بالألوان . فمئذ ظهور الملمهم ، قبل عدة سنوات ، الذي كان يمضي من الشمال إلى الجنوب شافياً القروح وباعثاً الأموات ، لم تُسمع أية أحاديث عن المعجزات . كان هناك مشعوذون ، ومحضرو أرواح ، وذوو مفاصل مطاوعة بالعشرات ، كالفتاة التي تبصق الضفادع ، والشيخ الذي يتنبأ بحدوث الزلازل ، والأصم الابكم الذي يشل الآلات بمجرد التحديق بها ، وقد تأكدت من ذلك حين أجرت معه مقابلة بالاشارات ثم لم تجد بعد ذلك من وسيلة لتشغيل ساعتها التي توقفت . ولكن باستثناء هذا الشخص الشهرير ، لم يكن هناك من يهتم منذ زمن بعيد بمعجزات ذات نفع للإنسانية . وكانت المصاعب تزداد يوماً بعد يوم في العثور على أخبار جذابة للمجلة . حتى صار يبدو وكأن لا شيء مهماً يحدث في البلاد، وإذا ما حدث شيء من هذا فالرقابة تمنع نشره . دست ايرين يديها تحت ستره فرانثيسكو لتدفيء أصابعها الخدرة . داعبت صدره النحيل، انه مجموعة أعصاب وعظام ، وهو مختلف تمام الاختلاف عن هوستافو، كتلة العضلات المتناسكة المتشكلة في ألعاب المبارزة والجودو والتمارين الرياضية وخصوصاً تمرين الاستلقاء وحنى الجذع الذي كان يمارسه خمسين مرة يومياً مع عناصر وحدته ، لأنه لا يطلب من رجاله عمل شيء لا يكون هو نفسه قادراً على عمله ، فهو يقول : انني مثل أب لهم ، أب قاس ، إنما عادل . وعند ممارسة الحب في عتمة الفنادق ، كان ينزع ملابسه متباهياً بمظهره ويستعرض نفسه

في الحجرة وهو عارٍ. لقد كانت تحب ذلك الجسد المحمص بالملح والريح ،
والمدبوغ بالجهد البدني، والمرن، الصلب، المتناسق. فتأمله ملاطفة وتداعبه
وهي شبه ساهية، ولكن باعجاب. أين هو الآن؟ ربما يكون بين ذراعي امرأة
أخرى. فرغم أنه يقسم في رسائله على الوفاء، إلا أن إيرين تعرف ضيق طباعه
وتستطيع أن تلمح خلاصات وسوداوات يستمتعن بصحبته. عندما كان في مهمة في
المنطقة القطبية كان الوضع مختلفاً، ففي وسط ذلك البرد الجليدي، حيث لا رفاق
سوى طيور البطريق وستة رجال مدربين على نسيان الحب، كان العفة أمراً
اضطرابياً. لكن الفتاة متأكدة من أن حياة الكابتن في المنطقة المدارية تسير بشكل
مختلف. وابتسمت حين رأت ان ذلك كله لا يههما كثيراً وحاولت أن تتذكر آخر
مرة شعرت فيها بالغيرة على خطيبها، لكنها لم تتمكن من ذلك.

وحمل ضجيج المحرك إلى ذهنها أغنية من أغنيات وحدات الصاعقة
الاسبانية، كان غوستافو مورانتي يدندن بها بكثرة:

أنا رجل جرحه الحظ
بمخلب ضارٍ،
أنا عريس المنية
أمسكت بها بساعد قوي
وجعلت حبها رايتي.

كان ترديدها هذه الأغنية على مسمع من فرانيسكو فكرة سيئة، لأنه أطلق
على غوستافو منذ ذلك الحين لقب «عريس المنية». ولم تغضب إيرين لهذا.
الحقيقة أنها قليلاً ما كانت تفكر بالحب، ولم تكن تجادل في أمر علاقتها الطويلة مع
الضابط. كانت تقبلها كشيء طبيعي مكتوب في قدرها منذ الطفولة. فظالماً
سمعت انها تشكل مع غوستافو مورانتي الثنائي النموذجي، حتى أنها اقتنعت
بذلك دون ان تتوقف للتأكد من مشاعرهما. كان شخصاً متأسكاً، راسخاً،
رجولياً، ومغروساً بثبات في واقعها. كان تعتبر نفسها كوكباً يبحر في الريح،
ولخوفها من تمردها الداخلي، كانت تستسلم أحياناً لاغراء التفكير بحاجتها لمن

يكبح اندفاعاتها؛ لكن هذه الحالات المعنوية لم تكن تدوم إلا لوقت قصير . وحين تتأمل في أمر مستقبلها تصاب بالكآبة . لذلك كانت تفضل العيش متجاوزة حدود المألوف ما دام ذلك متاحاً لها .

أما فرانثيسكو فلم يكن يرى في علاقة إيرين بخطيبها أكثر من محصلة عزلتين وفراقات طويلة . وكان يقول انه حين ستتاح لهما فرصة البقاء معاً لبعض الوقت ، فسيدركان كلاهما أن ما يجمعهما هو حكم العادة وحسب . ولم تكن هنالك أي اندفاعات في هذا الحب ، فقد كانت لقاءاتها هادئة وفراقاتها شديدة الطول . وكان يعتقد ان إيرين تتمنى في أعماقها اطالة أمد هذه الخطوبة حتى نهاية حياتها ، كي تعيش في حرية مشروطة وتجتمع مع خطيبها بين الحين والآخر ليتداعبا كالجراء . كان واضحاً ان الزواج يخيفها ، ولهذا كانت تختلق الاعذار لتأخيره ، وكأنها تنتبأ بانها ما إن تتزوج من ذلك الأمير المهيأ للوصول إلى رتبة الجنرالية ، حتى يتوجب عليها ان تتخلى عن ملابسها التي كالخرق المتنافرة ، وعن اساورها الصاخبة وحياتها الهائجة .

في هذا الصباح ، وبينما الدراجة النارية تنهب الحقول والتلال نحو لوس ريسكوس ، كان فرانثيسكو يحسب الوقت القليل المتبقي لعودة عريس المنية ، فبمجيئه سيتغير كل شيء . ستختفي سعادة الشهور الأخيرة التي أمضاها إلى جانب إيرين ، وسيودع الأحلام ، والمفاجآت اليومية وشوق انتظارها والضحك لرؤيتها تبادر إلى مهفات غير معقولة . سيكون عليه توخي الحذر ، والتحدث في الأمور العادية فقط ، وتفادي كل شيء مريب ، لقد تقاسمها حتى ذلك الحين تواطؤاً ساكناً . كان يبدو على صديقتها انها تجول في العالم براءة ، وانها لم تكتشف العلامت الضئيلة لحياته المزدوجة ، فهي لا توجه أسئلة على الأقل . ولم يكن عليه اتخاذ اجراءات احتياطية في حضورها ، لكن مجيء غوستافو موراني سيضطره إلى ان يكون أكثر حذراً . كان يرى أن علاقته بايرين ثمينة جداً ، فيرغب في الحفاظ عليها دون المساس بها . ولم يكن راغباً في غرس الرياء والكذب في صداقة ، معها ، لكنه كان يدرك انه لن يجد مفرأ من ذلك بعد وقت قصير . وفيما هو يقود الدراجة

أحس برغبة في إطالة أمد هذا المشوار حتى حدود الأفق، حيث لا يصلها ظل الكابتن، وان يجتاز حدود البلاد، ثم حدود القارة وينطلق إلى بحار أخرى مع إيرين التي تحتضن خاصرته. بدت له الرحلة قصيرة جداً. ولدى انحرافه إلى درب ضيق، ظهرت حقول قمح فسيحة كانت تلمع في هذه الفترة من السنة مثل زغب أخضر فوق السهول. تنهد بشيء من الأسى لأنها وصلا إلى هدفهما. اهتديا دون صعوبة إلى المكان الذي تعيش فيه القديسة، مستغربين تلك العزلة وذلك الصمت المطبق، لأنها كانا ينتظران على الأقل وجود مهرجان من الفضوليين الراغبين في رؤية الظاهرة:

- أنت متأكدة من أنها هنا؟

- متأكدة.

- لا بد أنها قديسة قليلة الشأن إذن، لأنه لا وجود لأحد.

برز أمام أعينها مسكن فلاحين فقراء، جدرانها من الطين المطلي بالكلس، وسقفه مغطى بقرميد باهت اللون، وكان هناك ممر أمام الباب ونافاذة واحدة في البناء كله. ومقابله يمتد فناء فسيح تحيط به عريشة بلا أوراق تبدو وكأنها فسيفساء أغصان جافة وملتوية، تطل منها أول البراعم منبثة ببوادر الصيف. انتبها إلى وجود بئر، وحجيرة من ألواح خشبية يبدو إنها المرحاض، ووراءها بقليل بناء صغير مربع يستخدم كمطبخ.

هرعت عدة كلاب مختلفة الأحجام والفراء لاستقبال الزائرين وهي تنبح هائجة. كانت إيرين، المعتادة على التعامل مع الحيوانات، تسير وسط مجموعة الكلاب وتتحدث إليها وكأنها تعرفها منذ الأزل. أما فرانثيسكو فقد فوجيء بنفسه وهو يكرر في دخيلته بيت الشعر السحري الذي تعلمه في طفولته ليدرأ عن نفسه هذه الأخطار: «توقف ايها الحيوان الضاربي، واجث بذيلك إلى الأرض، فقبل ان يوجد الكلب العظيم، في البدء كان الرب». لكن اسلوب صديقه كان أكثر جدوى دون ريب، ففي حين كانت هي تتقدم مطمئنة، راحت الكلاب تحيط به مكشرة عن أنيابها، كان يتأهب للبدء بتوزيع الركلات على انوف الكلاب الدافئة

عندما ظهر طفل صغير يحمل قضيباً، وأفزع كلاب الحراسة بصرخاته التي أطلقها. وعلى الجلبة، خرج من البيت أشخاص آخرون: امرأة بدينة ذات مظهر خشن وقانط، ورجل له وجه مليء بالأخاديد حتى ليبدو أشبه بحبة كستناء شتوية، وعدة أطفال من مختلف الأعمار.

سألت إيرين:

- هل تعيش هنا إيفانخيلينا رانكيليو؟

- أجل، لكن المعجزة عند الظهر.

فأوضحت انهما صحفيان جذبهما حجم الشائعات. فدعتهما الأسرة، التي تغلبت على الاحساس بالارتباك، للدخول الى البيت انسجاماً مع التقليد الراسخ لساكني هذه الأرض.

★ ★ ★

بعد قليل جاء الزائرون الأوائل واستقروا في فناء آل رانكيليو. وعلى ضوء الصباح صور فرانثيسكو إيرين وهي تتحدث إلى أفراد الأسرة، والتقط لها صوراً وهي ساهية، لأنها لم تكن تحب الوقوف أمام الكاميرا. فقد كانت تقول ان الصور ليست إلا تحايل على الزمن باسقاطه على قطعة ورق مقوى حيث تبقى الروح جامدة. كان الهواء النقي والحماس يمنحان الشابة مظهر مخلوقة من مخلوقات الغاب، فهي تنتقل في ارجاء بيت آل رانكيليو بحرية وثقة وكأنها ولدت هناك، متحدثة وضاحكة ومشاركة في توزيع المرطبات، متفادية الكلاب التي كانت تهز ذيلها بين ساقها. وكان الأطفال يلاحقونها بسبب شعرها الغريب، وثيابها الشاذة، وضحكاتها الدائمة، وسحر حركاتها الصغيرة.

جاء عدد من الانجليكانيين ومعهم جيتاراتهم، ونباياتهم وطبولهم وبدأوا بترتيل المزامير تحت قيادة الراعي الموقر الذي بدا ضئيلاً بسترته اللامعة وقبعته الجنازية. كان في صوت الجوقة وفي موسيقاها نشاز، لكن أحداً، باستثناء إيرين وفرانثيسكو، لم يكن يلحظ ذلك على ما يبدو. فهم يسمعون هذه التراتيل منذ هذة أسابيع، حتى أن آذانهم اعتادتها.

جاء كذلك الأب ثيريلو وهو يلهث للجهد الذي بذله في قيادة الدراجة من الكنيسة وحتى بيت آل رانكيليو. كان يجلس تحت العريشة ساهماً في شروقات كثيفة أو في ترديد صلوات يحفظها عن ظهر قلب، وبهز لحيته البيضاء التي كانت تبدو من بعيد وكأنها باقة سوسن متدلّية من صدره. ربما كان قد أدرك أن سبحة سانتا خيميتا التي باركتها يد البابا ليست مجدّية في هذه الحالة، مثلها مثل تراتيل زميله البروتستانتي أو أقراص طيب لوس ريسكوس الملونة. وبين الحين والآخر كان ينظر إلى ساعته ليتحقق من دقة موعد النوبة. وكان أشخاص آخرون جذبتهم امكانية حدوث معجزة يحتفظون بالصمت تحت افريز سطح البيت، على كراس منتشرة في الظل. كان بعضهم يتبادلون حديثاً متقطعاً عن زراعة الموسم القادم أو عن مباراة في كرة القدم جرت في مكان ناء وسمعوا عنها في المذياع، دون أن يأتوا ولو بشكل عابر على ذكر الدافع الذي قادهم إلى هذا المكان، احتراماً لأصحاب البيت أو خجلاً من أنفسهم.

كانت ايفانجيلينا وأمها تقدمان للزائرين ماء بارداً مع دقيق محمص وعسل. ولم يكن يبدو على الفتاة شيء يشير إلى أنها في حالة غير طبيعية؛ فهي هادئة، متوردة الوجنتين، وعلى وجهها الذي يبدو كبرتقالة ترتسم ابتسامة بلهاء. كانت سعيدة لأنها محط اهتمام هذا الملتقى الصغير.

تأخر هيبوليتور انكيليو طويلاً في جمع الكلاب ليقيدها إلى الأشجار. فقد كانت تنبح بقوة. ثم اقترب بعد ذلك من فرانيسكو ليشرح له ضرورة قتل واحدة من الكلاب، لأنها ولدت في اليوم السابق والتهمت أولادها، وهو أمر لا يقل خطورة عن مباح دجاجة بصوت ديك. ان بعض عيوب الطبيعة تفرض علينا اجتنابها من جذورها للحيلولة دون انتقال العدوى إلى مخلوقات اخرى. وهيبوليتو دقيق جداً في مثل هذه الأمور.

كان يتحدث في هذا الشأن، حين وقف الموقر في وسط الفناء وبدأ بالقاء خطبة حماسية من أعماق رثتيه. وأصغى الحاضرون اليه خجلاً من الانفضاض عنه، رغم انهم جميعاً، باستثناء الانجليكانيين، كانوا يشعرون بحيرة لا ريب

فيها. «ارتفاع في الأسعار! غلاء في المعيشة! هذه مشكلة معروفة. ولوقفها توجد وسائل عديدة: السجن، الضرائب، الاضراب، الخ. ولكن ما هو جوهر المشكلة؟ ما هو السبب؟ كيف يلتهب جشع الانسان مثل كرة النار؟ هناك ميل خطير إلى الرذيلة، واندفاع فاسد نحو الملذات الدنيوية. وهذا هو ما يُبعد الانسان عن الرب المقدس، ويؤدي إلى خلل انساني، وأخلاقي، واقتصادي وروحي، ويطلق العنان لغضب الرب القادر على كل شيء. ان زمننا هذا هو مثل زمن سادوم وعمورة، فقد هوى الانسان في غياهب الرذيلة والاثم وهو ينال عقابه الآن لأنه أدار ظهره للخالق. ان يهوه يرسل الينا التحذيرات لتتروى وتنبؤ عن خطايانا القدرة...»

- عفوك أيها الموقر، هل أقدم لك مرطباً بارداً؟ - قاطعته ايفانخيلينا تاركة اياه معلقاً في خيط الالهام لتعداد اثم جديدة.

دنت واحدة من أتباع البروتستانتية، وهي حواء وقصيرة الساقين، من ايرين لتوضح لها نظريتها حول ابنة آل رانكيليو: «لقد دخل بيلسيو، أمير الشياطين، في جسدها. اكتبني هذا في مجلتك يا آنسة. انه يجب الحاق الاذى بالمسيحيين، لكن جيش الخلاص أقوى منه وسيهزمه. اذكري هذا في مجلتك، لا تنسي».

سمع الأب ثريلو الكلمات الأخيرة، فأمسك بذراع ايرين وقادها جانباً. - لا تهتمي لما تقوله. فهو لاء الانجليكانيون جهلة تماماً يا بنيتي. ليسوا على الايمان الصحيح، ولكن لديهم بعض المزايا الطيبة، وهذا لا يمكن نكرانه. أتعلمين أنهم لا يقربون المسكرات؟ وحتى المدمنين يتخلون عن الشراب في هذه الطائفة، ولهذا أحترمهم. لكن الشيطان لا شأن له في هذه القضية. الفتاة معتوهة، وهذا هو كل شيء.

- والمعجزات؟

- عن أية معجزات تتكلمين؟ لا تصدقي هذه الترهات!

قبل انتصاف النهار بدقائق غادرت ايفانخيلينا رانكيليو الفناء لتدخل إلى

البيت . خلعت كنزتها، وحلت ضفيرة شعرها وجلست على أحد الأسرة الثلاثة التي في الغرفة . خيم الصمت على الجميع في الخارج، وراحوا يقتربون من الممر لينظروا من خلال الباب والنافذة . لحقت ايرين وفرانثيسكو بالفتاة إلى داخل البيت، وفي هويعد آلة التصوير للعمل، كانت هي تجهز آلة التسجيل . كانت أرضية بيت آل رانكيليو الترابية، الموطوءة والمبللة بالماء والموطوءة من جديد، قد اكتسبت تماسك الاسمنت . وكان الأثاث القليل مصنوعاً من خشب عادي دون مسح، وكانت هناك بعض المقاعد وكراسي القش التي بلا مسند، وطاولة خشنة من صنع بيئي . والزينة الوحيدة هي لوحة تمثل المسيح وقلبه يشتعل . كانت هناك ستارة تفصل حجرة نوم البنات، أما فراش الصبيان فكان ممدوداً على الأرض في حجرة ملحقة بالبيت لها مدخل مستقل، وبهذا كانت تتم الحيلولة دون اختلاط الاخوة . كل شيء كان نظيفاً تماماً، وتنبعث منه رائحة النعنع والزعر، وكانت توجد باقة زهور حمراء في قارورة تمنح النافذة مظهراً مفرحاً، وعلى الطاولة يمتد شرشف أخضر مزين بمربعات . وجد فرانثيسكو في هذه الأشياء البسيطة موضوعاً جمالياً عميقاً فقرر التقاط بعض الصور لمشاهد من البيت فيما بعد ليضمها إلى مجموعته الخاصة . لكنه لم يستطع عمل ذلك مطلقاً .



في الساعة الثانية عشرة ظهراً هوت ايفانخيلينا على السرير . ارتعش جسدها وصدرت عنها آهة عميقة وطويلة ورهيبية، بدت وكأنها نداء حب . وراحت تنتفض مرتجفة وتقوست إلى الوراء في جهد يفوق طاقة البشر . واهت من وجهها المشوه ملامح الطفلة البسيطة التي كانتها قبل قليل، وكبرت فجأة عدة سنوات، وارتسمت على وجهها تكشيرة غيبوبة وألم وشبق . اهتز السرير، ورأت ايرين الواجحة ان الطاولة التي تبعد عنها مسافة مترين تتحرك هي الأخرى وحدها دون وساطة شيء معروف . تغلب الذعر على فضولها فدنت من فرانثيسكو بحثاً عن حماية . أمسكت بذراعه والتصقت به دون أن ترفع بصرها عن المشهد الجنوني

الذي يجري فوق الفراش ، لكن صديقها أبعدها عنه بلطف ليتمكن من استخدام آلة التصوير . وفي الخارج كانت الكلاب تنبح في عويل كارثي متواصل ، مشاركة في جوقة أصوات الغناء والترتيل . وكانت اباريق الصفيح تتراقص فوق رفوف الخزانة ، وضربات غريبة تطرق السقف مثل وابل من الحصى ، وزلزلة متواصلة تهز لوحاً من الخشب فوق دعامة افريز السطح ، حيث تخزن الاسرة المؤنثة والظهور وأدوات الفلاحة . وسقط من هناك مطر ذرة تسربت من الأكياس ليفاقم من حدة الاحاسيس الكابوسية . وعلى السرير ، كانت ايفانخيلينا رانكيليو تتلوى ، ضحية هذيانات مبهمه واضطرابات خفية . الأب المكفهر والمنزوع الاسنان ، بملامحه المؤثرة كمهرج كئيب ، كان يراقب المشهد بأسى من عتبة الباب ، دون ان يقترب . بقيت الأم إلى جوار السرير وعيناها مغمضتان ، وكأنها تحاول سماع صمت الرب . وانبعثت آمال الزائرين الذين كانوا داخل البيت وخارجه ، فراحوا يتقربون من ايفانخيلينا واحداً واحداً طالين منها تحقيق معجزاتهم الصغيرة البائسة .

- اشفي لي هذه الدماطل أيتها القديسة .

- اجعلهم لا يأخذوا ابني خوان إلى الجنديّة .

- لينجك الله يا ايفانخيلينا ، أيتها المليئة بالكرامات ، اشفي زوجي من

البواسير .

- أعطني اشارة ، على أي رقم ألعب في اليانصيب؟

- اوقفي المطريا خادمة الرب ، قبل أن يذهب البذار هباء .

الذين بجاؤوا بدافع الايمان أولمجرد اللجوء إلى ملاذ يائس ، كانوا يمرون

بانظام ، متوقفين للحظة إلى جانب الفتاة ليتقدموا برغبتهم ثم يبتعدون وقد

تبدلت ملامحهم لثقتهم من ان العناية الإلهية ستنعم عليهم بواسطتها .

لم يلحظ أي منهم وصول شاحنة رجال الشرطة .

سمعوا الأوامر ، وقبيل أن يتمكنوا من الاتيان بأي رد فعل ، هاجم

العسكريون الخشد ، محتلين الفناء ومندفعين إلى داخل البيت وأسلحتهم في

أيديهم . أزاحوا الناس جانباً، وجعلوا الأطفال يركضون صارخين، وضربوا
بأعقاب بنادقهم كل من وجدوه أمامهم، وملؤوا الهواء بأصواتهم الأمرة .

صرخ الرجل المتين ذو الرقبة الشبيهة برقبة ثور، والذي كان يقود المجموعة :
- وجوهكم إلى الجدار! وأيديكم على الرقبة!
أذعن الجميع للأمر، ما عدا ايفانخيلينا رانكيليو السادرة في غيبوبتها
وايرين بيلتران المتجمدة في مكانها، والتي لم تستطع الحركة من هول المفاجأة .

جأ رقيب له ملامح سكان المنطقة :

- أوراقلك!

فقال إيرين بصوت متماسك وهي تشير إلى رفيقها :

- أنا صحفية وهو مصور .

فتشوا فرانثيسكو بفضافة مارين بأيديهم على خاصرته وتحت ابطيه وما بين

ساقيه في حذائه . وأمره :

- استدر!

دنا منه الضابط، الذي سيرفانه فيما بعد باسم الملازم خوان دي ديوس

راميريث، ووضع سبطانة مسدسه الرشاش على خاصرته :

- اسمك!

- فرانثيسكو ليال .

- أي خراء تفعله هنا؟

فقاطعته إيرين :

- ليس خراء، ولكنه تحقيق صحفي .

- لم أكلمك أنت!

فابتسمت وهي ترفع من رتبته العسكرية ساخرة :

- أما أنا فأكلمك يا سيدي النقيب .

ارتبك الرجل، غير المعتاد على وقاحة المدنيين، ونادى :

- رانكيليو!

وللحال برز من بين أفراد الوحدة العسكرية ماردا أسمر، ذو ملامح فلاحية، مسلح ببندية ووقف متأهباً أمام رئيسه .

أشار الملازم إلى ايفانخيلينا التي كانت في عالم آخر، هائمة في تواصل مضطرب مع الأرواح :

- أهذه هي شقيقتك؟

أجاب الآخر وهو ثابت، كعباه ملتصقان ببعضهما البعض، وصدرة مندفع، ونظره الى الأمام، ووجهه كالصوان :

- أجل يا سيدي الملازم .

في هذه اللحظة هز السطح وابل جديد واكثر عنفاً من الحجارة اللا مرئية، فانبطح الملازم أرضاً، وحذا رجاله حذوه . ورآهم الآخرون يذهلون وهم يزحفون على مرافقهم وركبهم إلى الفناء، حيث نهضوا مسرعين وراحوا يركضون بشكل متعرج ليحتلوا مواقعهم . ومن وراء حوض المغسلة، بدأ الملازم اطلاق النار باتجاه البيت . كانت تلك هي الاشارة المنتظرة .

فضغط الحراس الذين أصابهم مس وثار فيهم عنف لا كايح له ، على ازندة بنادقهم ، وامتلا الفناء خلال لحظات بالصخب، والصراخ، والنحيب، والنباح، والعويل، والبارود . جميع من كانوا في الفناء انبطحوا على الأرض، ويحث بعضهم عن مخبأ في الساقية ووراء الأشجار . وحاول الانجليكانيون انقاذ ادواتهم الموسيقية وحشر الأب ثيريلو نفسه تحت الطاولة وهو يضغط على سبحة سانتا خيميتا ويتوسل بصوت عال الحماية من رب الجيوش .

أحس فرانثيسكو ليال أن الطلقات تمر قريباً من النافذة وأن بعضها يصطدم بجدران الطين السميكه مثل وابل من نبؤات مظلمة . أمسك ايرين من خاصرتها وطرحها أرضاً ليحميها بجسده . أحس بها ترتعش بين ذراعيه ولم يدان كانت الخشنة تحت ثقله أم أنها مذعورة . وما أن توقف الصراخ والذعر حتى نهض واقفاً وركض نحو الباب، موقناً من انه سيجد نصف دزينة من القتلى الذين صرعهم الرصاص، لكن الجثة الوحيدة التي رأتها عيناه كانت جثة دجاجة مزقت الطلقات

أحشاءها . كان الجراس ميهورين ، كمن أصابهم مس من الجنون ، وفيهم عيين بالشعور بالسلطة . وكان الجيران الفضوليون يجمون على الأرض وقد غطاهم الغبار والوحل ، فيما الأطفال يبكون والكلاب تشدّ سلاسلها وتعوي بيأس ! أحس فرانثيسكو بايرين تمر إلى جانبه مثل غمامة بخار ، وقبل أن يتمكن من إيقافها وصلت إلى حيث الملازم ويداها على خاصرتها ، وصرخت بصوت بدا وكأنه ليس بصوتها :

- متوحشون ! بهائم ! ألا تحترمون الناس ؟ ألا ترون انكم قد تقتلون أحداً ؟ ركض فرانثيسكو نحوها وقد أيقن أنهم سيطلقون رصاصة ما بين عينيها ، ولكنه صعق حين رأى الملازم يضحك .

- لا تفقدي أعصابك يا جميلتي ، لقد أطلقنا النار في الهواء . فجزرته ايرين دون أن تتمكن من التحكم بأعصابها :

- ولماذا تكلمني دون كلفة ؟ ثم ما الذي فعله حضرتك هنا أولاً ؟

حدثني رانكيليو عن مشكلة اخته ، فقلت له : حيث يفشل الرهبان والأطباء تنجح القوات المسلحة . هذا ما قلته له . ولهذا السبب نحن هنا . سنرى الآن هذه الصبية ان كانت ستواصل الرفس عندما أعتقلها .

سار بخطوات واسعة نحو البيت . ولحق به كل من ايرين وفرانثيسكو وكأنهما تمثالان متحركان . ان ما حدث بعد ذلك سيبقى محفوراً في ذاكرتهما إلى الأبد ، وسيدكرانه كحدث مركب من صور عاصفة ومتقطعة .

دنا الملازم خوان دي ديوس راميرث من سرير ايفانخيلينا . تحركت الأم لتوقفه ، لكنه أبعدا جانباً . لا تلمسها ! كان هذا هو ما استطاعت المرأة أن تقوله صارخة ، لكن صرختها جاءت بعد فوات الأوان ، لأن الضابط كان قد مديده وأمسك المريضة من ذراعها .

وقبل أن يتمكن أحد من استيعاب الأمر ، انطلقت قبضة ايفانخيلينا لتضطدم بوجه العسكري الأشقر ، ضاربة أنفه بقوة طرحته على ظهره فوق الأرض . وتدحرجت خوذته تحت الطاولة مثل كرة غير نافعة . فقدت الشابة

تشنجهما في الحال ، ولم تعد عيناها تبدو ان تائهتين كما لم تعد تقذف الزبد من فمها . ان من أمسكت الملازم راميريث من سترته العسكرية دون أية مشقة ، ورفعته عن الأرض لتخرجه من البيت وتهزه كما لو كان ممسحة ، هي الصبية الرقيقة ذات الخمسة عشر عاماً والعظام الهشة التي كانت تقدم قبل قليل الدقيق المحمص مع العسل تحت العريشة . ان قوتها الهائلة وحدها هي التي كانت تشي بحالتها غير الطبيعية وقتئذ . وكانت استجابة ايرين للموقف سريعة جداً ، فقد انتزعت آلة التصوير من بين يدي فرانيسكو وراحت تلتقط الصور دون أن تولي اهتماماً لضبط العدسة ، على أمل أن تخرج بعض الصور المناسبة ، رغم التبدل الكبير في شدة الضوء بين الظلال التي في داخل البيت وتلالؤ نور الظهيرة خارجه .

ومن خلال عدسة الكاميرا ، رأت ايرين ايفانجيلينا وهي تسحب الملازم إلى وسط الفناء وتلقي به بإهمال على بعد أمتار قليلة من البر وتستانيتين الذين ما زالوا يقبعون على الأرض مرتعشين . حاول الضابط الوقوف على قدميه ، لكنها عاجلته بعدة ضربات محكمة على رقبته وتركته ملقى على الأرض ، ثم أتبعته ذلك ببعض الركلات دون غضب ، متجاهلة وجود الحراس الذين كانوا يحيطون بها مصوبين أسلحتهم نحوها ، ولكن دون أن يتجرؤوا على اطلاق النار ، وقد شلهم الذهول . شدت الصبية البندقية الرشاشة التي كان راميريث ما يزال يحتضنها إلى صدره وطوحت بها بعيداً ، فسقطت في الوحل وغاصت فيه تحت أنف خنزير غير مبال ، تشممهها قبل ان يراها تختفي وبتلعها الوحل .

في هذه اللحظة وعى فرانيسكو ليال الوضع وتذكر دراسته السيكلوجية . فاقترب من ايفانجيلينا رانكيليو وريت على كتفها برقة ، ولكن بحزم في الوقت ذاته ، منادياً إياها باسمها . وبدت الشابة كأنها ترجع من رحلة حلم طويلة . فأنطرت رأسها ، وابتسمت بخضر ومضت لتجلس تحت العريشة ، فيما كان العسكريون يركضون لاستعادة البندقية الرشاشة وتنظيفها من الوحل ، والبحث عن الخوذة ، ونجدة قائدهم بمساعدته على الوقوف ونفض ثيابه ، وكيف تشعر يا سيدي الملازم؟ والضابط الشاحب المرتعش يزيحهم بضربات من يده ، ثم يضع

خوذته على رأسه ويمسك سلاحه ، دون أن يجد في معجمه الواسع من العنف ما هو لائق بهذه الواقعة .

كان الجميع جامدين ومرتعبين ينتظرون وقوع أمر فظيع . . نوبة جنون ظلامية أو ضربة أخيرة تقضي عليهم ، كأن يصفوهم إلى الجدار ويطلقون عليهم النار دون أي اجراء آخر ، أو أن يحملوهم على الأقل إلى الشاحنة بأشخاص بنادقهم ويخفون اثرهم في وهدة من وهاد الجبل . ولكن بعد تردد طويل ، دار الملازم خوان دي ديوس راميريث على عقبه واتجه نحو المخرج ، وصرخ .

- انسحبوا أيها الخصيان!

فتبعه رجاله . وكان آخر من انصاع للأمر هو براديليو رانكيليو ، الأخ الأكبر لايفانخيلينا ، المشوش والذي غطت وجهه الأسمر امارات الذهب . فلم يتحرك من مكانه إلا بعد أن سمع صوت محرك الشاحنة ، فركض ليتعلق بمؤخرتها ويلتحق ببقية رفاقه . حينئذ تذكر الضابط الصور ، فأصدر أمراً عاد الرقيب على أثره مهرولاً نحو ايرين ، وانتزع منها آلة التصوير ، وأخرج شريط الفلم وعرضه للنور . ثم ألقى بالكاميرا من فوق كتفها كما لو كانت علبة بيرة فارغة .

انصرف الحراس وخيم صمت شامل في فناء بيت آل رانكيليو . كان الجميع مشغولين بأفكارهم ، كما يحدث في الأحلام الخبيثة . وفجأة حطم صوت ايفانخيلينا صمت السحر :

- هل أقدم لك مرطباً آخر أيها الموقر؟

حينئذ تنفسوا الصعداء ، وتمكنوا من الحركة ، والتقاط أشياءهم المبعثرة باحساس من الخجل .

تنهد الأب ثريلو وهو ينفض مسوحه المعفرة :

- فليحمننا الرب!

- وليحفظنا! - أضاف الراعي البر وتستانتي الشاحب مثل أرنب .

استعدت ايرين آلة التصوير . كانت الوحيدة التي تبتسم بين الجميع . فبعد

ان انزاح الرعب ، لم تعد تتذكر سوى ما حدث ، وتفكر بعنوان للتحقيق وتتساءل
إذا كانت الرقابة ستسمح بذكر اسم الضابط الذي تلقى الاهانة والضرب .

قال هيبوليتو رانكيليو معرباً عن رأيه بما جرى :

- فكرة سيئة هذه التي خطرت لابني باحضار الحرس .

وأضافت زوجته :

- سيئة جداً .

بعد ذلك بقليل ، عادت ايرين مع فرانثيسكو إلى المدينة . كانت الشابة
تشد إلى صدرها باقة كبيرة من الأزهار ، هدية من أطفال رانكيليو . كانت رائحة
المزاج ويبدو عليها وكأنها قد نسيت ما حدث ، وليس لديها ادنى قدر من الوعي
للخطر الذي تعرضت له . الشيء الوحيد الذي كان يزعجها على ما يبدو هو
فقدان الفلم ، والذي لا سبيل بدونه إلى نشر الخبر ، لأن أحداً لن يصدق مثل
هذه الواقعة . وكانت تعزي نفسها بالتفكير انه بإمكانها العودة يوم الأحد القادم
لالتقاط صور اخرى لايفانخيلينا أثناء نوبتها . فقد دعته الاسرة للعودة ، لأنهم
يعدون العدة لذبح خنزير يوم الأحد ، وذلك في حفلة سنوية يجتمع فيها عدد من
الجيران وقيمون وليمة مشتركة مهيبة . أما فرانثيسكو ، فقد أمضى الرحلة كلها
وهو يراكم الغضب في نفسه ، وحين أوصل ايرين أمام بيتها لم يكن قادراً على
التوقف . فضحكت وهي تودعه :

- لماذا تغضب كثيراً يا فرانثيسكو؟ لم يحدث أي شيء . بضع رصاصات في

الهواء فقط ودجاجة ميتة . هذا هو كل شيء .

كان قد قرر حتى ذلك الحين ابعادها عن البؤس المستحکم ، وعن الظلم
والقمع الذي يراه يومياً ، وهي موضوعات الحديث السائدة بين آل ليال . كان يرى
في ابغار ايرين براءة وسط بحر القلق الذي يغمر البلاد أمراً عجبياً ، وكذلك في
عدم اهتمامها إلا بما هو حالم وبهي . وكان يفاجأ برؤيتها تطفو مطهرة في هواء نواياها
الطيبة . ان تفاؤل صديقه غير المبرر ، وحيويتها العارمة والنظيفة ، كانت لها
نتائج بلسمية لعذاباته التي يعانيتها بسبب عجزه عن تغيير الأحوال . ومع ذلك ،

فقد راودته في ذلك اليوم رغبة في امساكها من كتفيها وهزها إلى أن يضع لها قدميها على الأرض ويفتح عينيها على الحقيقة . ولكنه حين تأملها إلى جوار سور بيتها الحجري ، ويداها محملتان بالزهور البرية التي ستقدمها للمسنين ، وشعرها المشعث بعد الرحلة على الدراجة النارية ، أحس أن هذه الفتاة لم تولد لتعيش قذارات الواقع . قبلها من وجتها ، أقرب ما يكون من الفم ، وهو يشعر برغبة جامحة في البقاء إلى جانبها إلى الأبد ليحميها من الظلال . كانت تنبعث منها رائحة أعشاب ، وكانت بشرتها باردة . وعرف أن حبها هو قدره المحتم .

القسم الثاني

الظلال

ما زالت الأرض الدافئة
تحفظ آخر الأسرار
فيشتي هويدوبرو

مذ بدأ فرانثيسكو العمل في المجلة وهو يشعر أن حياته تجري في قلق دائم . فقد كانت المدينة مقسمة بحدود غير مرئية عليه اجتيازها بكثرة . فهو يصور في اليوم ذاته فساتين متقنة من المسلمين والدانتيلا ، ويعالج طفلة اغتصبها أبوها في حي أخيه خوسيه ، أو يحمل إلى المطار القائمة الأخيرة لأسماء الضحايا كي يسلمها إلى رسول مجهول بعد أن يردد كلمة السر . كانت إحدى قدميه في الحلم المفروض عليه والقدم الأخرى في الواقع السري . وكان عليه في كل مناسبة ان يلائم حالته المعنوية مع مقتضيات اللحظة الراهنة . وحين ينتهي يوم عمله ، كان يستعرض في سكون غرفته الأحداث فيستخلص أن خير ما يفعله في خضم ذلك التحدي اليومي هو عدم التفكير كثيراً كي يحول دون أن يصيبه الخوف أو الغضب بالشلل . وفي هذا الوقت كانت صورة إيرين تكبر في الظل إلى أن أصبحت تحتل كل الفضاء المحيط به .

حلم ليلة الأربعاء بحقل أقحوان . ولم يكن من عاداته أن يتذكر الأحلام ، لكن الأزهار كانت طازجة وندية في ذلك الحلم لدرجة أنه استيقظ موقناً من انه قد نُقل وهو نائم إلى الخلاء . وعند الضحى التقى في مكاتب المجلة بالمنجمة ، تلك السيدة ذات الشعر الداكن والمصرة على قراءة حظه : ما إن رآته على سلم الطابق الخامس حتى بادرت بالقول :

- أستطع قراءة الأمر في عينيك : انك آت من ليلة حب .

دعاها فرانثيسكو لتناول البيرة ، ولعدم وجود امارات فلكية اخرى تساعدها في استخلاص نبوءتها ، روى لها حلمه . فأخبرته أن زهور الأقحوان هي فال خير ، ولا بد بالتالي ان يقع له حدث سعيد خلال الساعات التالية . ثم أضافت :

- هذا مجرد عزاء يا بني ، لأن يد الموت تشير إليك .

لكنها كانت قد قالت له ذلك مراراً وتكراراً من قبل ، حتى ان سوء الطالع استنفد ما يحمله من فاجعة تخيفه .

أحس فرانثيسكو باحترام كبير نحو العرافة حين تحققت نبوءتها الطيبة بعد

قليل ، عندما اتصلت به ايرين في البيت طالبة منه أن يدعوها للعشاء ، لأنها كانت راغبة في لقاء آل ليال . لقد أمضيا ذلك الأسبوع دون أن يلتقيا تقريباً . فمحررة قسم الأزياء أرادت التقاط مجموعة من الصور في الكلية الحربية مما شغل وقت فرانسيسكو تماماً . كانت الملابس الرائجة في ذلك الحين هي الملابس الرومنطيقية ذات العقد والفضفاضة ، ورغبت محررة قسم الأزياء في مواجهة هذا الزي واطهاره من خلال خلفية تضم الآلة الحربية الثقيلة والجنود . وفكر القومندان ، قائد الكلية ، من جانبه بانتهاز هذه الفرصة لاطهار القوات المسلحة في مظهر أكثر لطفاً ، ففتح لهم أبواب ثكنته بعد اتخاذ تدابير أمنية مضاعفة . فأمضى فرانسيسكو وبقية أفراد فريق العمل عدة أيام في المعقل العسكري ، لم يعد يعرف بعدها ان كان يشمئز أكثر من الأناشيد الوطنية الحماسية والمراسم الحربية أم من ملكات الجمال الثلاث اللواتي يتحركن من خلال عدسات آلة تصويره . كانوا جميعهم يخضعون لدى دخولهم وخروجهم لتفتيش دقيق ، وكان الجنود يقلبون لهم محتويات حقائبهم وسط فوضى مزلزة ليفتشوا بين الفساتين والأحذية وباروكات الشعر ، ويدسوا أيديهم في كل مكان ويبحثوا بواسطة آلات الكتر ونية عن أي شيء مثير للشبهة . العارضات كن يبدأن عملهن بوجوه ساخطة ويقضين الساعات وهن يتمتمن متذمرات . وكانت مهمة ماريو ، الماكبير الأنيق والرصين الذي يرتدي الملابس البيضاء دوماً ، ان يغير ملاحظتهن لكل صورة ، يساعده في ذلك معاونان حديثا العهد في التخث ، يحوّمان مثل يراعتين من حوله . كان فرانسيسكو يتولى مسؤولية آلات التصوير والأفلام ، محاولاً الاحتفاظ بهدوئه دوماً ، حتى ولو عرضوا الفلم للضوء أثناء تفتيشهم ودمروا عمل اليوم كله .

كانت هذه المجموعة الجواله تسبب شيئاً من الخلل في نظام الكلية ، وتشوش من هم غير معتادين على مثل هذه المشاهد . والجنود الذين لم تسترهم ملكات الجمال ، هيجهم المساعدان اللذان ما كانا ينفكان عن دغدغتهم أمام ناظري معلم التجميل المستاء . لم يكن مزاج ماريولينسجم مع الابتذال ، كما انه كان قد تجاوز منذ سنوات أية ميول إلى الحياة الإباحية المشتركة . فهو يتمي إلى

اسرة عامل في مناجم الفحم لديه أحد عشر ابنا . وقد ولد وترعرع في قرية رمادية حيث غبار المنجم يغطي كل شيء بطبقة من البشاعة الدائمة التي لا يمكن لمسها، ويلتصق برئات الأهالي، محولاً الجميع إلى ظلال شخصهم . كان مقرراً له أن يسير على الطريق التي سارها أبوه، وجده واخوته، لكنه لم يكن يشعر بالقدرة على الزحف في باطن الأرض والحفر في الصخر الصلد، ولا على مواجهة قسوة العمل في المناجم . كانت له أصابع رقيقة وروح ميالة إلى الخيال، فعالجوه بضربه بالسوط . لكن هذه الأساليب القاسية لم تشف اخلاقه الاثوية ولم تلوميل طبيعته . فكان الطفل ينتهز أية غفلة لينعم بمتع فريدة تثير سخرية وسطه القاسي ؛ كأن يجمع حجارة من النهر ويجلوها ليستمتع برؤية بريق ألوانها ؛ ويجوب المشهد الكثيب باحثاً عن أوراق جافة لينسحقها في أوضاع فنية ؛ وكان يتأثر حتى الدموع أمام مشهد غروب الشمس ، واغياً في تشيبتها إلى الأبد في جملة شعرية أو في رسم يستطيع تخيله ، لكنه يعجز عن تحقيق ذلك . أمه وحدها هي التي كانت تتقبل تلك التصرفات الغريبة دون أن ترى فيها امارات شذوذ، وانما اليقين بانه روح مختلفة . ولانقاذه من عقوبات ابيه القياسية، أخذته إلى الكنيسة ليكون مساعداً لخدامها، آملة بان تتوارى نعومته الاثوية وسط تراتيل القداس وقرايين البخور . لكن الطفل كان ينسى الرطانة اللاتينية، وينسى نفسه وهو ساهم - بمنظر الذرات المذهبة الطافية في حزم الضوء الداخلة من الكوى . غض الكاهن النظر عن هذا الشرود، وعلمه الحساب والقراءة والكتابة وبعض المبادئ الثقافية التي لا غنى عنها . ولدى بلوغه الخامسة عشرة، كان يحفظ عن ظهر قلب الكتب القليلة الموجودة في الكنيسة وبعض الكتب الأخرى التي كان يستعيرها من التركي صاحب المتجر، حيث كان هذا الأخير يسعى لاجتذابه إلى الحجر الخلفية الملحقة بالمتجر ليلقنه آية اللذة بين الذكور . وحين علم أبوه بأمر تلك الزيارات، قاده بالقوة إلى ماخور المخيم برفقة شقيقه الكبيرين ، فانظروا هناك دورهم مع مجموعة من الرجال المتحرقين لانفاق أجرهم ليوم الجمعة . وكان ماريو هو الوحيد الذي انتبه إلى الستائر المتسخة والحائلة اللون، وإلى رائحة البول، ونفحة

الخذلان اللانهائي التي تلف ذلك المكان . وهو الوحيد الذي تأثر لكآبة أولئك النسوة المنهوكات من استخدام الحب ومداعباته . وحاول ، بعد ان هدده أخواه ، أن يترف كذكر مع المومس التي كانت من نصيبه ، ولكنها بمجرد أن ألقت نظرة واحدة إليه أدركت ان هذا الفتى تنتظره حياة عزلة وتوحد . أحست بالشفقة عليه وهي تراه يرتجف اشمئزاً من منظر لحومهن العارية ، فطلبت ان يتركوها معه على انفراد لتؤدي عملها بسلام . وعندما خرج الآخرون ، أقفلت الباب بالمزلاج ، وجلست إلى جانبه على السرير ، وأمسكت يده ، ثم قالت لما ريوالذي كان ينتحب ملتاعاً :

- لا يمكن عمل هذا بالقوة . اذهب بعيداً عن هنا يا بني ، اذهب إلى حيث لا يعرفك أحد ، لأنهم سينتهون هنا إلى قتلك .
لم يتلق في حياته كلها نصيحة أئمن من تلك . مسح دموعه ووعد بالآ يعود إلى ذرفها في سبيل رجولة لا يرغب في أعماقه بها .
- قالت له المرأة مودعة :

- إذا أنت لم تبتل بالعشق ، فسوف تصل بعيداً .
ثم طمأنت الأب ، لتتخذ بذلك الفتى من عقوبة الضرب .
في تلك الليلة حدث ما ريوامه بها جرى . فبحث في أعماق خزانتهما ، وأخرجت حزمة صغيرة من أوراق نقدية مجمدة وضعتها في يد ابنها . بهذا المال ركب قطاراً إلى العاصمة ، حيث توصل إلى العمل كصبي تنظيف وكنس صالون للحلاقة النسائية مقابل طعامه وفرشة قاسية يقضي عليها الليل في المحل ذاته . كان مفتوناً . لم يكن يتصور وجود عالم كهذا : نبرات واضحة في الكلام ، عطورات ناعمة ، أصوات باسمة ، طيش ، دفء ، استرخاء . كان يراقب من خلال المرايا أيدي الحلاقات المحترفات فوق الشعور فيصيبه ذهول الاعجاب . تمرس في معرفة الروح الانثوية عبر رؤيته للنساء دون حجاب . وفي الليل ، حين يبقى وحيداً في الصالون ، كان يجرب بعض التسريحات على الشعور المستعارة ويجرب استخدام الظلال ، والبودرة ، وأقلام المكياج على وجهه بالذات ليتدرب على فن التجميل ،

وراح يكتشف كيف يمكن تجميل وجه عادي بواسطة الألوان والأقلام . وسرعان ما سمحوا له أن يتدرب ببعض الزبونات الجديديات ، وبعد عدة شهور كان خير من يقص الشعور وصارت السيدات المتشدادات يطالبن بخدماته . كان قادراً على تغيير امرأة ذات مظهر تافه ، مستفيداً من إطار شعر مهلهل وخدع أصبغة التجميل التي أتقن استخدامها بمهارة . ولكنه كان قادراً قبل كل شيء على اظهار نقطة الجاذبية في كل امرأة ، لأن الجمال في نهاية المطاف ليس سوى موقف . بدأ يدرس دون توقف ويهارس عمله بجرأة ، تساعده غريزة صائبة توصله دوماً إلى أفضل النتائج . الجميع كن يسعين للحصول على خدماته : العرائس وعارضات الأزياء والممثلات وسفيرات ما وراء البحار . وفتحت بعض السيدات الثريات وذوات النفوذ في المدينة بيوتهن له ، وهكذا وضع ابن عامل المناجم قدمه لأول مرة فوق السجاد الفارسي ، وشرب الشاي في فناجين الخزف الشفاف واستمتع ببريق الفضة المزخرفة ، والأخشاب المصقولة ، وأصناف الكريستال الفاخرة . وسرعان ما اتقن تمييز الأشياء الثمينة حقاً وقرر ألا يقبل بما هو أقل منها ، لأن روحه كانت تعاف أي شكل من أشكال الابتذال . وحين ولج أوساط الفن والثقافة ، أدرك انه صار عاجزاً عن التراجع ، فأطلق العنان لتيار ابداعه ولرؤياه للصفقات التجارية . وخلال بضع سنوات صار صاحب أشهر صالون للتجميل في العاصمة ، ومالك محل صغير لبيع الأثريات ، وعدة تجارات غامضة . وأصبح خبيراً باللوحات الفنية ، وبالاثاث الفاخر ، والأشياء الثمينة ، يستشيرها في شأنها أناس في أعلى المواقع . كان مشغولاً ومتعجلاً على الدوام ، لكنه لم ينس مطلقاً أن فرصته الأولى للنجاح قدمتها له المجلة التي تعمل فيها ايرين بيلتران ، كذلك كان يترك جميع مشاغله إذا استدعوه هناك إلى عرض أزياء أو اجراء ريبورتاج حول الموضة والجمال ، فيحضر حاملاً حقيبة تبديل شكل الوجوه الشهيرة ، التي تضم أدوات عمله . وصار واسع النفوذ ، حتى ان السيدات الجريئات اللواتي كان يجملهن قبل ذهابهن إلى حفلات المجتمع الكبرى ، كن يفاخرن بابرار توقيععه على خدهن الأيسر مثلما تبرز البدويات وشمهن .

حين تعرف على فرانثيسكوليال، كان ماريورجلاً متوسط العمر، ذا أنف دقيق ومستقيم نتيجة جراحة تجميلية، نحيلاً ومتصب القامة بفضل الريجيم والتسارين والمساجات، ولبشرته لون برونزي اكتسبه من الأشعة ما فوق البنفسجية، ويرتدي بأناقة أفضل أنواع الملابس الانكليزية والاطالية. وكان مثقفاً ومهذباً ومشهوراً، يتجول في أجواء النخبة، ويسافر إلى أماكن نائية بحجة السعي لاقتناء الاثريات. كان يعيش كارستقراطي، لكنه لم يكن يتنكر لأصوله المتواضعة، وكلما سنحت له الفرصة للحديث عن ماضيه في القرية المنجمية، فعل ذلك بشموخ وبمزاج طيب. فكانت بساطته هذه تقتنص تعاطف من لم يغفروا له تكلفة أصلاً نبيلاً لا وجود له. وفي وسط الصفوة الأكثر انغلاقاً، الذي لا تلجأ إلا الألقاب العريقة أو المال الوفير، فرض نفسه بذوقه الرفيع وقدرته على نسج العلاقات مع الناس المناسبين. ولم يرجع مطلقاً إلى بيت أسرته، كما لم يعد لرؤية أبيه أو اخوته، لكنه كان يبعث كل شهر شيكاً إلى أمه ليضمن لها بعض الرفاهية وللمساعدة شقيقاته في دراسة مهنة أو في إقامة تجارة لمن أوفى اقتناء مهر للزواج. كانت ميوله العاطفية غامضة، دون شذوذ، مثل كل شيء في حياته. وحين قدمته إيرين إلى فرانثيسكوليال لم يشرب بتأثره سوى بريق خفيف في حدتيه. وقد لاحظت هي ذلك، فكانت تمازح صديقها فيما بعد قائلة له ان يحذر من تقرب الحلاق منه إذا كان لا يريد ان ينتهي به الأمر إلى وضع قرط في اذنه والتحدث بصوت غنج. بعد اسبوعين من ذلك، كانوا في الاستوديو يعملون في التسريحات الجديدة للموسم، حين ظهر الكابتن غوستافو مورانتي بحثاً عن إيرين. ولدى رؤيته ماريورجلاً تبدلت ملامحه وجهه. كان الكابتن يشعر بنفور شديد من المخنثين وكان يسؤه ان تكون خطيبته في مكان تحتك فيه مع من يعتبرهم منحلين. كان ماريو مستغرقاً في إلصاق ندف مذهبة على وجنتي عارضة ازياء باهرة الجمال، ولم تسعفه غريزته في الانتباه إلى رفض الآخر له، فمد يده إلى الكابتن مبتسماً. قاطع غوستافو ذراعيه فوق صدره وهو ينظر إليه بازدراء بالغ وقال له انه لا يتعامل مع محامين. ساد الاستوديو صمت جلدي، وخيم الذهول على إيرين والمساعدين

والعارضات وجميع من كانوا هناك . شحب لون ماريوبدا كما لو ان غمامة من الكآبة تسدل على عينيه . حينئذ ترك فرانثيسكو ليال آلة تصويره ، وتقدم ببطء ليضع إحدئى يديه على كتف مصفف الشعر . وقال بصوته الواضح واللطيف المعهود :

- اتعرف لماذا لا تريد ملامسته يا كابتن ؟ لأنك تخشى من مشاعرك . ربما هناك بين رفاقك في الثكنة عدد كبير من الشاذين جنسياً .

وقبل أن يعي غوستافو مورانتي خطورة هذا الكلام ، ويقوم برد الفعل المناسب ، تدخلت إيرين لتمسك بذراع خطيبها وتقوده خارج الصالة . لم ينس ماريو أبداً هذا الحادث . وبعد بضعة أيام دعا فرانثيسكو إلى العشاء . كان يقطن في الطابق الأخير من مبنى فخم . وكان ديكور شفته يعتمد على اللونين الأبيض والأسود ، بأسلوب جذاب ، يجمع الحدائثة والأصالة . وبين خطوط الفولاذ والزجاج الهندسية ، كانت توجد ثلاث أو أربع قطع اثاث باروكية عتيقة جداً وسجاد حريري صيني . وعلى السجادة الوثيرة التي تغطي الأرضية كان يخرخر هران ، وقريباً من المدفأة التي يشتعل فيها حطب شذي الرائحة كان يغفوكلب أسود لامع . قال ماريو وهو يرحب به : انني أعبد الحيوانات . ورأى فرانثيسكو سطلاً فضياً مليئاً بالثلج وضعت فيه زجاجة شمبانيا لتبرد ، وإلى جواره كأسين . لاحظ العتمة الخفيفة التي تسود البيت ، وشم شذى الخشب والصمغ الذي يحترق في مبخرة من البرونز ، وسمع موسيقى الجاز المنبعثة من مكبرات الصوت وأدرك أنه المدعو الوحيد . راودته للحظة الرغبة في العودة على أعقابه والخروج ، كي لا يبعث أي بارقة أمل في نفس مُضيفه ، لكنه ما لبث أن أحس بالرغبة في عدم احراجة وكسب وده . نظر كل منها إلى عيني الآخر وسيطر على فرانثيسكو شعور هو مزيج من العطف والتعاطف ، فبحث بين أفضل مشاعره عن أكثرها ملاءمة لتقديمها إلى هذا الرجل الذي يعرض عليه حبه بحياء . جلس إلى جانبه على الأريكة المغطاة بالحرير وتناول منه كأس الشمبانيا مستعيناً بتجربته المهنية للإبحار في هذه المياه المجهولة دون اقتراف أية حماقة . وكانت تلك ليلة لا تنسى بالنسبة لكليهما .

روى له ماريو قصة حياته، وألح له بأشد الأساليب كياسة إلى العاطفة التي كان بينها في روحه. أحس بسليته، لكنه كان منفِعلاً إلى حد لا يستطيع معه كبح عواطفه، إذ لم يلتق أبداً من قبل برجل فتنه إلى هذا الحد. كان فرانثيسكو يقارن قوة الرجولة وأمنها بتلك الرقة الغربية. لم يكن الحب بالنسبة لماريو بالأمر السهل وكان يخشى نوبات الهيجان التي سببت له في الماضي كدراً كثيراً، لكنه كان مستعداً في هذه المناسبة لتسليم نفسه كاملاً للعبة. وتحدث فرانثيسكو كذلك عن نفسه وأفهمه، دون أن يعبر عن ذلك مباشرة، امكانية قيام صداقة متينة وعميقة بينهما، ولكن ليس الحب بأي شكل من الأشكال. واكتشفا في تلك الليلة أن لهما اهتمامات مشتركة، وضحكا، واستمعا إلى الموسيقى وشربا زجاجة الشمبانيا كلها. وفي لحظة ثقة محرمة في أبسط قواعد الحيلة، تحدث ماريو عن رعبه من الدكتاتورية وعن رغبته في مقاومتها. فكشف له حينئذ صديقه الجديد، القادر على اكتشاف الحقيقة في عيون الآخرين، عن سره. وعندما ودعا بعضهما، قبل بدء حظر التجول بقليل، شد كل منهما على يد الآخر بحزم، وكأنهما يوقعان بذلك عقداً تضامنياً.

منذ ذلك العشاء، لم يعد ما يجمع ماريو وفرانثيسكو هو العمل في المجلة وحسب، وإنما العمل السري كذلك. ولم يعد مصنف الشعر إلى التلميح إلى أية هواجس قد تسيء للعلاقة الرفاقية. كان موقفه شفافاً ووصل الأمر بفرانثيسكو إلى الشك بأنه قد يتكلم كما فعل في تلك الليلة المشهودة. وانضمت إيرين إلى المجموعة، رغم أنها أبعداها عن أي عمل سري، لكنها تنتمي بحكم ولادتها وتربيتها إلى الفئة المقابلة. كما أنها لم تبد أي ميل إلى السياسة على الإطلاق، فضلاً عن كونها خطيبة أحد العسكريين.

في هذا اليوم، وفي الأكاديمية الحربية، أنهك ماريو التراخي. ففوق الاجراءات الأمنية، والحروب وتعكر المزاج الجماعي، تأتي تصرفات مساعديه الشاذة أمام الوحدة العسكرية لتزيد من ضيقه.

- سأطردهما من العمل يا فرانثيسكو. فهذان الاحقان تافهان ولن يحققا

لنفسيهما أية مكانة على الاطلاق. كان عليّ أن أطردهما إلى الشارع مذ فاجأتها متعاقبين في حمام المجلة.

كان السأم قد نال من فرانثيسكوليال أيضاً، لأنه لم ير ايرين منذ عدة أيام. فهو لم يكذب يلتقي بها طوال الاسبوع، وكان قانطاً من لقاءها عندما اتصلت به لتخبره انها ستزوره لتناول العشاء معه.

أعدت العدة في بيت آل ليال لاستقبالها. طبخت هيلدا أحد أطباقها المفضلة واشترى البر وفسورزجاجة بيذ وياقة من أول أزهار الموسم، لأنه كان يكن تقديراً للفتاة ويشعر كأن حضورها هو نفحة نظيفة تكس الضجر والقلق. دعوا كذلك إلى العشاء ابنيها الآخرين، خوسيه وخابيير مع اسرته، لرغبتهم في جمعهم معاً ولو لمرة واحدة في الاسبوع على الأقل.

كان فرانثيسكو قد انتهى من تحميص شريط فلم في الحمام الذي يستخدمه كمختبر، عندما أحس بوصول ايرين. علق أشرطة النيجاتيف، وجفف يديه وخرج مقفلاً الباب بالفتاح كي يحمي بذلك عمله من فضول أبناء أخيه ثم أسرع لاستقبالها. داهمته رائحة المطبخ بمداعبة لذيدة، ووصلت إلى مسامعه أصوات طفولية واضحة، ووجد الجميع في صالة الطعام. حينئذ رأى صديقتة. وأحس ان الحظ يحالفه، لأن قماش فستانها كان مزيناً بأزهار أقحوان، وكانت الأزهار ذاتها تتدلى من شعرها المصفور في جديدة. تلك هي صفوة حلمه وخلاصة نبوءات المنجمة الطيبة.



دخلت هيلدا إلى صالة الطعام حاملة بين يديها اناء يتصاعد منه البخار، فانطلقت جوقة من صيحات الترحيب بها.

- موندونغو! - تهتد فرانثيسكو دون تردد، فقد كان قادراً على تمييز شذى البندورة وأوراق الغار حتى ولو كانت في أعماق البحر.

وصاح أحد الأطفال :

- اكره الموندونغو! انه كالمنشفة!

تناول فرانثيسكو قطعة خبز وغمسها في الصلصة الشهية ورفعها إلى فمه ،
فيما الأم تسكب الطعام في الأطباق بمساعدة كرتها . كان خابيير هو الوحيد الذي
يبدو غير عابىء بالضجة من حوله . فقد كان الأخ الأكبر صامتاً وساهماً يلهو
بقطعة من جبل بين يديه . ففي الأزمنة الأخيرة ، صار تفكيره يشرد وهو يربط
انواعاً من العقد المتنوعة : عقدة البحار ، وعقدة صياد الاسماك ، وانشوطة راعي
البقر ، وعقدة الدليل ، وعقدة الخيط ، وعقدة الركاب ، وعقدة الخطاف ، والمفتاح ،
والصاري . وكان يربط هذه العقد ويحلها بإصرار غامض . كان أولاده يراقبونه
مفتونين أول الأمر ، لكنهم تعلموا تقليده فيما بعد وفقد الحبل جاذبيته بالنسبة لهم .
لقد اعتادوا رؤية أبيهم مشغولاً بهوسه . . عادة هادئة لا تزعج الآخرين في
شيء . التذمر الوحيد كان يأتيه من زوجته التي تحتل يديه المتصلبتين من كثرة
احتكاكهما بالحبل الملفوف إلى جانب السرير في الليل وكأنه أفعى أليفة .

كرر الطفل :

- لا أحب الموندونغو!

فاقترحت جدته :

- كل سمك السردين اذن

- لا ، له عيون!

ضرب الكاهن الطاولة بقبضته مزعزماً الأطباق . فتجمد الجميع حين

صرخ :

- كفى! ستأكل مما يقدم اليك . أتعرف كم هم الناس الذين لا يملكون

سوى فنجان شاي وكسرة خبز يابسة في اليوم؟ الأطفال في حيي يسقطون مغمى

عليهم بسبب الجوع!

لمست هيلدا ذراعه بحركة متوسلة كي يستكين ويمتنع عن ذكر الجائعين في

حيه ، لأنه يخاطر بذلك في تفويض الوجبة العائلية وفي تعريض كبد أبيه للخطر .

احنى خوسيه رأسه، خجلاً من غضبه . ان سنوات عديدة من التجربة لم تهدى
من احتدام انفعالاته ولا من هواجسه للمساواة بين أمثاله من بني البشر . حطمت
ايرين الصمت مطرية على الطعام واحتفى الجميع معها برائحته وقوامه ومذاقه ،
وبأصله البروليتاري قبل كل شيء .

قال فرانييسكو ملاحظاً :

- من المؤسف أن نير ودا لم يكتب أغنية للموندونغو .

فقال أبوه بحماس :

- ولكنه كتب واحدة لحساء الصلور، أتريد سماعها . .

لكن صغيراً مكتوماً اسكته .

لم يكن البر وفسور ليال ليغضب من هذه المداعبات . فقد كبر أولاده وهم
يسمعونه يلقي من ذاكرته أو يقرأ بصوت عال أشعار الكلاسيكيين ، لكن أصغرهم
وحده هو الذي أصيب بعدوى حماسه الأدبي . كان مزاج فرانييسكو أقل اندفاعاً ،
وكان يفضل صقل ذوقه من خلال القراءة المنهجية ونظم الأشعار سراً ، تاركاً لأبيه
امتياز الانشاد كلما رغب في ذلك . أما أولاده الآخرون وأحفاده فلم يعودوا
يصبرون على هذا الأمر . وهيلدا وحدها هي التي كانت تطلب منه أن ينشد لها
الأشعار حين يخلوان وحدهما في بعض الأمسيات . وفي تلك المناسبات ، كانت
ترك الحياكة لتصغي باهتمام إلى الكلمات وترسم على وجهها ملامح الافتتان
التي بدت عليها عند لقائهما الأول ، وتحسب سنوات الحب الطويلة التي تقاسمتها
مع هذا الرجل . فعندما اندلعت الحرب الأهلية في اسبانيا كانا شابين متمينين .
ورغم ان البر وفسور ليال كان يرى في الحرب أمراً قذراً ، إلا انه انطلق إلى الجبهة
مع الجمهوريين . وحملت زوجته صرة ملابس وأوصدت باب منزلها دون أن تنظر
إلى السوراء وراحت تنتقل من ضيعة إلى ضيعة مقتفية آثاره . كانا يرغبان في أن
يكونا معاً حين يفاجئهما النصر ، أو الهزيمة ، أو الموت . بعد خريفين من ذلك ولد
ابنهما الأكبر في ملجأ مرتجل بين أنقاض دير . ولم يستطع أبوه حمله بين ذراعيه إلا
بعد انقضاء ثلاثة أسابيع على ولادته . وفي شهر كانون الأول من السنة نفسها ،

قبيل أعياد الميلاد، دمرت قبلة المكان الذي كانت تنزل فيه هيلدا والطفل . حين سمعت الضجة التي سبقت الكارثة، تمكنت من تأمين الوليد في حضنها، وانحنت عليه مثل كتاب مغلق لتحمي حياة الطفل، فيما كان السقف ينهار ليسحقها . أخرجوا الصغير من بين الأنقاض سليماً تماماً، أما أمه فقد أصيبت بكسر عميق في الجمجمة وتهشم أحد ذراعيها . فقد زوجها أثرها لبعض الوقت، ولكنه وجدها بعد بحث طويل في مستشفى ميداني، حيث كانت تقبع منهكة لا تذكر حتى اسمها، مصابة بفقدان الذاكرة، بلا ماض ولا مستقبل، والطفل معلق على صدرها . عندما انتهت الحرب، قرر البروفسور ليال الانطلاق نحو فرنسا، لكنهم لم يسمحوا له باخراج المريضة من المأوى الذي كانت تعالج فيه، فكان عليه ان يخطفها ليلاً . حملها فوق عارضتين خشبيتين لهما أربع عجلات، ووضع الوليد في ذراعها السليمة، وربطها ببطانية وسار بهما يجر نفسه متثاقلاً في دروب الكآبة تلك التي تقود إلى المنفى . اجتاز الحدود مع امرأة لا تعرفه، وعلامة ادراكها الوحيدة هي غناؤها للطفل . لم يكن لديه مال، ولا أصدقاء . وكان يعرج بسبب جرح أحدثته رصاصة في فخذه، لكن ذلك لم يبطيء من خطواته وهو يرى أن الأمر متعلق بانقاذ أسرته . الشيء الوحيد الذي كان يحمله معه هو مسطرة حساب قديمة ورثها عن ابيه، وقد أفادته في اعادة تعمير أبنية وفي وضع مخطط للخنادق في أرض المعركة . في الجانب الآخر من الحدود، كانت الشرطة الفرنسية تنتظر قافلة المهزومين اللانهاية . فصلوا الرجال جانباً واعتقلوهم . وجادل البروفسور ليال كمخبول محاولاً أن يشرح الوضع مما جعلهم يقتادونه بأعقاب البنادق مع الآخرين إلى معسكر التجميع .

عشر ساعي بريد فرنسي على العربة في الطريق . فدنا منها مرتاباً حين سمع بكاء الطفل . نزع البطانية فرأى شابة معصوبة الرأس، أحد ذراعيها مربوط إلى عنقها بحمالة، وتحمل في ذراعها الآخر طفلاً لا يتجاوز عمره بضعة أسابيع يبكي من البرد . حملها إلى بيته وجهد مع زوجته في تقديم المساعدة لهما . ومن خلال منظمة دينية بروستانتية انكليزية مخصصة لغوث وحمية اللاجئين، عثر على

الزوج على شاطئ مسيح بأسلاك شائكة، حيث كان الرجال يقضون نهارهم بخمول يراقبون الأفق وينامون في الليل بدفن انفسهم في الرمال بانتظار أوقات أفضل. كان ليال على وشك الجنون يأساً وهو يفكر بهيلدا وابنه، ولهذا بكى حين سمع من ساعي البريد انها بخير، أحنى رأسه وبكى طويلاً لأول مرة في حياته منذ بلوغه سن الرشد. ووقف الفرنسي يتأمل البحر، دون أن يجد كلمة أو حركة مناسبة لتقديم السلوى له. وحين ودعه رآه يرتجف، فخلع معطفه، وألقاه عليه لتبدأ بينهما صداقة ستدوم نصف قرن. ساعده في الحصول على جواز سفر، وفي تنظيم وضعه القانوني وفي الخروج من معسكر اللاجئين. وأثناء ذلك قدمت زوجته لهيلدا كل انواع الرعاية. كانت امرأة عملية كافحت لفقدان الذاكرة بأسلوب من ابتداعها، ولأنها لم تكن تعرف اللغة الاسبانية، فقد استخدمت قاموساً لتلقنها أسماء الأشياء والمشاعر واحداً واحداً. كانت تجلس إلى جانبها ساعات وساعات لتجوب معها المعجم كله من الألف إلى الياء، مكررة كل كلمة إلى ان ترى بريق الفهم في عيني المريضة. وشيئاً فشيئاً استعادت هيلدا ذاكرتها المفقودة. وكان أول وجه استعادت تشكيله في ضبابية ذاكرتها هو وجه زوجها، ثم تذكرت اسم ابنها وأخيراً، ومثل سيل جارف تواردت إلى ذهنها أحداث الماضي، والجمال، والشجاعة، والحب، والفرح. وربما اتخذت في تلك اللحظة قرار اصطفاء ذكرياتها ومحو كل المنغصات من المرحلة الجديدة التي بدأتها، لأنها عرفت بالبداية ضرورة استخدام كل قواها لبناء مصيرها كمهاجرة. فكان من الأفضل نسيان مشاعر الحنين المؤلمة، والوطن، والأقارب والاصدقاء الذين بقوا هناك، فلم تعد للحديث عنهم منذ ذلك الحين. بدت وكأنها قد نسيت بيتها الحجري ولم تجد محاولات زوجها في تذكرها به خلال السنوات التالية. كانت تعطي انطباعاً بأنها قد نسيتهم تماماً مع ذكريات اخرى، ولكنها بالمقابل لم تكن في يوم من الأيام أكثر توقداً في ادراك الحاضر والتخطيط للمستقبل، وفي مواجهة حياتها الجديدة بحماس كامل.

يوم أبحر آل ليال نحو أطراف اخرى من الأرض، حضر ساعي البريد

وزوجته إلى الميناء لوداعهم، وقد ارتديا ملابس الأحد. وكانت قامتاهما الضئيلتين هما آخر ما أمكن تمييزه حين ابتعدت السفينة في عرض البحر. وإلى أن تلاشت شواطئ أوروبا في البعيد، بقي جميع المسافرين في مقدمة السفينة ينشدون أغنيات الجمهورية بأصوات يقطعها النحيب، ما عدا هيلدا، التي كانت تقف في مقدمة السفينة بحزم، والطفل في حضنها، ممعنة النظر إلى المستقبل.

ذرع الزوجان ليال دروب المنفى، واعتادا على الفقر، وبحثا عن عمل، وأقاما صداقات واستقرا في الجهة الأخرى من العالم منتصرين على الشلل الأولي الذي يصيب من فقدوا جذورهم. وأخرجوا إلى النور حصناً جديداً ولد من الآلام والفاقة. ولكي يتناسكا في النكبات استندا إلى حب صمد أمام جميع الاختبارات، حب أكبر من أي حب آخر. وما زالوا، بعد أربعين سنة من ذلك، يرسلان ساعي البريد الفرنسي وزوجته، لأن الأربعة حافظوا على قلوبهم النبيلة واذهانهم الصافية.

وفي هذه الليلة، وبينما هم جالسون إلى المائدة، كان البروفسور في ذروة البهجة. فوجود إيرين بيلتران أطلق لسانه. كانت الشابة تصغي إليه وهويتحدث عن التضامن بانبهار طفلة أمام مسرح للدمى، لأن تلك الخطابات الحماسية كانت بعيدة بعداً شاسعاً عن عالمها. وفيما كان البروفسور يراهن على اسمي القيم الانسانية، متجاهلاً آلافاً من سنوات التاريخ التي تثبت العكس، واثقاً من أن جيلاً واحداً يكفي لخلق وعي أرقى ومجتمع أفضل إذا ما توفرت الظروف اللازمة، كانت هي، في ذهولها، تنسى الطعام ليبرد في طبقها. كان البروفسور يؤكد ان السلطة شر مطلق، وان من يضعون يدهم عليها ويمسكون زمامها هم حثالة البشرية، لأن من يفوز بالهبات عادة هم العفيفون والدمويون. لذلك لا بد من مقارعة كل أشكال السلطة وترك البشر يعيشون أحراراً في نظام من المساواة. وكان يخطب أمام إيرين المبهورة قائلاً:

- الحكومات فاسدة في جوهرها، ولا بد من الغائها. انها تكفل حرية الأغنياء المستندة إلى الملكية واستعباد الآخرين في البؤس.

فعلق خوسيه بشيء من الضجر، وهو الذي لم يسمع هذه النبوة الخطائية المدوية منذ سنوات :

- إن كراهية السلطة هي داء مستحکم فيمن هرب من دكتاتورية ويعيش الآن في ظل دكتاتورية اخرى .

فمع مرور الزمن، لم يعد أولاد البر وفسور ليال يأخذون أباهم على محمل الجد، وكان اهتمامهم يقتصر على الحيلولة دون اقترافه للحماقات . لا بد أنهم قدموا له المساعدة أكثر من مرة في طفولتهم، ولكنهم ما ان بلغوا سن الرشد حتى هجروه وهجروا خطاباته ولم يعودوا إلى استخدام آلة الطباعة التي في المطبخ ولا إلى الذهاب إلى الاجتماعات السياسية . وبعد الغزو السوفييتي لهنغاريا عام ١٩٥٦، لم يعد الأب نفسه إلى الحزب أيضاً، لأن خيبة الأمل كادت أن تودي بحياته . ووقع خلال بضعة أيام ضحية كآبة مرعبة، لكن الثقة بقدر الانسانية ما لبثت أن عادت لتملأ روحه، وحملته إلى تجاوز خيبة الأمل والشكوك التي عذبتة . ودون أن يتخلى عن مبادئه في العدالة والمساواة، قرر أن الحرية هي الحق الأول للإنسان، فنزع صورتي لينين وماركس من الصالة وعلق صورة لميخائيل باكونين . وأعلن قائلاً : اعتباراً من الآن، أنا فوضوي . لم يعرف أي من أولاده ما الذي يمكن أن يعنيه ذلك، واعتقدوا لبعض الوقت انها فئة دينية أو فريق من المخبولين . إذ لم يكن هناك من يهتم بهذه الايديولوجية التي أقل نجم رواجها وكنستها رياح ما بعد الحرب . واتهموه بانه الفوضوي الوحيد في البلاد، وربما كانوا محقين في ذلك . بعد وقوع الانقلاب العسكري، ولحميته من تهوره، نزع فرانيسكو قطعة أساسية من آلة الطباعة . كان لا بد من منعه بأية طريقة من مواصلة نشر أفكاره وتوزيعها في أرجاء المدينة، كما فعل في مناسبات سابقة . وأقنعه خوسيه فيما بعد انه من الخير التخلص من تلك الآلة القديمة عديمة الجدوى وحملها إلى حيه، حيث أفادت بعد اصلاحها وتنظيفها وتشحيمها في نسخ الأماي المدرسية للتلاميذ في النهار ومنشورات التضامن في الليل . لقد أنقذ هذا الاحتياط الموقف البر وفسور ليال حين قامت الشرطة السرية في احدى حملات المداهمة بتفتيش الحي بيتاً بيتاً، ولا بد انه

كان سيعجز عن تقديم تفسير لوجود آلة الطباعة في المطبخ . حاول الأولاد أن يبينوا لأبيهم كيف أن الأعمال المعزولة والعشبية تلحق ضرراً بقضية الديمقراطية يفوق النفع الذي قد تعود به، لكنه كان ينتهز أي سهو منهم ليعود إلى زج نفسه في المخاطر، تدفعه إلى ذلك مبادئه الملتهبة .

حين علموا بأمر المنشورات المعادية للمجلس العسكري التي ألقيت من فوق مبنى البريد، توسلوا إليه :

- حذار يا أبتاه!

فرد البر وفسور بتصميم :

- لقد أصبحت شيخاً عجوزاً، وكبرت على اخفاء ذيلي بين ساقِي .

- إذا أصابك شيء، فأضع رأسي في الفرن وأموت مختنقة . - كانت هيلدا تحذره دون أن ترفع صوتها ودون أن تفلت من يدها مغرفة الحساء . وكان زوجها مقتنعاً من أنها ستنفذ ما تقوله، فيتخذ بعض الاحتياطات، ولكنها لم تكن بالاحتياطات الكافية على الاطلاق .

وكانت هيلدا من جانبها تقاوم الدكتاتورية بأسلوب فريد . فكان جهدها يتركز مباشرة على الجنرال، الذي به مس من الشيطان على حد زعمها، وهو تجسيد للشرداته . كانت تفكر انه بالامكان هزيمته بواسطة الصلاة والابتهالات الدينية التأملية التي تجري مرتين في الاسبوع . وفي تلك الاجتماعات للصلاة كانت تلتقي بمجموعة من ذوي الأرواح الورعة المصممين في دخيلتهم على القضاء على الطاغية، وكان عدد تلك الجماعة يزداد يوماً بعد يوم، حتى تحولت إلى حركة على المستوى الوطني للصلاة في حلقات . ففي اليوم المحدد، وفي ساعة معلومة، يجتمع المؤمنون في جميع مدن البلاد، وفي القرى النائية، والضياح التي نسيها التقدم، وفي المعتقلات والسجون، وحتى في المراكب التي في عرض البحر، ليقوموا جميعهم معاً بمجهود روحي رهيب، ليتوصلوا من خلال هذا النشاط المنظم إلى سحق الجنرال وحاشيته سحفاً لا قيامة منه . لم يكن خوسيه يقبل بمثل هذه الخرافات ويرى انها خاطئة من وجهة النظر اللاهوتية، أما فرانثيسكو فلم يكن

يستبعد احتمال ان يؤدي هذا الاسلوب المبتكر إلى نتائج مرضية ، لأن الايجاء يصنع المعجزات ، وإذا ما علم الجنرال بهذا السلاح المهيب للقضاء عليه ، فقد يصاب بالذهول وتصبح حياته في أسوأ حال . وكان يقارن نشاط أمه بالاحداث الغريبة التي تقع في بيت آل رانكيليو ويستخلص أنه في ازمته القمع تبرز حلزل خيالية لأكثر المشاكل تعقيداً .

كان البروفسور ليال يمزح قائلاً :

- دعك من الصلوات يا هيلدا ، والتفتي إلى الجودو فإن له اساساً علمياً أكبر .

لقد سخر منها أفراد اسرتها كثيراً ، إلى أن أصبحت تذهب إلى تلك الاجتماعات بحذاء مطاطي وملابس رياضية ، مخفية كتاب الصلوات بين ملابسها . وكانت تقول لهم انها ذاهبة للجري في الحديقة ، فيما هي مصممة في الحقيقة على مواصلة مهمتها الشاقة في مقاومة السلطة بضربات المسبحة .

في بيت آل ليال ، كانت ايرين تصغي باهتمام إلى كلمات رب البيت ، مفتونة برنة لهجته الاسبانية التي لم تخفف منها سنوات طويلة من الحياة الاميركية . حين كانت تراه يومىء منفعلاً ، بعينه اللامعتين ورعشة قناعاته الراسخة ، تشعر انها تنتقل إلى القرن الماضي ، إلى قبو مظلم للفوضويين ، حيث يجري تخضير قبلة بدائية لالقائنها لدى مرور عربة ملكية . أثناء ذلك كان فرانثيسكو وخوسيه يتبادلان حديثاً جانبياً عن قضية الطفلة المغتصبة التي أصبحت بكاء ، فيما هيلدا وكنتها تتوليان شؤون العشاء والأولاد . أما خايبير فكان يأكل قليلاً ولا يشارك في الحديث . لقد وجد نفسه عاطلاً عن العمل منذ اكثر من سنة ، وخلال تلك الشهور كانت طباعه تتبدل ويتحول إلى شخص متجهم ، أسير كآباته . وقد اعتادت الأسرة على صمته الطويل وعينه الخاويتين من أي فضول ، وعلى ذقنه سيئة الحلاقة ، فما عادوا يرهقونه باظهار تعاطفهم واهتمامهم الذي كان يرفضه . هيلدا وحدها هي التي كانت تصر على ايماءات التودد وعلى سؤاله في كل لحظة أين تمضي أفكارك يا بني .

اخيراً استطاع فرانثيسكو مقاطعة منولوج ابيه ، وروى لأفراد الأسرة مشهد لوس ريسكوس ، وكيف طوحت ايفانخيلينا بالضابط كما لو كان منفضة ريش . وأعربت هيلدا عن رأيها بالقول انه للقيام بعمل كهذا لا بد ان تكون محمية من الرب أو الشيطان ، لكن البر وفسور ليال أكد على أن الفتاة ليست إلا نتاجاً غير طبيعي لهذا المجتمع القلق . فالفقر ، ومفهوم الخطيئة ، والرغبة الجنسية المقموعة والعزلة هي سبب دائها . ضحكت ايرين ، مقتنعة من أن الوحيدة التي اصابت في تشخيصها للداء هي ماميتا انكارناثيون وأن الحل العلمي هو في البحث عن رفيق يتزوجها واطلاقها معاً في الجبل ليفعلا كما الأرانب البرية . ووافق خوسيه على ذلك . وحين سأل الأطفال بشيء من التفصيل عما تفعله الأرانب البرية ، شدت هيلدا انتباههم إلى الفاكهة : بواكير مشمش الداماسكو ، مؤكدة أنه لا وجود لبلد على الأرض ينتج ثماراً بمثل هذه اللذة . وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة للإعراب عن المشاعر القومية التي يتساهل بها آل ليال ، لكن البر وفسور لم يفوت الفرصة لظهار ذلك :

- على البشرية أن تعيش في عالم موحد ، تختلط فيه أجناس ولغات وعادات وأحلام جميع البشر .

فسألت ايرين التي فقدت تماماً اتجاه الحديث :

- وما علاقة هذا بالشمس ؟

ضحك الجميع ، قال ليال القادرون على تحويل أي موضوع إلى منشور سياسي ، لم يفقدوا لحسن الحظ القدرة على السخرية من انفسهم . بعد الحلوى ، شربوا قهوة فاخرة ذات رائحة شديدة أحضرتها ايرين معها . وعند الانتهاء من العشاء ذكرت الشابة فرانثيسكو بالخنزير الذي سيذبح في بيت آل رانكيليو في اليوم التالي . ثم ودعتهم مخلفة وراءها أثراً من خفة الظل التي لفتهم جميعاً ، باستثناء خابيير الصامت ، والذي لم يكذب يشعر بوجودها لشدة استغراقه في بأسه وفي عقده .

- تزوج منها يا فرانثيسكو .

- لديها خطيب يا أماء .

فردت هيلدا، وهي عاجزة عن اصدار حكم محايد في أمر يتعلق بابنها:
- أنت أفضل منه بكثير دون شك .



عندما تعرف فرانيسكو على الكابتن غوستافو مورانتي، كان قد أحب
ايرين حباً جعله لا يكاد يداري استيائه منه . في تلك الفترة لم يكن هو ذاته ليعترف
بان هذه العاطفة التي تفتنه هي الحب، وحين كان يفكر بها كان يفعل ذلك
بمصطلحات الصداقة المحضة . منذ لقائه الأول مع مورانتي كره كل منهما الآخر
بمعاملة، أحدهما فعل ذلك بدافع الاحتقار الذي يشعر به المثقف تجاه
العسكريين، وفعله الآخر للشعور ذاته معكوساً . حياه الضابط بانحناء خفيفة
دون ان يمد يده اليه، ولاحظ فرانيسكو نبرة الغطرسة التي باعدت بينهما منذ
البداية، والتي كانت تتحول رغم ذلك إلى عذوبة حين يتوجه بالحديث إلى
خطيبته . لم تكن توجد امرأة أخرى بالنسبة للكابتن . لقد اختارها منذ زمن مبكر
لتكون شريكه حياته، وكان يعبدها ويحبها بكل جوارحه . ولم تكن الغراميات
العابرة ولا مغامرات اليوم الواحد تستحق الذكر لديه، فهي أمور لا بد منها خلال
فترات فراقها الطويلة التي تفرضها ظروف مهنته . ولم تكن أية علاقة أخرى لتترك
أثراً في روحه أو ذكري في جسده . كان يحب ايرين منذ الأزل، مذ كانا طفلين
يلعبان في بيت الجددين موقظين معاً أول قلق البلوغ . وكان فرانيسكو ليال يرتعش
عند تفكيره بمداعبات ابناء العمومة هذه .

كان من عادة مورانتي الاشارة إلى النساء على انهن سيدات، مؤشراً
بذلك إلى الفرق بين هذه الكائنات الاثيزية وبين عالم الذكر الخشن . وكان
يستخدم في سلوكه الاجتماعي آداباً احتفالية إلى حد التحذلق، مناقضاً بذلك
شكل تعامله الخشن والحميمي مع رفاقه في السلاح . وكان مظهره كبطل في
السباحة جذاباً . والمرة الوحيدة التي صممت فيها الآلات الكاتبة في الطابق

الخامس من مبنى المجلة، كانت يوم ظهوره في صالة المحررين بحثاً عن إيرين . كان برونزياً، شامخاً، وبارز العضلات، كأنه تجسيد لجوهر المحارب . رفعت الصحفيات والمخرجات وعارضات الأزياء المتأنفات عيونهن عن أعمالهن، وكذلك فعل المخشون، ووقف الجميع مشدوهين وهم يتأملونه، تقدم دون أن يتيسم، ومعه مشى عظماء الجنود في كل الأزمنة : الاسكندر، ويوليوس قيصر، ونابليون، وجيوش الأفلام السينمائية الحربية . وتوتر الجوفي تنهيدة عميقة ودسمة وحارة . كانت تلك هي المرة الأولى التي يراه فيها فرانثيسكو، فأحس رغباً عنه بالانبهار لصورته المتسلطة . لكن حالة من الكآبة هيمنت عليه فور ذلك، عزاها إلى نفوره من العسكريين، لأنه لم يكن ليقبل الاعتراف بانها مجرد غيرة عادية . لقد كان يوارى تلك الأحاسيس في الأحوال الطبيعية، لأنه ينجل من المشاعر التافهة، لكنه لم يستطع مقاومة الاغراء بزرع القلق في روح إيرين، فكان يعرب لها، ويكثرة، في الشهور التالية عن رأيه في الحالة الكارثية التي تعيشها البلاد منذ ان هجرت القوات المسلحة ثكناتها لتغتصب السلطة . فكانت صديقته تبرر الانقلاب بالذرائع التي لقنها إياها خطيبها؛ لكن فرانثيسكو كان يفند تلك الحجج مبيناً ان الدكتاتورية لم تحل أية مشكلة، وانما هي فاقمت فقط من المشاكل القائمة وخلقت مشاكل اخرى جديدة، لكن القمع يحول دون معرفة الحقائق . لقد وضعوا غطاء محكماً فوق الواقع وتركوا حساء فظيلاً يتعفن في القاع، مراكمين بذلك ضغطاً كبيراً لن يجدوا عندما يحين موعد انفجاره ما يكفي من آلة الحرب والجنود للسيطرة عليه . كانت إيرين تستمع ساهية، فمصاعبها مع غوستافوهي مصاعب من نوع آخر . فهي لا تتطابق مع مواصفات الزوجة النموذجية للضابط عالي الرتبة، كما انها واثقة من انها لن تكون كذلك أبداً، حتى ولو قلبت نفسها مثل جورب . وكانت تعتقد انها ما كانت ستجبه، وربما لم تكن ستتاح لها فرصة اللقاء به لو انها لم يعرفا بعضهما منذ الطفولة، ذلك لأن العسكريين يعيشون في حلقات مغلقة ويفضلون الزواج من بنات قاداتهم أو شقيقات رفاقهم اللواتي يتلقين تربيتهم كخطيبات بريئات وزوجات مخلصات، رغم أن الأمور لا تتسير

على هذا الحال دوماً. لذلك فهم يقسمون على تحذير رفيقهم إذا ما كانت زوجته تخدعه، ويجبرونه على اتخاذ اجراءات مناسبة قبل أن يبلغوا القيادة العليا ويقوضون مستقبله لكونه ذا قرون. وكانت هي ترى في هذه العادة شيئاً مشيناً. كان غوستافويؤكد أول الأمر انه يستحيل قياس الرجال والنساء في المقاس ذاته، ليس ضمن أخلاقيات الجيش وحسب، وانما في أخلاقيات أي عائلة محترمة أيضاً، لأن هناك فروقاً بيولوجية لا يمكن انكارها وتراثاً تاريخياً ودينياً لا يمكن لأية حركة تحرر نسائية ان تمحوه. وكان يقول ان اغفال ذلك قد يؤدي إلى إلحاق اضرار بالمجتمع. لكن غوستافو كان يفاخر بانه ليس مغتراً برجولته، كما هم معظم أصدقائه. إلا أن معاشته لها وقضاءه سنة في القطب الجنوبي لتركيز أفكاره وصقل ما في تكوينه من تنوعات أوصله إلى ادراك ظلم هذه النظرة الاخلاقية المزدوجة، فعرض على ايرين المبادرة المهذبة بان يكون مخلصاً لها بدوره، حيث ان حرية الحب لكليهما كانت تبدوله بدعة جنونية اخترعتها الشعوب الاسكندنافية. وبقسوته على نفسه كقسوته على الآخرين، ويتصميمه على العهد الذي قطعه، ولأنه مغرم، ومرهق في أغلب الأحيان من التمارين البدنية، وفي بعده في الظروف العادية. فخلال فترات الفراغ الطويلة كان يقاوم ضيق طبعه مستعيناً على ذلك بقوة روحه أسيرة الوعد. وكان يتألم معنوياً حين يستسلم لاغراء مغامرة عابرة، ولم يكن قادراً على العيش في العفة لزم من طويل، لكن قلبه كان على وفائه، كضريبة لخطيته الأبدية.

كان الجيش بالنسبة لغوستافو مورانتي خياراً طاعياً. دخله مبهوراً بالحياة القياسية، ورغبة في ضمان مستقبل مستقر، وحباً بالقيادة واستمراراً لتقليد عائلي. فأبوه وجده كانا جنرالين. وفي الحادية والعشرين من عمره برز كواحد من أفضل تلاميذ دفعته، وكان بطلاً في المبارزة والسباحة. تخصص في سلاح المدفعية وحقق رغبته في قيادة وحدة عسكرية وتدريب المجندين الجدد. حين تعرف فرانثيسكو ليال عليه، كان عائداً لتوه من أنتاركتيكا، حيث أمضى اثني عشر شهراً وهو معزول تحت سماء متقلبة، يحد بصره أفق قبة سهاوية زرقية، تضيؤها شمس باهتة

طوال ستة شهور متواصلة لا ليل فيها، ثم يليها نصف عام آخر عاشه في ظلام دائم . كان قادراً على الاتصال بايرين بواسطة اللاسلكي مرة في الاسبوع ولمدة ربع ساعة فقط، يستغلها ليطلب منها كشافاً بكل أعمالها؛ وقد أمضته الغيرة والعزلة . لقد اختارته القيادة العليا من بين مرشحين كثيرين لصلابة طبعه ولياقته البدنية، فعاش في هذه الأرض الفسيحة المقفرة مع سبعة رجال آخرين، معانين من عواصف ترفع الماء أمواجاً سوداء عالية كأنها الجبال، مدافعين عن أئمن كنوزهم: الكلاب الاسكيمالية ومستودعات الوقود، في درجة حرارة تصل إلى الثلاثين تحت الصفر، متحركين كآلة لمقاومة البرد القطبي والحنين الذي لا علاج له، كل ذلك من أجل المهمة الوحيدة والمقدسة في ابقاء راية الوطن خفاقة وسط ذلك الموضوع المنسي . كان يحاول ألا يفكر بايرين، لكن الارهاق والجليد والأقراص المخففة للشبق التي كان الممرض يقدمها اليه، لم تستطع محو ذكراها الدافئة من قلبه . كان يتسلى باصطياد الفقعات في شهور الصيف لتخزينها في الثلج للشتاء، ويخدع الساعات باجراء تجارب في الارصاد الجوية، فيقوم بقياس ارتفاع المد، وسرعة الرياح، وكثافة الغيوم، ودرجة الحرارة والرطوبة، متنبئاً بالعواصف، ومطلقاً بالونات اختبار ليتعرف على نوايا الطبيعة من خلال حسابات مثلثية . مر بلحظات بهجة ولحظات كآبة، لكنه لم يسقط أبداً في مهووي الفرع واليأس . وقد بدلت هذه العزلة وهذا التواصل مع الأرض الجليدية الهائلة من مزاجه وروحه، وجعلته ميالاً إلى التأمل . فانغمس في المطالعة ودراسة التاريخ، مانحاً تفكيره بذلك بعداً جديداً . وكان حين يثقل الحب عليه، يكتب رسائل إلى ايرين بأسلوب صاف مثل المشهد الأبيض الذي يحيط به، لكنه لم يكن يستطيع ارسالها لأن وسيلة النقل الوحيدة هي السفينة التي ستأتي للتقاطهم بعد انقضاء السنة . وحين رجع أخيراً، كان اكثر نحولاً، تكاد بشرته أن تكون سوداء بفعل انعكاس الثلج، ويداه قاسيتان، ومجنوناً من الشوق . أحضر معه مئتين وتسعين رسالة في مغلفات مغلقة ومرقمة في تسلسل تاريخي دقيق، وضعها فوق ركبتي خطيبته التي وجدها ساهمة ومتقلبة، ومهمة بعملها الصحفي أكثر من اهتمامها

بتخفيف أشواقها الغرامية، وليس لديها أي ميل إلى قراءة ذلك الكيس من الرسائل المتأخرة. ومع ذلك فقد سافرا لبضعة أيام إلى شاطئ ناء، حيث عاشا عاطفة مندفعة وعوض الكابتين عن الزمن الضائع خلال شهور العفة الاضطرارية. كان هدفه من كل هذا الغياب الطويل هو جمع المال الكافي للزواج منها. فأتى وجوده في تلك الأصقاع المهجورة كان يكسب ستة أضعاف الراتب العادي لرتبته. لقد كان يرغب في ان يقدم لايرين بيتاً مستقلاً، واثاثاً حديثاً، وادوات منزلية كهربائية، وسيارة ومورداً مضموناً. ولم تكن هناك من جدوى في ابدائها عدم الاكتراث وافتراحها بعقد اتحاد طوعي بينهما بدلاً من الزواج، ليريا ان كانت الأمور التي تجمع بينهما اكبر من الاختلافات. لم تكن لديه نوايا في اجراء اختبارات قد تلحق الضرر بمكانته العسكرية، فالحياة الاسرية المستقرة ستكون عاملاً مهماً عند تقويمه لترفيعه إلى رتبة ميجر. ثم ان العزوبية في القوات المسلحة تصبح مثيرة للريبة بعد سن معينة. في أثناء ذلك، كانت بياتريس الكانتر، غير المكترثة بتردد ابنتها، تعد العدة للزفاف بحماس. فهي تجوب المحلات التجارية لاقتناص أطباق الخزف الانكليزية المزخرفة يدوياً برسوم عصافير، والشراشف الهولندية المطرزة، والملابس الداخلية الحريرية الفرنسية وأشياء اخرى فاخرة لجهاز عرس ابنتها الوحيدة. ومن سيكوي كل هذه الأشياء عندما أتزوج يا أماه؟ بهذا كانت ايرين تتذمروهي ترى المخرمات البلجيكية والحرائر اليابانية، والأقطان الايرلندية، والاصواف الاسكتلندية وأصناف المنسوجات الاخرى المجلوبة من مناطق نائية

لقد أمضى غوستافو خدمته كلها في حاميات في الأقاليم، لكنه كان يأتي إلى العاصمة للقاء ايرين كلما سنحت له الفرصة. ولم تكن هي تتصل بفرانثيسكو في هذه المناسبات حتى ولو كان لديها عمل مستعجل في المجلة. فقد كانت تضع مع خطيبها في عتمة صالات الرقص، أو يأخذان بيدي بعضهما بعضاً للذهاب الى المسرح أول للنزهة، أو لتبادل الحب في فنادق سرية، حيث يعوضان عن أشواقهما الطويلة. وكان هذا يؤثر على مزاج فرانثيسكو ويجعله متقلباً، فيحبس نفسه في

غرفته ليستمع إلى موسيقاه السيمفونية المفضلة ويتلذذ بحزانه . وفي أحد الأيام ، ودون أن يتمكن من منع نفسه عن الكلام ، اقتترف حماقة سؤال الفتاة الشابة عن حدرد علاقتها مع عريس المنية . فضحكت بكل حيويتها، وردت عليه نازعة منه نعمة الشك : لا تحسبني ما أزال عذراء بعد هذه السن . بعد ذلك بقليل ، أوفد غوستافو مورانتي إلى بنما لقضاء عدة شهور في مدرسة للضباط . وكان اتصاله بايرين يقتصر على رسائل عاطفية ملتفة ومكالمات هاتفية وهدايا يعثها في الطائرات العسكرية . ان شيخ هذا العاشق العنيد كان السبب في ان فرانثيسكو نام مع ايرين كأخ . وبقي يضرب جبهته بكفه كلما تذكر تلك الليلة ، مذهولاً لتصرفه ذلك .

ففي احدي المناسبات بقيا في مكاتب المجلة لانجاز تحقيق صحفي . كانت المادة الأولية جاهزة لديهما ويعملان على اعدادها للنشر في اليوم التالي . وطارت الساعات دون أن ينتبها إلى أن بقية الموظفين قد انصرفوا وأن الأضواء قد أطفئت في جميع المكاتب . خرجا لشراء زجاجة نبيذ وشيء يأكلانه . وبما انهما كانا يحبان العمل وهما يستمعان إلى الموسيقى ، فقد وضعوا موسيقى كونشيرتو في آلة التسجيل ، وبين أنغام النايات والكمانات مر الوقت دون ان يفطنا إلى النظر في الساعة . أنهما العمل في وقت متأخر جداً ، وعندئذ فقط وصل اليهما من خلال النافذة صمت الليل وظلمته . لم تكن هناك ادنى علامة من علائم الحياة ، وكانت المدينة تبدو كأنها مقفرة ومهجورة بسبب كارثة محت كل أثر بشري منها ، كما في قصص الخيال العلمي . حتى الهواء كان يبدو كثيباً وجامداً . حظر التجول ، همسا في ايقاع متطابق وهما يشعران بانها وقعا في المصيدة ، لأن التجول في الشوارع كان مستحيلاً في مثل هذا الوقت . حمد فرانثيسكو حسن طالعه الذي أتاح له البقاء معها مزيداً من الوقت . وفكرت ايرين بقلق أمها وروسا فهرعت الى الهاتف لتوضح لهما الوضع . وبعد أن شربا بقية النبيذ ، واستمعاً مرتين إلى الكونشيرتو وتحدثنا في ألف موضوع ، نال منها الارهاق ، فاقترحت ان يستريحاً على الأريكة . كان حمام الطابق الخامس في مبنى المجلة عبارة عن غرفة فسيحة ، فهي

تستخدم كمكان تستبدل فيه عارضات الأزياء ملابسهن ، وكصالة مكياج لوجود مرآة كبيرة فيها مضاءة بشكل جيد ، بل انها كانت تستخدم كبوفيه وذلك بفضل الموقد الصغير الذي يغلون عليه الماء . لقد كان الحمام هو المكان الخاص والحميمي الوحيد في المجلة . وفي أحد أركانه كانت توجد اركية منسية منذ أزمنة بعيدة . انها قطعة اثاث ضخمة ، مغطاة ببر وكار أحمر ، مليء بشقوق تبرز منها النوايض الصدئة التي لا تناسب وقارها المنتمي إلى أواخر القرن الماضي . كانوا يستخدمون تلك الأريكة في حالات الصداع ، ولبكاء آلام الحب وأحزان صغيرة اخرى ، أو بكل بساطة للراحة إذا ما ازدادت وتيرة العمل . وعليها أوشكت احدى السكرتيرات أن تنزف دمها بسبب حالة اجهاض مفاجئة ، وهناك باح مساعدا ماريو بعواطفهما لبعضهما ، وهناك بالذات فاجأهما هذا الأخير وقد خلعا سرواليهما وهما فوق السجادة الاسقفية حائلة اللون . على هذه الأريكة اضطجع فرانثيسكو وايرين مدثرين بمعطفيهما . لقد أغفت هي على الفور ، أما هو فبقي مستيقظاً حتى الصباح ، معذباً بانفعالات متناقضة . لم يكن يود المغامرة في علاقة ستزعزع دون شك ركائز حياته مع امرأة تجذ نفسها في الجانب الآخر من السور . كان يشعر بميل جامح نحوها ، ففي حضورها تنهيج جميع حواسه وتمتلىء روحه بالسعادة . ان ايرين تسعده وتفتنه ، فوراء مظهرها المتقلب وغير الواعي ، بل والساذج ، كان يوجد جوهر لا تشوبه شائبة ، مثل فاكهة تنتظر موسم نضجها . ففكر كذلك بغوستافو مورانتي وبدوره في قدر ايرين . وخشي أن تصده الشابة ولم يشأ المجازفة بصداقتها . فالكلمات التي تقال لا يمكن محوها بعد النطق بها . وعندما كان يتذكر فيما بعد مشاعره في تلك الليلة التي لا تُنسى ، وصل إلى نتيجة مؤداها انه لم يتجرأ على الافصاح عن حبه لأن ايرين لم تكن تشاركه قلقه . لقد نامت بهدوء بين ذراعيه ولم يدر في خلدتها انها قد أثرت في فرانثيسكو تأثيراً عميقاً . كانت تعيش صداقتها بنداوة ، دون أي بادرة تشير إلى ميول غرامية ، وفضل هو ألا يُكرهها وان ينتظر إلى أن يملأها الحب شيئاً فشيئاً ، مثلما حدث له . كان يحس بها منكمشة على الأريكة ، تتنفس بهدوء في نومها ، وشعرها الطويل يغطي وجهها وكتفيها مثل

زخرقة قائمة، بقي جامداً يراقب حتى الهواء الذي يستنشقه كي يخفي عنها هيجانه النابض الرهيب. كان يأسف من جهة لأنه ارتضى بعهد الأخوة المضمهر الذي يكبل يديه منذ شهور، ويود الانقراض بيأس لغزو جسدها، ولكنه يعترف من جهة أخرى بضرورة الوصول إلى عاطفة قادرة على اقضائه عن الرغبات التي تتحكم بهذه المرحلة من حياته. بقي إلى جوارها، متشجعاً بالتوتر والقلق، لكنه مستعد في الوقت ذاته لاطالة هذه اللحظة إلى الأبد، حتى سمع أول جلبة الشارع ورأى ضوء الفجر من النافذة. استيقظت إيرين مبهوتة ولم تتذكر لأول وهلة أين هي، لكنها مالبت ان نهضت ومسحت وجهها بالماء البارد وخرجت مسرعة إلى بيتها، تاركة فرانيسكو منسياً في يتمه. منذ ذلك اليوم روت لكل من يود السماع انها ناما معاً، وهذا - حسب رأي فرانيسكو - لم يكن صحيحاً للأسف بالمعنى المجازي للتعبير.



انشق فجر يوم الأحد عن سماء مفعمة بالضوء وعن هواء حار وثقيل، فبدأ وكأنه يوم متقدم من الصيف. في ذلك اليوم، أدركت إيرين ان اساليب العنف لم تحرز تطوراً يذكر، فلقتل خنزير ما زال يستخدم الاسلوب ذاته الذي كان شائعاً منذ الأزمنة البربرية. لقد اعتبرت إيرين الأمر احتفالاً طريفاً، لأنها لم تكن قد رأت من قبل عملية ذبح دجاجة، وبالكاد كانت تعرف الخنازير في حالتها الطبيعية. ذهبت وهي مستعدة لاجراء تحقيق صحفي للمجلة، وكانت متحمسة لمشروعها، حتى انها لم تذكر ايفانخيلينا ونوباتها الصاخبة، وبدت كأنها قد نسيتها. أحس فرانيسكو لدى مروره في المكان انه يجتاز موقعاً غير معروف، فقد انفلت الربيع خلال هذا الاسبوع من عقاله، مرسخاً خضرة الحقول، ومزهراً أشجار الأرومو، تلك الأشجار الأخاذة التي تبدو من بعيد وكأنها مكسوة بالنحل، ويبعث الاقتراب منها على الدوار بسبب الشذى المستحيل الذي يفوح من عناقيدها الصفراء، وكانت الأشواك ونباتات العليق قد تحولت إلى مسكن

للعصافير فيما الهواء يتذبذب مع طنين الحشرات . حين وصلا الى بيت آل رانكيليو كان العمل قد بدأ لتوه، وكان أصحاب البيت والمدعوون يتحركون بنشاط حول موقد في الفناء، والأطفال يركضون صارخين ومرحين وسط الدخان الذي يلوح بشرتهم، أما الكلاب فكانت ترصد بصبر وسعادة إلى جوار القدور، موقنة انها ستنال فضلات الحفلة : استقبل آل رانكيليو الضيفين باحترام، لكن ايرين لمحت في الحال نفحة حزن في وجوههم . فوراء المظهر الحميم المرحب، أحست بوجود الأسى، انها لم يتح لها الوقت للتقصي عن السبب أو لمناقشة الأمر مع فرانيسكو، لأنهم جاؤوا بالخنزير في هذه اللحظة وهم يجرونه جراً . كان حيواناً ضخماً رُبي من أجل استهلاك الاسرة، بينما بيعت جميع الخنازير الاخرى في السوق . فقد انتقاه خبير بعد أيام من ولادته، مدخلاً يده في حلقه ليتأكد من خلوه من البشور، وليضمن جودة لحمه . وغُذي طوال شهور بالحبوب والخضار، خلافاً للخنازير الأخرى التي تغذى بالفضلات . وغُزل عن رفاقه، وبقي حبيساً لا يسمح له بالحركة في انتظار مصيره، بينما شحمه يتكاثر وقوائمه الطرية تنمو . لقد مشى الحيوان في هذا اليوم لأول مرة مجتازاً المتي متر التي تفصل حظيرته عن مذبج تضحيته، متسائلاً فوق قوائمه القصيرة التي لا خلاص لها، وقد بهر الضوء، وأصمه الذعر . حين رآته ايرين لم تستطع ان تتصور كيف سيحملون الموت إلى كتلة اللحم الضخمة تلك التي يزيد وزنها عن وزن ثلاثة رجال أقوياء .

كانوا قد وضعوا قريباً من النار بضعة ألواح خشبية فوق براميل ليصنعوا منها طاولة . وعند وصول الضحية، اقترب منه هيبوليتور انكيليو رافعاً فأساً ووجه ضربة قوية بمؤخرة الاداة إلى جبهته . سقط الخنزير على الأرض مترنحاً، لكنه لم يرغب عن السوعي تماماً، لأن قباعه الحاد كان يعلو ليتلاشى صداه في الجبال، حاملاً الرعشة إلى شفاة الكلاب التي كانت تلهث متحرقة، قيده عدد من الرجال ورفعوه بمشقة فوق الطاولة . عندئذ بدأ عمل الخبير، وهو رجل يحمل معه منذ ولادته موهبة القدرة على القتل، هذه القدرة الغريبة التي لا تكاد تظهر بين النساء . كان الخبير قادراً على اصابة القلب بضربة واحدة حتى وهو مغمض

العينين، لأن ما يقوده ليس المعرفة التشريحية، وإنما غريزة الجلال. لقد جاء من مكان بعيد لاداء مهمة قتل الحيوان، ودعي خصيصاً لذلك، لأنه إذا لم تتم عملية القتل بمهارة، فقد تحطم صرخات احتضار الحيوان أعصاب جميع سكان المنطقة. تناول الرجل مدية هائلة ذات مقبض عظمي ونصل فولاذي حاد، أمسكها بكلتا يديه مثل كاهن ازتيكي وغرسها في الرقبة، موجأ إياها دون تردد إلى مركز الحياة. جأر الخنزير بيأس وانبجست من الجرح دفقة من الدم الحار ملطخة من كانوا قرييين، ومشكلة بقعة على الأرض سارعت الكلاب إلى لعقها. قريت ديغنا سطلاً لجمع الدم فيه، فامتلاً في الحال، وطففت في الهواء رائحة حلوة هي مزيج من الدم والذعر.

في هذه اللحظة انتبه فرانثيسكو إلى ان ايرين ليست إلى جانبه، وحين بحث عنها بعينه وجدها خامدة على الأرض. رآها الآخرون كذلك، وانطلقت جوقة من القهقهات احتفاء بالاغماء الذي أصابها. انحنى فرانثيسكو فوقها وهزها ليجيرها على فتح عينيها. وحين تمكنت من الكلام، قالت بمشقة: اريد الذهاب من هنا. لكن صديقها أصر على البقاء حتى النهاية. فقد حضرا من أجل هذا. نصحتها بان تتعلم التحكم بأعصابها أو أن تستبدل مهنتها، فحالة فقدان التماسك هذه قد تتحول إلى عادة دائمة، وذكرها بالبيت المسكون بالأرواح حيث كان صرير الباب كافياً لجعلها تنهار ممتعة بين ذراعيه. وكان ما يزال يسخر من ايرين حين خمدت انفاس الحيوان، وعندما تأكدت من أنه قد مات تماماً، تمكنت من النهوض على قدميها.

لكن العملية تواصلت. صبوا ماء يغلي على جثة الحيوان وكشطوا الوبر بأداة حديدية، حتى صار جلده يلمع، وبدا وردياً ونظيفاً مثل بشرة طفل حديث الولادة. بعد ذلك شقوا بطنه وشرعوا في سحب أحشائه وتقطيع شحمه أمام عيون الأطفال المأخوذين والكلاب الملطخة بالدم. غسلت النسوة أمتاراً وأمتاراً من الأمعاء في الساقية، ثم حشونها ليصنعن منها السجق. ومن المرق الذي وضعت لتغلي فيه، ملأوا فنجاناً لتنشيط ايرين، ترددت الشابة أمام حساء مصاصي الدماء

ذاك، الذي كانت تطفو في خثارات قائمة. لكنها شربته كيلا تسبب استياء مضيفيها، فوجدته لذيذاً وذا خصائص علاجية مضمونة، لأنها ما لبثت ان استعادت بعد بضع دقائق انتعاشها وتورد وجنتيها. أمضيا بقية النهار وهما يلتقطان الصور، ويأكلان ويشربان النبيذ من دجاجة كبيرة، فيما كان المضيفون يذيون الدهن في علب صفيحية. كان الشحم يطفوا مترنحاً في المرق، فيخرجونه بمصاف كبيرة ويقدمونه مع الخبز. طبخوا كذلك الكبد والقلب وقدموهما لضيوفهم. وعند الأصيل كان النعاس يغالب الجميع: الرجال بفعل الخمر، والنساء بسبب التعب، والأطفال بسبب النعاس والكلاب لأنها اتحمت للمرة الأولى في حياتها. عندئذ تذكر فرانتيسكو وايرين انها لم يريا ايفانخيلينا طوال اليوم. فسأل ديغنا رانكيليو:

- أين ايفانخيلينا؟

فأطرقت ولم تجب. فألحت ايرين حين أدركت أن شيئاً قد حدث، وسألت:

- واينك، الشرطي، ما اسمه.

فردت الأم والفنجان يرتعش في يدها:

- براديليو دل كارمن رانكيليو.

أمسكتها ايرين من ذراعها وقادتها برقة إلى ركن منعزل في الفناء، كانت العتمة قد اكتنفته في تلك الساعة. أراد فرانتيسكو اللحاق بهما، لكنها أوقفته بايماءة من يدها، واثقة من انها حين تنفرد بديغنا ستتاح لها فرصة الوصول إلى حالة من التآلف الانثوي. جلستا وجهاً لوجه على كرسيين من القش. وعلى ضوء الشفق الخافت رأت ديغنا رانكيليو الوجه الشاحب الذي تلتهمه عينان غريبتان مرسومتان بقلم أسود، والشعر المشعث بفعل الهواء، وتلك الملابس المستخرجة من أزمنة اخرى والحرز الصاخب في المعصمين. وعلمت انه رغم الهوة الظاهرية التي تفصل بينهما، يمكنها أن تروي لها الحقيقة، لأنها من حيث الجوهر شقيقتان، كما هن جميع النساء في نهاية المطاف.

ليلة الأحد الماضي ، وفيما كان جميع من في البيت نائمين ، رجع الملازم
خوان دي ديوس راميرث ومعاونه ، ذاك الذي أتلّف أفلام فرانثيسكو.
وأوضحت ديغنا لايرين .

- معاونه هو الرقيب ماوستينوريفيرا ، ابن اشيبني مانويل ريفيرا ، ذي الشفة
المشرومة .

بقي ريفيرا عند الباب مسيطراً على الكلاب ، فيما دخل الملازم الى حجرة
النوم وهو يركل الاثاث ويطلق التهديدات والسلاح في يده . أوقف أفراد الأسرة ،
الذين لم يصحوا تماماً بعد ، إلى الجدار ، وسحب ايفانخيلينا إلى سيارة الجيب .
كان آخر ما رآه أبواها منها هو بريق قميص نومها الأبيض يهتز في الظلام ، حين
اجبرها العسكريان على الصعود إلى السيارة . وسمعا صرخاتها لهنيهة وهي
تناديهما . انتظرا حتى الفجر قلقين ، وما أن سمعا صياح الديكة حتى ركبا إلى
الثكنة . استقبلهما هناك العريف المناوب بعد ان انتظرا طويلاً ، وأخبرهما ان ابنتهما
قد أمضت الليل في زنزانه ، ولكن تم الافراج عنها منذ الصباح الباكر . وسألا عن
براديليو ، فقيل لهما انه قد نُقل إلى منطقة اخرى .
قالت الأم :

- منذ ذلك الحين ونحن لانعرف شيئاً عن البنية وليست لدينا أية أخبار عن
براديليو .

بحثا عن ايفانخيلينا في القرية ، وطافا على بيوت فلاحي المنطقة بيتاً بيتاً ،
وأوقفوا السيارات العابرة على الطريق العام ليسألا سائقها ان كانوا قد رأوها ،
واستجوبوا الراعي البر وتستاني ، والكاهن الكاثوليكي ، والمداوي ، والقابلة وكل
من وجداه في طريقهما ، ولكن أحداً لم يقدم لهما بارقة من الأمل . مضيا في كل
اتجاه ، من النهروحتى قمة الجبال دون أن يعثرا لها على أثر ، لقد ذرت الريح
اسمها في شقوق الصخر والدروب ، وبعد خمسة أيام من البحث غير المجدي
أدركا أن العنف قد ابتلعها ، فارتدت ديغنا ملابس الحداد وذهبت إلى بيت آل
فلوريس لتروي لهم عن الفاجعة الجديدة . ذهبت خجلة لأن ايفانخيلينا لم تعرف

في بيتها إلا التعاسة، ولأنه كان من الخير لها أن تعيش في بيت أمها الحقيقية .
وردت عليها السيدة فلوريس :

- لا تقولي مثل هذا الكلام يا اشيبنتي . ألا ترين أن الرزايا لا تحطىء
أحداً؟ تذكرني انني فقدت زوجي وأولادي الأربعة منذ سنوات ، لقد أخذوهم ،
انتزعوهم مني ، مثلما فعلوا بايفانجيلينا . انه قدرها يا اشيبنتي . ليس الذنب ذنبك
وانما ذنبي أنا، لأنني أحمل النحاس في دمي .

استمعت ايفانجيلينا فلوريس المتوردة والمعافاة، ذات الخمسة عشر عاماً
إلى المرأتين وهي واقفة وراء كرسي أمها بالتبني . كانت لها ملامح ديغنا رانكيليو
المتينة والسمرء ، ويداها الممتلئتان وإليتاها الكبيرتان، لكنها لم تكن تحس انها ابنة
هذه المرأة، لأن ذراعي الأخرى هما اللذان احتضناها في طفولتها وئديها هما
اللذان أرضعاهما . ومع ذلك، ولسبب ما، شعرت بان المفقودة هي أكثر من أخت
بالنسبة إليها، بل شعرت بأنها هي ذاتها المستبدلة، وانها حياتها التي عاشتها
الأخرى، وأحست أن موتها سيكون هو موت ايفانجيلينا رانكيليو . وربما في لحظة
الصفاء هذه، اختارت ايفانجيلينا فلوريس المهمة التي ستحملها فيما بعد لتجوب
العالم مطالبة بالعدالة .

أفضت ديغنا بكل هذا لتتقاسمه مع ايرين، وحين انتهت من الحديث
كانت آخر شرارات الموقد تنطفئ وكان الليل يهيمن على الأفق . انه موعد
الرحيل . وعدتها ايرين بيلتران بان تبحث عن ابنتها في العاصمة وأعطتها عنوان
بيتها، لتتصل بها إذا ما حصلت على أخبار جديدة . وتعانقتا مودعتين بعضهما .
في هذه الليلة بالذات لاحظ فرانثيسكو شيئاً مختلفاً في عين الشابة، ولم يجد
الفرح والذهول المعتادين . لقد أصبحت حدقتا عينيها قاتميتين وحزيتين، مثل
أوراق اليوكالبتوس الجافة . فأدرك حينئذ أنها قد بدأت تفقد براءتها وانه لم يعد
هناك ما يحول دون اطلاعها على الحقيقة .



جاب الصديقان الاماكن المعهودة يسألان عن ايفانخيلينا رانكيليو، يدفعهما الاصرار اكثر من الأمل . لم يكونا الوحيدين في هذه المساعي . ففي مراكز الاعتقال، وفي مواقع الشرطة، وفي الجناح المحظور من مشفى الطب النفسي الذي لا يرسلون إليه سوى من أوصلهم التعذيب إلى حالة لا شفاء منها، يدخلونهم هناك بمقصان المجاذيب ويضعونهم تحت اشراف أطباء من الفروع الأمنية، كان يرافق ايرين بيلتران وفرانثيسكو ليال كثيرون ممن يعرفون خيراً منها درب الجلجلة ويقودونها فيه . وهناك، كما في كل مكان يتفاهم فيه الألم، كان التضامن الانساني حاضراً مثل بلسم يساعد على تجاوز التعاسة .

سألت ايرين امرأة تقف معها في الصف :

- وعمن تبحثين أنت يا سيدتي؟

- لا أحد يا بنتي . أمضيت ثلاث سنوات في اقتفاء آثار زوجي، لكنني

أعرف الآن انه يرقد بسلام .

- لماذا تأتين إذن؟

فردت وهي تشير إلى امرأة اخرى :

- لأساعد احدي صديقاتي .

لقد تعارفتا منذ سنوات وجابتنا معاً جميع الأماكن المحتملة تطرقان الأبواب، وتتوسلان الموظفين، وترشوان الجنود . احدهما كانت محظوظة وعلمت على الأقل ان زوجها لم يعد بحاجة لها . لكن الأخرى واصلت طوافها . كيف اتركها وحيدة؟ ثم انها اعتادت على الانتظار والمذلة، هكذا قالت، فكل حياتها صارت تدور حول مواعيد الزيارة والأنظمة، وأصبحت تعرف أساليب الاتصال بالمعتقلين والحصول على معلومات عنهم .

- ايفانخيلينا رانكيليو سانتشيث، خمسة عشر عاماً، اعتقلت للاستجواب في

لوس ريسكوس ثم اختفى اثرها .

- لا حاجة بكم لمزيد من البحث عنها، فلا بد أن أيديهم قد تجاوزت الحد

معها .

- اذهبوا إلى وزارة الدفاع ، فهناك توجد قوائم جديدة .
- ارجعوا الأسبوع القادم في مثل هذا الوقت .
- من الخامسة يجري استبدال الحرس ، اسألوا عن انطونيو، انه شخص طيب وقد يساعدكم .
- من الأفضل أن تبدأوا البحث في مستودع الجثث ، وبهذا لا تضيعون وقتكم دون جدوى .

كانت لدى خوسيه ليال خبرة في هذه الأمور، فقد استنفد جزءاً كبيراً من طاقته في مثل هذه النشاطات . استخدم اتصالاته ككاهن لتمكينهما من الدخول حيث لم يكن بإمكانهما الدخول بمفردهما . رافقهما إلى مستودع الجثث ، وهو عبارة عن بناء رمادي عتيق يبدو وكأنه مهجور ونذير شؤم ، بناء ملائم تماماً كبيت للموتى . اليه ينتهي مصير المعدمين ، والجثث مجهولة الهوية في المستشفيات ، وصرعى مشاجرات السكارى أو من يُقتلون دون ذنب ارتكبهوه ، وضحايا حوادث المرور . وفي السنوات الأخيرة صار ينقل الى هناك رجالاً ونساء مبتوري الأصابع ، ومقيدين بأسلاك ومحروقي الوجوه بمواقد لحام أو مشوهين بالضرب ، مما يجعل التعرف عليهم مستحيلاً ، ويجعل مصيرهم النهائي قبراً بلا اسم في الفناء رقم ٢٩ من المقبرة العامة . كان الدخول إلى هناك يستوجب الحصول على تصريح من القيادة ، لكن خوسيه كان يتردد على المكان بكثرة حتى صار الموظفون يعرفونه . فعمله في مقر النائب الرسولي هو التقصي عن آثار المفقودين . فبينما كان المحامون المتطوعون يحاولون دون نجاح التوصل إلى وسيلة قانونية لحماية المخطوفين في حال وجودهم على قيد الحياة ، كان خوسيه وكهنة آخرون ينجزون الاجراء البير وقراطي الفظيخ بالتنقل بين الموتى حاملين صورهم في أيديهم للتعرف على شخصياتهم ، ونادراً ما كان الكهنة يتمكنون من اخراج أحدهم وبه رمق من الحياة ، لكنهم كانوا يثقون من ان المعونة الإلهية ستمكنهم من تسليمه إلى ذويه جثة هامة ليدفنوه .

رجا فرانثيسكو ايرين أن تبقى خارجاً ، بعد ان نبهه أخوه إلى ما سير يانه في

مستودع الجثث، لكنه وجد فيها اصراراً جديداً، ولدته رغبته في معرفة الحقيقة، دفعها إلى اجتياز عتبة الباب. كان فرانثيسكورجلاً صلباً أمام الرعب وذلك لممارسته العملية في المشافي والمصححات العقلية، ولكنه أحس بالاضطراب لدى خروجه من هذا المكان، وبقي كذلك لزمناً طويلاً؛ وهكذا عرف أيضاً ما شعرت به صديقتة. لم تكن حجرات التبريد كافية لكل تلك الأجساد، وحيث ان الطاولات ما كانت تتسع لها جميعاً، فقد راكموها في مستودعات كانت مخصصة فيها مضى لاستخدامات أخرى. كانت رائحة الجومشعبة بالفورمول والرطوبة، وكانت الصالات الفسيحة القذرة، ذات الجدران الملوثة، غارقة في الظلام. ولم يكن هناك سوى مصابيح قليلة تضيء الممرات والمكاتب العتيقة والمستودعات الواسعة. كان اليأس يجيم على المكان، ويبدو أن من يقضون يوم عملهم هناك كانوا مصابين بعدوى عدم المبالاة، وكانت قدرتهم على الحزن مستنفدة. فكل منهم يؤدي عمله مقلباً الموت كما لو كان بضاعة تافهة، متعاشياً معه بشكل وثيق يجعله ينسى الحياة. رأيا هناك موظفين يمضغون طعامهم فوق طاولات التشريح، وآخرين يستمعون إلى برامج رياضية من المذياع غير مكترئين بالجثث المنتفخة، أو يلعبون الورق في مستودعات القبو حيث تحفظ جثث ذلك اليوم.

فتشا الحجرات واحدة واحدة، متوقفين بشكل خاص عند جثث النساء، وكن عاريات وقليلات العدد. أحس فرانثيسكوبفمه يمتلىء باللعباب، ويبدأ ايرين ترتعش في يده، بينما كانت الشابة الشاحبة تنسل صامتة ومتجمدة، وجاحظة العينين، كأنها في كابوس بلا نهاية. كانت منفصلة لدرجة أنها لم تشعر بأنها تطفو في ضباب متنن. لم تستطع فهم هذه الرؤيا الجهنمية، بل ولم يستطع خيالها الملجوم ادراك أبعاد ذلك الرعب.

لم يكن فرانثيسكو من النوع الذي يتراجع في مواجهة العنف، فهو يشكل حلقة من تلك السلسلة البشرية الطويلة التي تتحرك في السرية وتعرف ما وراء كواليس الدكتاتورية. ولم يكن هناك من يرتاب بنشاطه في تهريب المطلوبين، والرسائل، والمال الذي يأتي من مصادر غامضة، وقوائم الأسماء، والمعلومات

والأدلة المتجمعة لارسالها إلى الخارج كي تكون جاهزة إذا ما قرر أحدهم يوماً كتابة القصة. لكن القمع لم يكن قد مسه حتى ذلك الحين، كان يتمكن من الإفلات منزلقاً وسط الخطر، وعلى شفير الهاوية دوماً. مرة واحدة فقط، وبالمصادفة، قذفوا القفاز في وجهه وجزوا شعر رأسه. فلدى عودته من عيادته، في الفترة التي كان ما يزال يمارس فيها مهنته كطبيب نفسي، التقى بدورية توقف المارين. ظن أول الأمر أنها عملية تفتيش روتينية، فأخرج لهم وثائقه، لكن يدين كالمخالب انزلته عن الدراجة النارية وانغرست فوهة بندقية في صدره.

- انزل يا مخنث!

لم يكن وحيداً في ذلك الموقف العصيب. كان هناك صبيان في سن تلاميذ المدارس يجشون على الأرض، وأجبروه على الركوع إلى جانبها. سدد إليه جنديان سلاحهما وأمسك ثالث بشعره الطويل وراح يجزه. على الرغم من مرور سنوات على ذلك الحادث إلا أنه غير قادر على تذكره دون أن يصاب بتشنج من العجز والمذلة، مع أنه أدرك مع مرور الوقت أنه حادث لا أهمية له على الإطلاق بالمقارنة مع وقائع أخرى. حاول يومها التحدث إلى الجنود بعقلانية، لكنه لم ينل لقاء ذلك سوى ضربة بعقب بندقية على ظهره وعدة جراح في جلدة رأسه. رجع في تلك الليلة إلى بيته وهو يتميز غضباً، ويعاني حالة من الذل لم يشعر بمثلها من قبل.

بكت أمه:

- لقد حذرتك من أنهم يقصون الشعور الطويلة يا بني.

- عليك منذ هذه اللحظة يا فرانثيسكو أن تترك شعرك يطول من جديد، لأنه لا بد من المعارضة بكل الأساليب الممكنة. - هكذا تتمم والده بغضب، ناسياً رفضه للشعر الطويل لدى الرجال. وفعل فرانثيسكو ذلك، واثقاً من أنهم سيعودون إلى جز شعره، لكن أمراً معاكساً ترك ذوي الشعور الطويلة بسلام.

كانت إيرين بيلتران تعيش حتى ذلك الحين محمية بجهل ملائكي، ولم يكن الأمر نتيجة تهاون أو بلاهة، وإنما لأن معايير وسطها كانت كذلك. فأمها

وأخرون كثيرون من طبقتها الاجتماعية، يلوذون بعالم الحي الراقي المنتظم والهادىء، وبمنتجعات الاستجمام الخاصة، وملاعب التزلج، والاصيف الريفية. وقد ربوها على جهل البديهيّات غير المواتية وانكارها، أو تفسيرها كظواهر خاطئة. لقد رأت في احدى المرات سيارة تتوقف فجأة وتخرج منها مجموعة رجال يقذفون بأنفسهم على أحد المارة ويدخلونه إلى السيارة بالقوة؛ وشمّت من بعيد دخان حرائق الكتب المحظورة، ولمحت أشياء لها شكل الأجساد البشرية تطفو في مياه القناة العكرة. وكانت تسمع في بعض الليالي صوت مرور الدوريات العسكرية وازينز طائرات الهليكوبتر في السماء. وقد انحنت يوماً لتسعف شخصاً سقط مغمى عليه من الجوع في الشارع. كانت رياح العنف تدوم من حولها دون ان تصل إلى لفها وملاستها وهي محمية بالسور العالي الذي ربوها وراءه، لكن حساسيتها رغم ذلك كانت مهيأة، وحين قررت الدخول الى مستودع الجثث كانت تخطو خطوة ستؤثر على وجودها كله. لم تكن قد رأت في حياتها من قبل ميتاً عن قرب حتى هذا اليوم الذي رأت فيه من الموتى ما يكفي لملء أسوأ أحلامها. توقفت أمام قبو فسيح مبرد لتأمل جثة شابة ذات شعر أشقر معلقة بخطاف مع اخريين. كانت تشبه ايفانجيلينا رانكيليو من بعيد، ولكنها لم تستطع التعرف اليها لدى الاقتراب منها. ورأت وهي ترتعد آثاراً عميقة على جسدها، وحروراً في وجهها، كما رأت ان يديها مبتورتان.

- ليست ايفانجيلينا، لا تنظري اليها. - رجا فرانيسكو صديقته وأبعدها وهو يحتضنها، وقادها إلى الباب وقد أصابه من الوجوم مثل ما أصابها.



رغم ان الجولة في مستودع الجثث لم تدم سوى نصف ساعة، إلا أن ايرين بيلتران لم تعد هي نفسها بعد الخروج من هناك، إذ انكسر شيء في روحها. أحس فرانيسكو بذلك قبل ان يسمع كلمة واحدة منها، فبحث بجزع عن طريقة

لتقديم السلوى اليها . دعاها للركوب على الدراجة النارية وتوجه بأقصى سرعة نحو الجبل .

كثيراً ما كانا يذهبان معاً لتناول وجبة خفيفة في هذا المكان . فالغداء الخلوي في الجبل وضع حداً لجدلهما عند دفع الحساب في المطعم وصارا يستمتعان بالهواء الطلق في هذا المنتزه الجميل . كانت الشابة تحشى ان تفقد الكلبة سلامة غريزتها وتصاب بالبله لطول معاشرتها المسنين وتسكعها في عمرات مأوى العجزة ، ولهذا كانت ترى انه لا بأس في حملها إلى هناك لتركض على هواها قليلاً . قامت الكلبة المسكينة بالرحلة في الممرات الأولى وهي ترتعد ، مستكينة على الدراجة النارية بين الاثني وقد تهدلت اذناها وملأ الفزع عينها . ولكنها مع مرور الوقت صارت تحب تلك الرحلات وأصبحت جلبة أي دراجة نارية تبعث فيها فرحاً جنونياً . لم تكن كلبة من سلالة نبيلة ، فهي ملطخة بعدة ألوان ، ورثتها من طيش اسلافها البناديق واختلاطهم ، لكنها كانت مرتبطة بسيدتها بولاء وقور . كانوا ثلاثتهم يبدون فوق الدراجة النارية وكأنهم مشهد مسل من مشاهد الكرنفال : ايرين بفساتينها الفضفاضة وشالاتها وكشاكشها وشعرها الطويل المفلت للريح ، والكلبة في الوسط ، وفرانيسكو الذي يحافظ على توازن سلة الطعام وهو يقود الدراجة .

كان الدخول سهلاً إلى تلك الحديقة الطبيعية الهائلة ، المغروسة في وسط المدينة ، لكن اناساً قليلين كانوا يرتادونها ، وكان هناك كثير من لا علم لهم بوجودها . كان فرانيسكو يشعر انه سيد المكان ، فيستخدمه كلما رغب في تصوير المناظر الطبيعية : تلال بديعة متعطشة للصيف ، وأقنية ذهبية ، وأشجار بلوط برية تعشش فيها السناجب في الخريف ، وصمت أغصان جرداء مطبق في الشتاء . وأما في الربيع ، فتستيقظ الحديقة نابضة ومشعة بألف لون من الخضرة المتنوعة ، وبعناقيد من الحشرات بين الزهور ، وبكل جداولها الحصوية ، وجذورها المتشوقة ونسغها الذي يروي أوردة الطبيعة الخفيفة . كانا يجتازان جسراً فوق الساقية ويبداً أن الصعود في طريق متعرج تحيط به جنائن مزروعة بأصناف غريبة . وكلما

أوغلا في الصعود تشابكت الأشجار أكثر وامتحت الدور وبدأت تظهر أشجار الحور
الناعمة وهي تمتلىء بأوراق السنة، وأشجار الصنوبر دائمة الخضرة،
واليوكالبتوس النخيلة السامقة، وأشجار الزان الحمراء. كان حر الظهيرة يبحر
ندى الصباح فيغمر الأرض ضباب خفيف يحجب المشهد. وعند القمة ينتابها
احساس بانها الوحيدان اللذان يسكنان هذا المكان المسحور. كانا يعرفان أركاناً
خفية هناك، ويتقنان اختيار الأماكن يتأملان منها المدينة الرابضة تحت أقدامها.
وفي بعض الأحيان، عندما تشتد كثافة الضباب في الأسفل، وتضيق قاعدة الجبل
في زبد ثابت، يستطيعان ان يتخيلا انهما في جزيرة محاطة بالطحين. أما في الأيام
المشرقة فانهما يتأملان شريط حركة المرور الفضي المتصل، وتصلها ضجته مثل
دوي سيل بعيد. وفي بعض الأماكن كانت الأوراق وارقة وشديدة التشابك، وكان
الشذى النباتي كثيفاً إلى حد اصابتها بنوع من النشوة المشوشة. كلاهما كان يخفي
أمر هذه الهروب إلى الجبل كسر ثمين. وكانا يمتنعان عن الحديث عنها دون أي
اتفاق مسبق بينهما ليحتفظا بحميميتها.

لدى خروجهما من مستودع الجثث، فكر فرانثيسكو ان خضرة الغابة
الكثيفة، ورطوبة الأرض وشذى الدُّبال هي وحدها القادرة على بعث العزاء في
نفس رفيقته وجعلها تنسى اولئك الموتى. قادها إلى القمة ويبحث عن ركن منعزل
وظليل. جلسا تحت صفصافة، قريباً من الساقية التي تنحدر متوازية بين الحجارة.
كانت فروع الشجرة الصغيرة تسقط حولها مكونة خصاً من الأغصان. بقيا
صامتين وهما يستندان إلى الجذع ذي العقدة، دون أن يلمس أحدهما الآخر،
لكنهما كانا قريبين في انفعالاتهما حتى لبيدوان وكأنهما يسكنان بطناً واحداً. كانا
مشبعين بالفاجعة، وكان كل منهما غارق في أفكاره، يشعر بالسلى في قرب الآخر
منه. وأعادهما مرور الساعات، ونسيم الجنوب، وخرير الماء، وزقزقة العصفير
الصفراء وشذى الأرض إلى الاحساس بالواقع شيئاً فشيئاً. وأخيراً قالت إيرين:
- علينا أن نرجع إلى المجلة.

- يجب أن نرجع.

لكنهما لم يتحركا . التفتت هي بعض الأعشاب ورفعتها إلى فمها ،
ومضغتها لتمتص رحيقها ، ثم التفتت لتنظر إلى صديقها ، فغاص هو في
حدقتها الضبايتين . وبلا تفكير ، جذبها فرانثيسكو اليه وبحث عن فمها . كانت
قبلة عفيفة ، فاترة ، وقصيرة ، ولكن كان لها رغم ذلك أثرهزة أرضية على
حواسهما . أحس كل منهما ببشرة الآخر التي لم يعرفها من قبل بهذه الدقة وعن هذا
القرب ، وبضغط أيديها وحميمية ملمسها المشتاق منذ بدء العصور . اعتراهما دفء
نابض في العظام ، في الشرايين ، في الروح ؛ شيء ما كانا يعرفانه أو انهما نسياه
تماماً ، لأن ذاكرة اللحم هشة . اختفى كل شيء من حولهما ولم يعيا سوى وجود
شفاهها الملتحمة وهي تأخذ وتعطي . الحقيقة أنها لم تكذب تكون قبلة ، كانت إيحاء
تواصل منتظر ومرغوب ، ولكنهما كانا واثقين من أن هذه القبلة هي الوحيدة التي
يستطيعان أن يتذكراها حتى آخر أيامهما ، وانها الوحيدة التي ستترك ، بين جميع
المداعبات ، أثراً لا يمحي في أشواقهما . أدركا انهما سيتذكرا ن بدقة ، ولسنوات
طويلة ، تلك الملامسة الرطبة والدمسة بين شفاههما ، ورائحة العشب الطازج
وأحاسيس القلق في رويحها . لقد دامت تلك القبلة ما تدومه تنهيدة . وحين فتح
فرانثيسكو عينيه ، كانت الشابة تقف مطلة على الهاوية وذراعاها متقاطعان على
صدرها . كلاهما كان يتنفس تنفساً هائجاً ومتقدماً ، وكلاهما كان غارقاً في مكانه
وزمانه الخاصين . لم يتحرك فرانثيسكو من مكانه ، متأثراً بعاطفة جديدة ومطلقة
نحو هذه المرأة التي ارتبطت بمصيره إلى الأبد . بدا له انه سمع نحيباً خافتاً وأدرك
الصراع الدائر في قلب ايرين : حب ، اخلاص ، شكوك . تردد بين رغبته في
احتضانها وخشيته من ممارسة الضغط على نواياها . وانقضت لحظات من الصمت
وهما على هذا الحال . ثم التفتت ايرين ، واقتربت ببطء لتجتو إلى جانبه . أحاط
خصرها وشم عطر بلوزتها وإيحاءات جسدها العميقة .

- لقد انتظرتني غوستافو طوال حياته . وسأ تزوج منه .

فهمس فرانثيسكو:

- لا أعتقد .

خفت حدة توترهما شيئاً فشيئاً، وأمسكت هي برأس صديقها القاتم بين يديها وتأملته . ابتسما متخففين، سعيدين، مرتعشين، وواثقين من انهما لن يحاولا الاقدام على مغامرة عابرة لأنهما خلقتا ليتقاسما الحياة كلها وليعرفا معاً جسارة تبادل الحب إلى الأبد.

كان المساء يذوي وخضرة الحديقة تتحول إلى القتامة . انها ساعة الرجوع . نزلا كهبة ربح فوق الدراجة النارية . ان رؤيا الجثث الضبابية لن تمحى من روحيهما أبداً، لكنهما في هذه اللحظة كانا يشعران بالسعادة .

لم يفارقهما أوار هذه القبة لأيام عديدة، وملاً لياليهما بأشباح رقيقة، مخلفاً على بشرة كل منهما ذكرى الآخر مثل حرق . ان بهجة ذلك اللقاء كانت تحملهما خفيفين في الشارع، وتدفعهما إلى الضحك دون سبب ظاهر، وتوقظهما من أحلامهما فجأة، فيلمس أحدهما شفثيه بأطراف أصابعه ويتذكر شكل فم الآخر بدقة . كانت ايرين تفكر بغوستافو وبالحقائق الجديدة التي اطلعت عليها مؤخراً . وكانت تشك انه يشارك في ممارسة السلطة مثل أي ضابط آخر في القوات المسلحة، وان له حياته السرية التي لا يشاطرها إياها على الاطلاق . صارت ترى كائنين مختلفين في ذلك الجسد الرياضي الذي تعرفه حق المعرفة . فأحست لأول مرة في حياتها بالخوف منه وتمنت ألا يعود أبداً .



شئق خابيير نفسه يوم الخميس . كان قد خرج مساء ذلك اليوم للبحث عن عمل كعادته كل يوم، ولم يرجع . أحست زوجته بمثول الفجيرة في وقت مبكر، أحست بها قبل أن يساورها القلق بوقت طويل . وحين خيم الليل، وقفت تنتظره عند عتبة الباب وعيناها على الشارع . حينئذ صارها جس المساة لديها لا يطاق، فتناولت الهاتف واتصلت بحميها وبكل من تعرفهم من الأصدقاء، لكنها لم تحصل على أي خبر عن زوجها . وفيما هي تترصد الظلال خلال زمن بدا لها لا نهائياً، وتستحضره إلى ذاكرتها، دامها حظر التجول، ومضت أشد الساعات ظلمة

حتى رأت بزوغ فجر يوم الجمعة. لم يكن الأطفال قد استيقظوا بعد عندما توقفت سيارة دورية للشرطة أمام باب البيت. كانوا قد وجدوا خابيير ليال معلقاً على شجرة في حديقة الأطفال. لم يكن قد تحدث عن الانتحار مطلقاً، ولم يودع أحداً، كما أنه لم يترك ملاحظة أخيرة، ومع ذلك فقد عرفت دون أي شك انه قد انتحر، وفهمت أخيراً معنى عقد الحبل التي كان يربطها ويحلها دون توقف.

تولى فرانثيسكو أمر الجثة ومسؤولية اجراءات جنازة أخيه. وفيما هو ينجز اجراءات الموت البير وقراطية المتعبه كان يحمل في ذاكرته صورة خابيير كما ظهر لعينيه فوق طاولة المركز الطبي، مستكيناً تحت الأنوار الجليدية المنبعثة من المصابيح الفلورية. كان يحاول البحث عن أسباب هذه النهاية القاسية والاعتياد على فكرة ان رفيق حياته، والصديق اللامشروط والحامي لم يعد موجوداً في هذا العالم. تذكر تعاليم ابيه: العمل هو مصدر الفخر والاعتزاز. ما كانوا يعرفون البطالة حتى خلال العطلة، فأيام الأعياد كانت تُستغل بعمل مفيد في بيت آل ليال. لقد مرت الأسرة بأوقات عصيبة، لكنهم لم يفكروا أبداً بقبول الصدقات، حتى ولو جاءت من أسلفوا عم بتقديم المساعدة لهم. وعندما رأى خابيير ان السبل أمامه مسدودة، ولم يبق له سوى القبول بمساعدة أبويه وأخويه، فضل المضي بصمت. رجع فرانثيسكو في ذكرياته إلى زمن بعيد، حين كان اخوه الكبير فتى عادلاً مثل أبيه وعاطفياً مثل أمه. لقد ترعرع أبناء ليال الثلاثة متكاتفين ومتضامنين، ثلاثة في مواجهة العالم، ثلاثة في عصبة واحدة، مرهوبون في باحة المدرسة لأن كلاً منهم كان محمياً من الاثنين الآخرين، وأية اساءة لهم يدفع المسيء ثمنها في الحال. كان خوسيه، أوسطهم، هو الأقوى والأشد، لكن خابيير كان اكثر اثاره للخوف بسبب جسارته ومهارته في توجيه اللكمات. لقد أمضى مراهقة مضطربة إلى أن أحب أول امرأة شددت انتباهه، فتزوج منها وأخلص لها حتى ليلته الأخيرة. وقد شرف كنيته^(١): فكان مخلصاً لزوجته، ولاسرته ولاصدقائه. كان يجب عمله كبيولوجي

١ - كنية هي ليال leal، والكلمة تعني: مخلص، وفي. وهذا يوضح الصورة المجازية للتعبير.

١ - نيرفانا: الراحة الأبدية عند البوذيين.

ويفكر بالتفرغ للتعليم، لكن الظروف قادتته إلى العمل في مخبر تجاري، حيث وصل خلال سنوات قليلة إلى أعلى المراتب، لأن احساسه بالمسؤولية كان يواكب مخيلة خصبة مكنته من تجاوز أجراً المشاريع العلمية. لكن هذه الخصائص لم تفده في شيء حين أعد المجلس العسكري قوائم المحظورين من العمل. فنشاطه في النقابة كان بمثابة وصمة في نظر السلطات الجديدة. لقد راقبوه أول الأمر، ثم عادوه، وفي النهاية طردوه. وحين صار دون عمل، وفقد الأمل في الحصول على عمل جديد، بدأ تأكله وانحداره. كان يهيم على وجهه شاحباً وهزياً في ليالي الأرق ونهارات المذلة. لقد طرق أبواباً كثيرة، وانتظر طويلاً في قاعات الانتظار، وهرع إلى اعلانات الجرائد ولكنه وجد نفسه مثقلاً باليأس في نهاية الطريق. وفي بطالته راح يفقد هويته شيئاً فشيئاً. كان مستعداً للقبول بأي عرض للعمل، حتى ولو كان الأجر زهيداً لأن حاجته للإحساس بأنه ذو فائدة كانت ملحة. فالبطالة جعلت منه كائناً هامشياً، مجهولاً، ينكره الجميع لأنه غير منتج، وذلك هو مقياس القيمة الانسانية في المجتمع الذي كان عليه أن يعيش فيه. لقد تخلى خلال الشهور الأخيرة عن أحلامه، ونسي أهدافه واعتبر نفسه منبوذاً. لم يكن أولاده يفهمون سبب تعكر مزاجه وكآبته الدائمة، فهم يبحثون كذلك عن عمل في غسل السيارات، أو حمل الأكياس في السوق أو القيام بأي عمل لتخفيف العبء عن الميزانية العائلية. ويوم وضع ابنه الأصغر على الطاولة قطعاً نقدية كسبها من مرافقته كلاب الأثرياء للتنزهة في الحديقة، انكمش خابيير كحيوان مضروب، ولم يعد ينظر إلى عيني أحد منذ ذلك الحين وغرق في الخيبة. فقد الرغبة في اللبس، وكثيراً ما صار يقضي يومه مستلقياً في السرير، وأصبحت يدها ترتعشان لأنه بدأ بتعاطي الشراب خفية، شاعراً بالذنب لأنه ينفق بذلك نقوداً كان البيت في أمس الحاجة إليها. وكان يجهد كل سبت للحضور إلى بيت والديه نظيفاً ومرتباً كي لا يحتمل أسرته مزيداً من الكآبة، لكنه كان عاجزاً عن محو ذلك التعبير الحزين من نظرتيه. وقد ساءت علاقته بزوجته، لأن الحب في مثل هذه الظروف يصاب بالانهك. كان بحاجة للمواساة، لكنه كان يترصد في الوقت ذاته أي تعبير عن

الرشاء لحاله كي يرد عليه بغضب . لم تكن زوجته تصدق أول الأمر أنه لا يجد أي عمل شاغر، ولكن فيما بعد، حين علمت بأمر آلاف العاطلين عن العمل، أطبقت فمها وضاعفت ساعات عملها . فأثقت ارهاق هذه الشهور شبابها وجمالها اللذين كانت تكتنزهما باعتبارهما ثروتيها الوحيدتين . فلم يعد يتاح لها للأسف وقت للحفاظ على ذلك الجمال، لأنها كانت تركز لابعاد الجوع عن أولادها واليأس عن زوجها . ولم تتمكن من الخيلولة دون ضياع خابيير في متاهة العزلة . لقد لفته اللامبالاة مثل دثار، وألغت احساسه باللحظة الراهنة، وفتت قواه وجردته من شجاعته . كان يتصرف كشبح . ولم يعد يحس برجولته مذكر أي بيته ينهار، وأحس بانطفاء الحب في عيني زوجته . وفي لحظة لم تستطع اسرته رصدها مسبقاً لشدة قربها، انكسرت ارادته نهائياً . انصرف عن الرغبة في الحياة وقرر احتضان موته .

لقد صدمت المأساة آل ليال مثل ضربة فأس . فشاخت هيلدا فجأة، وكذلك البروفسور، وسيطر عليهما الصمت المطبق . حتى العصافير الصاخبة صمتت في الفناء كما يبدو . ورغم ادانة الكنيسة الكاثوليكية الصارمة للمنتحرين، إلا أن خوسيه أقام قداساً من أجل راحة روح أخيه . ووضع البروفسور قدميه للمرة الثانية في معبد . فعل ذلك في المرة الأولى يوم زواجه، وكانت السعادة تغمره . أما حالته في هذه المرة فكانت مختلفة تماماً . بقي واقفاً طوال مراسم قداس الجنائز، يدها متقاطعتان وشفته مطبقتان في خط نحيل، تُسكره الكآبة . وكانت امرأته تصلي بخشوع، راضية بموت ابنها على أنه اختبار آخر من القدر .

حضرت ايرين الجنائز، وكانت مذهولة لا تفهم سبباً لكل هذه التعاسة . بقيت ساكنة إلى جانب فرانثيسكو، يهيمن عليها كرب هذه الأسرة التي أحببتها كأنها اسرتها . كانت تعرفهم سعداء، متهللين، باسمين، جاهلة انهم يعيشون الألم بسرية ووقار . لقد كان بمقدور البروفسور ليال، ربما بسبب أصله القشتالي، ان يعبر عن جميع الانفعالات باستثناء تلك التي تمزق روحه . وكان من عادته ان يقول: الرجال لا يبكون إلا بدافع الحب . أما عينا هيلدا فكانتا تغرورقان

بالدموع عند أي انفعال: الحنان، الفرح، الحنين. أما الألم فكان يصلبها كالزجاج. وكانت الدموع قليلة جداً في ماتم ابنها البكر. دفنوه في قطعة أرض صغيرة، اشتروها في اللحظة الأخيرة. ولبدت الطقوس مرتجلة ومشوشة، لأنه لم يخطر ببالهم حتى ذلك اليوم التفكير بمتطلبات الموت. ومثل جميع محبي الحياة، كانوا يشعرون أنهم مخلدون. - لن نرجع إلى اسبانيا يا امرأة. - قرر البر وفسور ليال، فيما كانت آخر رفوش التراب تنهال على القبر. وقبل للمرة الأولى منذ أربعين سنة بانتائه إلى هذه الأرض.

عادت أرملة خايير من المقبرة إلى بيتها، فجمعت أمتعتها القليلة في علبة من الكرتون، وأمسكت بأيدي أولادها وودعت الأسرة. ستهب إلى الجنوب، إلى المقاطعة التي ولدت فيها، لأن الحياة في ذلك المكان أقل قسوة ويمكنها الاعتماد هناك على مساعدة اخوتها. كما أنها لم تكن راغبة في أن يكبر أولادها في ظل الأب الغائب. ودع آل ليال كتنهم وأحفادهم، ورافقوهم إلى المحطة خامدي العزيمة، ورأوهم يصعدون إلى القطار ويتعدون دون أن يصدقوا أنهم سيفقدون أولئك الأطفال الذين شاركوا في تربيتهم. لم يكونوا يأبهون بأية ثروة مادية، وكانت ثقتهم في المستقبل موضوعة في الأسرة، ولم يتصوروا يوماً أنهم سيهرمون بعيداً عن ذويهم.

رجع البر وفسور من المحطة إلى البيت، ودون أن يخلع السترة وربطة العنق السوداء، جلس على كرسي تحت شجرة الكرز في الفناء وعيناه تائهتان. كان يحمل بين يديه مسطرة الحسابات القديمة، وهي الشيء الوحيد الذي نجا من كارثة الحرب وأحضر إلى اميركا. كان يحتفظ بها دوماً على الكوميدينو قريباً منه، وكان يسمح للأطفال باللعب بها عندما يريد مكافأتهم فقط. وقد تعلم أولاده الثلاثة طريقة استخدامها بجعل اجزائها تنزلق لرسم الأرقام، ورفض استبدالها حين تجاوزتها الأجهزة الالكترونية المتطورة. كانت عبارة عن انبوب تلسكوبي من البر ونز، نُقشت الأرقام الدقيقة على سطحها، وقد صنعها صناع

القرن الماضي المهرة. بقي البر وفسور ليال جالساً تحت الشجرة لساعات عديدة، يتأمل جدران الطوب التي بناها بنفسه لايواء ابنه خابيير. وفي تلك الليلة قاده فرانتيسكو بما يشبه الإكراه إلى سريره، لكنه لم يستطع إجباره على تناول الطعام. وفي اليوم التالي فعل الشيء نفسه. لكن هيلدا مسحت دموعها في اليوم الثالث وجمعت الصلابة الحاضرة دوماً في أعماقها، واستعدت للنضال مرة أخرى من أجل اسرتها.

قالت:

- السيء في أبيك يا فرانتيسكو انه لا يؤمن بالروح. لهذا يشعر بأنه فقد

خابيير.

ومن خلال نافذة المطبخ كان بإمكانها رؤية البر وفسور على كرسيه وهو يدير مسطرة الحسابات. تنهدت هيلدا، ووضعت الطعام في الثلاجة دون أن تذوقه، وحملت كرسيهاً آخر إلى الفناء وجلست تحت شجرة الكرز واضعة يديها فوق تنورتها، دون ان تستغلها بحياكة ولا بخياطة للمرة الأولى منذ زمن لا ترقى اليه الذاكرة. وبقيت ثابتة على تلك الحال لساعات. عند الغروب توصل اليها فرانتيسكو ليأكل شيئاً، لكنه لم يحصل منها على رد. وبصعوبة كبيرة حملها إلى حجرة نومها ووضعها في السرير، حيث بقيا صامتين وأعينها مفتوحة ومكدره، كشيخين معتوهين. قبل وجنتيهما، ثم أطفأ النور متمنياً من أعماق روحه أن يناما نوماً عميقاً يهديء من حزنهما. ولدى استيقاظه في اليوم التالي رأها يجلسان تحت الشجرة في الوضع الذي كانا عليه في اليوم السابق، صامتين، بشياهما المجدعة، ودون أن يغتسلا أو يأكلا. وكان عليه أن يستجمع كل معلوماته ليراقب شدة الهزة التي تعرضا لها. فجلس يرصدهما بصبر، متيحاً لهما الوقت ليصلا إلى قرارة أحزانها.

عند الظهيرة رفع البر وفسور ليال عينيه وتطلع إلى هيلدا وسألها بصوت

هشمتة أربعة أيام من الصمت:

- ما الذي أصابك يا امرأة؟

- مثلما أصابك أنت .

وفهم البر وفسور الأمر . لقد كان يعرفها حق المعرفة ، وعلم انها ستستسلم للموت بنفس القدر الذي يفعله هو ، لأنها لن تسمح له بالذهاب وحيداً بعد أن أحبته كل هذه السنين الطويلة .

فقال وهو ينهض بمشقة ويمد يده اليها :

- حسن .

دخلا إلى البيت على مهل ، مستندين إلى بعضهما . سخن فرانثيسكو الحساء ، وعادت الحياة إلى مسارها .



أخذت ايرين بيلتران ، المستبعدة من ماتم آل ليال ، سيارة أمها ومضت وحيدة إلى لوس ريسكوس ، مصممة على البحث عن ايفانجيلينا بمفردها . لقد وعدت ديفنا بمساعدتها في التقصي ولم تكن تريد ان تترك انطباعاً بالاستخفاف . كانت محطتها الأولى هي بيت آل رانكيليو ، حيث قالت لها الأم بصبر من احتملت انكسارات كثيرة :

- دعك من البحث عنها يا آنسة . لقد ابتلعتها الأرض .

لكن ايرين كانت مصممة حتى على قلب الأرض إذا اقتضى الأمر ، للعثور على الصبية . فيما بعد ، وحين كانت تعود بذاكرتها إلى هذه الأيام ، كانت تتساءل عما دفعها إلى منطقة الظلال . لقد شعرت منذ البدء أن في يدها طرف خيط ، وانها إذا ما شدته فستنفلت لفاقة لا نهاية لها من الفواجع . أحست ان هذه القديسة ذات المعجزات المريبة هي الحد بين عالمها العادي وبين منطقة الظلال التي لم تطأها قدمها من قبل . واستنتجت وهي تفكر بذلك ، ان ما يدفعها ليس مجرد فضول طبعها ومهنتها فقط ، وانما شيء كالدوار . لقد أطلت على بئر لا قرار لها ولم تستطع مقاومة اغراء الهاوية .

استقبلها الملازم خوان دي ديوس راميريث في مكتبه دون تأخير . وبدأ لها أقل قوة مما كان عليه حين عرفته يوم الأحد المنهك ذاك ، في بيت آل رانكيليو، وتبينت أن حجم الرجل يعتمد على الموقف الذي هو فيه . أبدى راميريث شيئاً من الكياسة نحوها . كان يرتدي سترة مفتوحة ، ورأسه حاسر ، ولم يكن يحمل سلاحاً ، وكانت يدها منتفختين ، حمراوين ، ومليتين بالقروح التي تصيب الفقراء . من الصعب على شخص رأى ايرين ألا يتعرف عليها ، فبمجرد رؤية شعرها المشعث وملابسها الغريبة ولو مرة واحدة ، يمكن لأي كان ان يتذكرها ، ولهذا لم تحاول خداعه وأبدت اهتمامها بايفانخيلينا رانكيليو دون ديباجات .
قال الضابط :

- لقد جرى اعتقالها لاستجواب روتيني قصير . قضت تلك الليلة هنا وذهبت في اليوم التالي باكراً .

مسح راميريث العرق عن جبهته . كانت حجرة مكتبه حارة .

- وهل اخرجتموها إلى الشارع دون ملابس؟

- كان مع المواطنة رانكيليو حذاء وعباءة .

- لقد اقتدموها من سريرها ليلاً . وهي دون سن الرشد ، فلماذا لم تعيدها

إلى أboيها؟

فرد الملازم عليها بجفاء :

- لست مطالباً بمناقشة أساليب الشرطة معك .

- هل تفضل أن تفعل ذلك مع خطيبي ، الكابتن في الجيش غوستافو

مورانتى؟

- ما الذي تتصورينه؟ أنا لا أقدم كشفاً بأعمالي إلا أمام قائدي المباشر .

لكن راميريث تردد ، فكل ما هو بين جلده وعظامه كان متشرباً بمبدأ

الإخوة العسكرية ؛ وفوق الخلافات بين الوحدات العسكرية ، هناك مصلحة

الوطن المقدسة ومصلحة الزي العسكري الذي لا يقل قدسية ؛ وعليهم في كافة

الوحدات ان يحموا أنفسهم من سرطان الرياء الذي ينمو ويتكاثر في أحشاء

الشعب بالذات . لهذا لا بد لهم من الارتياح بالمدينين دوماً كاجراء احتياطي ،
والاخلاص لرفاق السلاح كإجراء استراتيجي . لا بد للقوات المسلحة من أن
تكون كتلة متماسكة ، هذا ما قالوه له آلاف المرات . وما أثر عليه أيضاً رقي طبقة
الفتاة الاجتماعية الظاهر ، لأنه كان معتاداً على احترام سيادتي المال والسلطة ،
والفتاة تملك الاثنتين ما دامت تتجراً على استجوابه بهذه السهولة ، وتعامله كما لو
كان خادمها . بحث في سجل المناوبة وأراها إياه . كان مقيداً فيه دخول ايفانخيلينا
رانكيليو سانتشيث إلى الثكنة ، فتاة في الخامسة عشرة ، اعتقلت لدعوتها إلى
اجتماع غير مرخص في بيت اسرتها وللاحاقها الأذى الجسدي بشخص الملازم
خوان دي ديوس راميرث . وفي الهامش ملاحظة تشير إلى أنهم قرروا إلغاء
استجوابها بسبب نوبة بكاء أصابتها . وبلي ذلك توقيع العريف المناوب اغناسيو
برافو .

قال راميرث :

- اعتقد أنها ذهبت إلى العاصمة . فهي تريد العمل كمومس ، مثل اختها

الكبرى .

- وهي بلا نقود وشبه عارية أيها الملازم ؟ ألا ترى الأمر غريباً بعض الشيء ؟

- هذه الحشرة كانت نصف مخبولة .

- أيمكنني التحدث إلى أخيها براديليو رانكيليو ؟

- لا . لقد نُقل إلى موقع آخر .

- أين ؟

- معلومات سرية . اننا في حالة حرب داخلية .

أدركت انها لن تحصل على مزيد من المعلومات في هذا المكان ، ولأن الوقت
كان ما يزال باكراً ، فقد مضت إلى القرية لتقوم بجولة هناك وفي نيتها تبادل
الحديث مع أحد . كانت تريد التقصي عن رأي أهل القرية بالعسكريين عموماً
وبالملازم راميرث بوجه خاص ، لكن الناس كانوا يديرون وجوههم حين
يسمعون تلك الأسئلة ويتعدون بأسرع ما يمكن دون ان ينطقوا بكلمة واحدة .

لقد فرضت سنوات الحكم الاستبدادي على الناس التزام جانب الحذر كقاعدة للاستمرار في الحياة. وفيما كانت ايرين تنتظر ان ينتهي الميكانيكي من اصلاح اطار السيارة، جلست في استراحة قريبة من الساحة. كان الربيع يتبدى في طيران الزرازير الزفافي، وفي انتفاخ الدجاجات الفخورة برفقة بطانتها من الصيصان، وفي ارتعاش الصبايا في فساتينهن القطنية الرقيقة. دخلت هرة جbli إلى الاستراحة بوقار وقبعت تحت طاولتها.

لقد أحست ايرين في بعض مراحل حياتها بان قوة الحدس تدهمها أحياناً. وكان يخيل اليها انها تسمع علامات المستقبل وترى ان سلطة الذهن قادرة أحياناً على فرض وقوع بعض الأحداث. وبهذا المنطق فسرت ظهور الرقيب فاوستينو ريفيرا في المكان الذي اختارته لتناول الطعام فيه. وحين روت ذلك لفرانثيسكو فيما بعد، طرح نظرية أبسط: فذلك المكان هو المطعم الوحيد في لوس ريسكرس والرقيب كان يشعر بالظماً في تلك الساعة دون شك.

رأت ايرين الرقيب وهو يدخل متعرقاً، ويدنومن الكونتوار ليطلب زجاجة بيرة، فتعرفت في الحال على وجهه الريفي، بوجنتيه العاليتين، وعينييه الزائغتين، وشعره القاسي، وأسنانه الكبيرة المتناسقة. كان يرتدي الزي العسكري ويحمل قبعة الخدمة في يده. تذكرت المعلومات القليلة التي ذكرتها أمامها عنه ديغنا رانكيليو وقررت استخدامها لمصلحتها. فبادرته قائلة:

- أنت الرقيب ريفيرا؟

- رهن اشارتك.

- ابن مانويل ريفيرا، ذي الشفة المشرومة؟

- هو ذاته، في خدمتك.

اعتباراً من هنا اتخذ الحديث مساره السهل. دعتة الشابة إلى تناول الشراب على طاولتها. وما ان استقر إلى جانبها وفي يده زجاجة ثانية من البيرة، حتى جعلت من نفسها غنيمة له. ومع الكأس الثالثة بدا بوضوح أن الخارس لا يتحمل الكحول، فقادت الحديث في السبل التي تمهما. بدأت باستالته قائلة له

انه قد ولد ليحتل موقعا قيادياً، وانه بإمكان أي شخص أن يلاحظ ذلك، وانها هي نفسها انتبهت إلى الأمر في بيت آل رانكيليو، حين سيطر على الموقف بيهبة القائد وبرودة أعصابه، وانه نشيط وكفاء، وليس كالملازم راميريث .
- هل ملازمك هذا متهور دائماً هكذا؟ تصور كيف أخذ باطلاق النار في كل اتجاه! لقد خفت كثيراً . . .

فرد الرقيب:

- لم يكن هكذا في السابق . لم يكن رجلاً سيئاً، أو كذ لك .
كان يعرفه كما يعرف كف يده، لأنه يعمل تحت أمرته منذ سنوات . لقد كان راميريث، لدى قدومه من كلية الضباط، يجمع فضائل العسكري الجيد: فهو مهذب، وصارم، ومخلص، وكان يحفظ الأنظمة واللوائح عن ظهر قلب، ولا يسمح بوقوع الأخطاء . كان يتفحص طلاء أحذية الجنود ولمعائنا، ويشد أزرارهم ليتأكد من حسن ثباتها، ويطالب مرؤوسيه بأقصى الجدية أثناء الخدمة . وكان مهووساً بالنظافة، فهو يشرف شخصياً على مراقبة نظافة المراحيض، ويجمع الرجال عراة مرة كل اسبوع ليكشف عن الأمراض التناسلية والقمل . كان يتفحص أعضاءهم السرية بعدسة مكبرة، وكان يفرض على المصابين علاجاً قاسياً واهانات لا حصر لها .

- ولكنه لم يكن يفعل ذلك بدوافع شريرة يا آنسة، وانها ليعلمنا كيف نصير بشراً . وأظن أن ملازمي كان طيب القلب في ذلك الحين .



تذكر ريفيرا تنفيذ أول اعدام بالرصاص وكأنه يراه أمامه الآن . حدث ذلك منذ خمس سنوات، بعد أيام قليلة من الانقلاب العسكري . كان الجو ما يزال بارداً حينئذ، وكان المطر قد هطل في تلك الليلة دون توقف وكأنه شلال متصل نزل من السماء ليغسل الدنيا، وخلف الشكنة نظيفة، تعبق برائحة الطحالب

والرطوبة. وعند الفجر توقف المطر، لكن المشهد بدا مقفراً بتأثير ذكرى ذلك
الوايل. وبين الأحجار كانت تلمع برك الماء مثل قطع من زجاج. كان فصيل
الاعدام يقف في طرف الفناء، يتقدمه خطوتين الملازم راميرث الذي كان يبدو
شديد الشحوب. جاؤوا بالمتعقل وسط حراسه، وكانوا يسندونه من ذراعيه، لأنه
لم يكن قادراً على الاستناد على قدميه. لم يتبته ريفيرا أول الأمر إلى حالة المعتقل
المتردية، وظنه خائفاً، كغيره ممن يمارسون التمرد لالحاق الضرر بالوطن، ثم
يغمر عليهم حين تأتي اللحظة التي سيدفعون فيها ثمن ذنوبهم. لكنه أمعن النظر
في الحال ورأى أن ذلك المعتقل هو من سحقوا ساقيه. كان عليهم أن يرفعه عن
الأرض ليحولوا دون تعثر قدميه المترهلتين بالأرض الموصوفة. نظر فاوستينوريفيرا
إلى رئيسه وأدرك ما يجول في ذهنه. فقد كانا يتبادلان الحديث في بعض ليالي
المنابذة كندين، حديث رجل لرجل، متجاوزين الرتب للبحث في أسباب
الانقلاب العسكري ونتائجه. كانت البلاد فريسة يتقاسمها السياسيون المعادون
للوطن، الذين أضعفوا الأمة وحولوا الوطن إلى صيد سهل للعدو الخارجي، هذا
ما كان يقوله الملازم راميرث، ويضيف: ان الواجب الأول للجندي هو الحفاظ
على الأمن، ولهذا استولى العسكريون على السلطة ليعيدوا إلى الوطن منعمته،
وليكنسوا في طريقهم أعداءهم الداخليين. كان ريفيرا يكره التعذيب، ويعتبره
أسوأ ما في هذه الحرب التي أغرقوه فيها، ثم أن التعذيب لا يشكل جزءاً من
مهنته، ولم يعلموه إياه، وهو يجعله يتقيأ أحشاءه. فتوجه ركلتين إلى جانح عادي
كجزء من التحقيق الروتيني، أمر مختلف عن تعذيب المعتقل تعذيباً منهجياً، لماذا
يصمت هؤلاء التعساء؟ لماذا لا يتكلمون منذ الاستجواب الأول ويوفرون كل
هذه الآلام التي لا جدوى منها؟ فجميعهم يعترفون في نهاية الأمر، أو أنهم يموتون
لأن الاعدام بالرصاص في انتظارهم.

- فصيل! انتب...!

فهمس إليه فاوستينوريفيرا، وكان حينئذ برتبة عريف أول:

- سيدي الملازم.

- ضع المعتقل أمام الجدار أيها العريف!
- لكنه لا يستطيع الوقوف يا سيدي الملازم.
- فليجلس إذن!
- أين سيجلس يا سيدي الملازم؟
- فانكسر صوته:
- أحضروا كرسيًا، اللعنة.

التفت فاوستينو إلى الرجل الواقف إلى يساره، وكرر اصدار الأمر، فمضى الآخر لاحتضار الكرسي. لماذا لا يطرحونه على الأرض ويقتلونه مثل كلب قبل أن يتضح الفجر ونرى وجوه بعضنا بعضاً؟ لماذا كل هذا التأخير؟ فكر بذلك قلقاً لأن الضوء كان يزداد في الفناء لحظة بعد أخرى. رفع المعتقل بصره وتطلع اليهم واحداً واحداً بعينين يملؤها ذهول الاحتضار، وتوقف عند فاوستينو. لا شك انه يعرفه. لانها لعبا الكرة معاً في الملعب ذات يوم. كان الآخر يقف في برك الماء المتجمدة حاملاً في يديه بندقية تثقل عليه مثل نير، بينما لا يزال هو ينتظر هنا. في أثناء ذلك وصل الكرسي وأمر الملازم بأن يقيدوه إلى المسند، لأنه كان يترنح مثل فزاعة. دنا العريف منه وفي يده منديل. فقال المعتقل:

- لا تعصب عيني يا عسكري.

فخفض الآخر رأسه خجلاً متمنياً أن يصدر الضابط أمره في الحال، وان تنتهي هذه الحرب دفعة واحدة، وان تسوى الأمور ليتمكن من السير في الشارع بسلام ومن تبادل التحية مع المدنيين.

صرخ الملازم:

- سدد! سلا...!

هاهوذا يصدر الأمر أخيراً، فكر العريف الأول. وأغمض الذي سيموت عينيه لبرهة، لكنه فتحهما من جديد ليرى السماء. لم يعد يشعر بالخوف. كان الملازم مرتبكاً. فمد علم بمسألة الاعدام وهو يمضي شاحباً، يدق في رأسه صوت قديم أت من طفولته. ربما هو صوت أحد معلميه أو صوت كاهن الاعتراف في

مدرسة الرهبان: جميع البشر أخوة، لكن هذا غير صحيح، فليس أحاً من يزرع العنف، ثم ان الوطن قبل كل شيء. . وما الآخرون سوى أندال، ان لم نقتلهم قتلونا. هذا ما يقوله الكولونيالات، أما أن تقتل أو تقتل، هكذا هي الحرب، ولا بد من الاقدام على هذه الأعمال، فشدّ بنطالك ولا ترتجف. . لا تفكر. . لا تحس. . وقبل كل شيء، لا تنظر إلى وجهه، لأنك ان فعلت ذلك خوزقت نفسك.

- نارا!

زعزعت زخة الرصاص الهواء، وبقي صداها يتردد في الجوالجليدي. طار عصفور دوري مبكر فزعاً. وبدا أن رائحة البارود وصوت الرصاص سيدومان إلى الأبد، لكن الصمت ما لبث أن عم ثانية. وفتح الملازم عينيه: كان المعتقل على الكرسي يتطلع اليه بكبرياء وهدوء، وعلى بنطاله المجعد بقع دم طازج. لكنه كان حياً ووجه صاف في ضوء الفجر. كان حياً وكان ينتظر.

سأل الملازم بصوت خافت:

- ما الذي حدث أيها العريف؟

فرد فاوستينوريفيرا:

- لقد أطلقوا النار على ساقيه يا سيدي الملازم. الشباب من أبناء المنطقة، وهم يعرفون بعضهم بعضاً. كيف يمكنهم أن يقتلوا صديقاً؟
- والآن؟

- الآن جاء دورك يا سيدي الملازم.

فهم الضابط الصامت ذلك، فيما أفراد فصيل الاعداء ينتظرون متأملين الندى الذي كان يتبخّر بين الأحجار. وكان المعتقل ينتظر كذلك في الطرف الآخر من الفناء، ويتزف على مهل.

- ألم يخبروك بذلك يا سيدي الملازم؟ الجميع يعرفون الأمر: لا، لم يخبروه.
ففي مدرسة الضباط أعدوه للقتال ضد البلدان المجاورة أو ضد أي ابن عاهرة

يعتدي على التراب الوطني . ودربوه كذلك على مقاومة الاشرار ومطارتهم دون رحمة، وعلى اصطيادهم دون تردد، ليتيح للرجال المحترمين، وللنساء والأطفال أن يسيروا في الشارع مطمئنين . كانت تلك هي مهمته . لكن أحداً لم يقل له إن عليه ان يحطم رجلاً مقيداً ليجبره على الكلام، لم يعلموه شيئاً من هذا، وهاهو ذا العالم ينقلب رأساً على عقب الآن، وعليه ان يذهب ليطلق رصاصة الرحمة على هذا التعيس الذي لا يشكو حتى مجرد شكوى . لم يخبره أحد بذلك من قبل .

ربت العريف الأول على ذراع الملازم خفية كيلا يلحظ أفراد فصيل الاعداد تردد قائدهم . وهمس :

- المسدس يا سيدي الملازم .

أخرج السلاح من قرابه وسار عبر الفناء . كان صدى وقع جزمته الأصم على الأرض المرصوفة يرن في جوف الرجال . تقابل الملازم والمعتقل وجهاً لوجه ، وكل منهما ينظر في عيني الآخر . كانا في سن واحدة . رفع الضابط ذراعه مسدداً إلى الصدغ وأمسك المسدس بكلتا يديه ليسيطر على ارتعاشته . وكانت السماء الصافية هي آخر ما رآه المحكوم حين ثقت الرصاصة رأسه ، فغطى الدم وجهه وصدرة ولطخ بدلة الضابط النظيفة .

بقي نشيج الملازم في الهواء يموج مع صوت الطلقة، لكن فاوستينوريفيرا وحده هو الذي سمعه .

- تشجع يا سيدي الملازم . يقولون ان هذا الأمر كالحرب . شاق في المرة الأولى ، لكن المرء يعتاد عليه بعد ذلك .

- عليك اللعنة أيها العريف .

وكان العريف محقاً ، فمع مرور الأيام والأسابيع صار القتل في سبيل الوطن بالنسبة اليهما أسهل كثيراً من الموت في سبيله .

انتهى الرقيب فاوستينوريفيرا من الكلام ومسح العرق عن عنقه . كان في غيبوبة الشوة لا يكاد يميز ملامح ايرين بيلتران ، لكنه كان قادراً على الاعجاب بانسجام تقاطيعها . نظر إلى ساعته وانتفض بشكل مفاجيء . لقد مضت ساعتان

وهو يكلم هذه المرأة، ولولا انه سيتأخر عن نوبة خدمته، لحدثها في بعض الأمور الاخرى. فهي تحسن الاستماع بانتباه وتهتم بحكاياتها، وليست مثل اولئك الأنسات المتجهات اللواتي يشمخن بأنوفهن حين يُفرغ الرجل بضعة أكواب ما بين صدره وظهره. لا ياسيدي، انها امرأة حقيقية على ما يبدو، واثقة من نفسها وفي رأسها أفكار، رغم انها ضئيلة بعض الشيء وليست ذات نهدين كبيرين وردفين جيدين، وليس فيها أي بروز معقول يمسكها المرء منه حين يجد الجلد.

قال وهو ينفض بدنته العسكرية وينهض واقفاً:

- لم يكن ملازمي بالرجل السبيء يا آنسة. لقد تبدل فيما بعد، حين منحوه صلاحيات واسعة ولم يعد عليه تقديم حساب أمام أحد.

انتظرت ايرين إلى أن دار على عقبه منصرفاً، وأوقفت آلة التسجيل التي تخفيها في حقيبتها على الكرسي. أَلقت بآخر قطع اللحم إلى القطة وهي تفكر بغوستافو مورانتي متسائلة ان كان خطيبها قد اجتاز فناء في أحد الأيام والسلاح في يده ليطلق رصاصة الرحمة على أحد المعتقلين. استبعدت هذه الصور بيأس، محاولة ان تتذكر وجه غوستافو الحليق وعينيه الزرقاوين، فلم يرد إلى ذهنها سوى وجه فرانيسكو ليال وهو ينحني إلى جانبها على طاولة العمل، وعينيه السوداوين اللتين تحملان بريق التفهم، وتكشيرة فمه الطفولية حين يضحك وملاحه الاخرى، المتوترة والقاسية، حين يصدمه جلاء شر الآخرين.



كان ملجأ «مشيئة الرب» مضاءً بأنوار قوية، وكانت ستائر الصالات مفتوحة، والموسيقى تطفو في الجو، لأن اليوم هو يوم الزيارة وفيه يأتي أقرباء المسنين واصدقاؤهم لاداء واجب الشفقة. كان الطابق السفلي يبدو من بعيد وكأنه عبارة محيطات راسية نتيجة خطأ ما بين الجنائن. كان النزلاء وضيوفهم يتمشون على سطح تلك السفينة مستمتعين ببرودة الليل أو يستريحون على آرائك الشرفة

كأشباح فقدت رونق ألوانها، وكأرواح من زمن آخر، يتحدثون إلى أنفسهم، بعضهم يمضغ الهواء وآخرون يتذكرون كما يبدو أزمنا بعيدة أويبحثون في ذاكرتهم عن أسماء جلسائهم وأسماء أبنائهم وأحفادهم الغائبين. ان العودة إلى الحديث عن الماضي في مثل هذه السن هو كالدخول في متاهة، حيث لا يمكن التعرف أحياناً على أي مكان، أو أي شخص، أو أي كائن عزيز وتحديدته في ضباب الذاكرة، كانت المشرفات يتجولن بزمن صامتات ليدثرن أرجلاً ذاوية، ويوزعن أقراص الدواء الليلية، ويقدمن المشروبات الساخنة للنزلاء والمرطبات للآخرين. ومن مكبرات صوت لا مرئية كان تنطلق أنغام راقصة متدفقة لشويان لا علاقة لها بالايقاع الداخلي البطيء لنزلاء البيت.

قفزت الكلبة متهللة حين رأت فرانيسكو وايرين يدخلان الحديقة. وقالت ايرين لصديقها وهي تدعوه للصعود إلى السفينة وتقوده إلى حيث مسافرو الماضي :

- حذار، لا تدس نبتة اللاتنسيبي.

كان شعر الفتاة مسرحياً في غديرة مرفوعة فوق رأسها، كاشفاً بذلك عن انحناء رقبته، وكانت ترتدي عباءة طويلة من القطن، وقد غابت من يديها للمرة الأولى اساورها النحاسية والبرونزية الصاخبة. لقد أثار شيء ما فيها استهجان فرانيسكو، لكنه لم يستطع تحديده. راقبها وهي تمشي بين المسنين، تبسم للجميع وتعاملهم، وخصوصاً أولئك الذين كانوا مغرمين بها. لقد كان كل منهم يعيش حاضراً مغموراً بالحنين. أشارت ايرين إلى المفلوج الذي لا يستطيع امساك قلم بأصابعه المتيسسة، والذي يملي عليها رسائله عادة. انه يكتب إلى أصدقاء طفولته، وإلى عشيقات من الزمن القديم، وأقرباء مدفونين منذ عشرات السنين، لكنها لم تكن تبعث هذه الرسائل المحزنة، كي لا يعاني خيبة الأمل حين يعيدها البريد اليه لعدم وجود من يتلقاها. كانت تخترع ردوداً وترسلها إلى الشيخ لتحول دون حسرة معرفته انه وحيد في هذه الدنيا. وقدمت إلى فرانيسكو كذلك شيخاً محببلاً لا يزوره أحد مطلقاً. كانت جيوبه مليئة بكنوز دافئة يحتفظ بها

بحرص وغيره : صور باهتة الألوان لفتيات تحيط بوجوههن ورود، وبطاقات قديمة يظهر فيها نهد لا يكاد يستره شيء، أوساق جسور يبرز من بين شرائط الدانتيل. واقتربا من كرسي الأرملة المعقدة الأوسع ثراء في المملكة. كانت المرأة ترتدي فستاناً داوياً، وشالاً أكله العث وتقادم الزمن، وفردة قفاز واحدة تحتفظ بها من المناولة الأولى. وكانت تتدلى من مقعدها ذي العجلات أكياس بلاستيكية مملوءة بالترهات وعلى ركبتيها صندوق أزرار، تعد ما فيه مراراً وتكراراً لتتأكد من انها لم تفقد أي زرنمها. تدخل كولونيل يضع ميداليات من الصفيح ليقول لهما بصوت هامس به أثر من الربو أن قذيفة مدفع هي التي فتت نصف جسد هذه المرأة البطلة. أتعلم انها قد ملأت كيساً بالنقود الذهبية التي كسبتها بنزاهة من زوجها لكونها مطيعة له؟ تصوري يا آنسة مدى حماقته وهو يدفع ثمن ما يمكنه الحصول عليه مجاناً؛ أنا أنصح مرؤوسيّ بالآيبدو روايتهم على العاهرات، لأن النساء يفتحن سيقانهن راضيات عند رؤيتهن بدلة عسكرية، وأقول هذا عن تجربة؛ فالنساء يفضن عن حاجتي. وقبل ان يتمكن فرانيسكومن الاستيضاح حول تلك الأسرار، اقترب رجل طويل القامة وشديد النحول، تغطي وجهه ملامح مأساوية، ليسألها عن ابنه، وعن كتته والطفل. أخذته ايرين جانباً وأسرت اليه بشيء، ثم قادته نحو مجموعة صاحبة وبقيت إلى جانبه إلى ان رآته يهدأ. أوضحت الشابة لصديقها انه كان لهذا العجوز ابنان اثنان، نُفي أحدهما إلى الجهة الأخرى من الكوكب ولم يكن يستطيع الاتصال بأبيه إلا من خلال رسائل كانت تصبح أكثر تباعداً وبروداً مرة بعد اخرى، لأن البعاد مثل مرور الزمان، يولد النسيان. أما الابن الآخر فقد اختفى مع زوجته وطفله الذي كان عمره بضعة شهور. لم يحظ العجوز بنعمة فقدان العقل، وصار يهرب إلى الشارع عند أي سهو من المشرفات، تدفعه الرغبة في البحث عنهم. وحاولت ايرين ترسيخ الافتراضات الفظيعة مرّة كدة له ان لديها معلومات تفيد انه لم يبق أي منهم على قيد الحياة. لكنه رغم ذلك لم يفقد الأمل في العثور على الطفل يوماً، لأن همساً كان يدور عن أطفال أنقذتهم عمليات المتاجرة بالأيتام. فبعض من أشيع عن

موتهم كانوا يظهرن فجأة في بلدان نائية وقد تبنتهم عائلات من عروق اخرى ، أو عُثر عليهم في مؤسسات خيرية بعد عدة سنوات وقد نسوا انه كان لهم آباء . وتمكنت ايرين بفضل اكاذيب الشفقة ان تمنعه من الهرب كلما وجد الحديقة دون مراقبة، لكنها لم تستطع منعه من انفاق احلامه في عذابات لا شفاء منها وحياته في التقصي عن التفاصيل لرغبته في زيارة قبور ذويه . ثم أشارت لفرانثيسكو إلى عجوزين من رق وعاج يتأرجحان على اريكة من الحديد، ولا يكادان يعرفان اسميهما، ولكن كلاً منهما تمكن من حب الآخر رغم معارضة بياتريس الكانترا الصارمة، والتي كانت تعتبر الأمر استخفافاً بالعادات لا يغتفر. من رأى عجوزين تالفين يتبادلان القبلات خلصة من قبل؟ أما ايرين فكانت تدافع عن حقهما بهذه السعادة الأخيرة وتتمنى لجميع النزلاء حظاً ماثلاً، لأن الحب ينقذهم من الوحدة، أسوأ قيود الشيخوخة، فدعيهم وشأنهم بسلام يا أماه، ولا تنظري إلى الباب الذي تركه هي مفتوحاً في الليل، ولا تغضبي هكذا حين تجدنيهما معاً في الصباح، انهما يمارسان الحب، كيف لا، حتى ولو قال الطبيب ان ممارسة الحب مستحيلة في مثل سنهما.

وأرت صديقها اخيراً سيدة تستمع بالبرودة على الشرفة، انظر اليها بامعان، انها خوسيفينا بيانثشي، الممثلة، هل سمعت بها؟ ولح فرانثيسكو سيدة نحيلة كانت دون شك آية في الجمال وهي ما تزال كذلك بطريقة ما. كانت ترتدي روب ما بعد الاستيقاظ وتنتعل خفاً ناعماً، إذ انها تنظم شؤونها حسب توقيت باريس، بفارق عدة ساعات وفصلين. وكان على كتفها شال بال من فراء الثعالب، فيه عيون زجاجية مؤثرة وأذيال مهترئة.

قالت ايرين وهي تمسك الكلبة لتمنعها من الافلات :

- في احدى المرات أمسكت «كليو» بالشال، وحين انقذناه منها كان يبدو وكأن قطاراً قد مر فوقه .

كانت الممثلة تحتفظ بصناديق ملابس قديمة من مسرحياتها المفضلة، وبثياب لم تستخدم منذ نصف قرن، كثيراً ما كانت تنفض الغبار عنها لترهبها لزملائها

المبهورين في بيت المسنين . لقد كانت تسيطر تماماً على جميع مواهبها، بما في ذلك التنجج . ولم يكن اهتمامها بالدنيا قد تضاءل، فهي تقرأ الصحف وتذهب إلى السينما من حين لآخر . كانت ايرين تميزها عن الآخرين، والمشرفات يعاملنها بطريقة مختلفة، فينادينها بلقب سيدة بدلاً من جدة . ولعزاء أيامها الأخيرة لم تفقد أبداً مخيلتها التي لا تنضب، فكانت تشغل نفسها في أوهامها دون أن يكون لديها الوقت والحماس للاهتمام بصغائر الحياة . لم تكن ذكرياتها مختلطة، فهي تحتزنها في ترتيب دقيق وتبتهج في تقليب تلك الذكريات . ومن هذه الناحية كانت أوفر حظاً من بقية المسنين الذين تخونهم الذاكرة وتمحو أحداثاً من ماضيهم وتولد فيهم الخشية من انهم لم يعيشوا تلك الأحداث . لقد عاشت خوسيفينا بيانتي حياة زاخرة، وكان من حسن طالعها العظيم انها تتذكر تلك الحياة بدقة مؤثقة عقود . ولم تكن تأسف إلا على الفرص التي أضاعتها، وعلى اليد التي لم تمدها، وعلى الدموع التي لم تذرفها، وعلى الأفواه التي لم تستطع تقبيلها . لقد تزوجت عدة مرات، وكان لها عشاق كثيرون، وخاضت مغامرات لم تفكر بنتائجها، وأهدرت وقتها بسعادة، وكانت تقول دوماً انها ستموت حين تبلغ من العمر مئة سنة . لقد أعدت مستقبلها بشعور عملي، فاختارت بنفسها ملجأ العجزة حين ادركت انها لم تعد قادرة على العيش بمفردها، وأوكلت إلى محام مهمة ادارة مدخراتها ليؤمن لها حياة مريحة حتى آخر أيامها . كانت تشعر بميل شديد نحو ايرين بيلتران، لأن شعرها وهي شابة كان له مثل هذا اللون الحاد، وكانت تتسلى بتخيل أن الشابة هي حفيدتها، أو أنها هي ذاتها في مرحلة تألقها، كانت تفتح صناديقها المترعة بالكناز، وتعرض عليها الشهرة التي أصابتها وتطلعها على رسائل المعجبين الذين فقدوا سلام الروح وهدوء البال من أجلها . لقد عقدتا عهداً سرياً بينهما . إذ رجتها خوسيفينا بيانتي قائلة : يوم أبدأ بتوسيع سراويلي الداخلية أو أفقد القدرة على طلي شفتي، فساعديني على الموت يا ابنتي . ووعدها ايرين بذلك طبعاً .

قالت ايرين وهي تقود فرانثيسكو إلى الطابق الثاني عبر السلم الداخلي :
- أمي مسافرة، ولهذا سنتناول العشاء وحدنا .

كان الظلام والصمت يجيمان على الطابق العلوي ، لأن أنوار الطابق الأول لا تصل إلى هناك ، كما ان الموسيقى التي تبثها مكبرات الصوت في «مشيئة الرب» لم تعد مسموعة . كان الزائرون قد بدأوا بالانصراف ، والنزلاء بالعودة إلى غرفهم ، وأخذ سكون الليل وظلاله المميزة يعمان البيت . استقبلتها روسا ، المدينة الرائعة ، بابتسامتها العريضة في الردهة . كانت تشعر بالضعف أمام هذا الشاب الأسمر الذي يحبها بحماس ويزاحها ويبدو مستعداً للتدحرج على الأرض لمعانقة الكلبة . كانت تشعر انه أقرب إلى نفسها من غوستافو مورانتي واكثر الفة منه ، رغم انه ليس بالشخص المناسب لصغيرتها دون شك . فطوال الشهور التي عرفته اثناءها لم تره أبداً إلا بهذا البنطال الرمادي ، وهذا الخذاء ذي النعل المطاطي ، يا للأسف . وفكرت : من يلبس جيداً أهلاً به . لكنها عدلت ما فكرت فيه للحال متذكرة المثل المعاكس : المسوح لا تصنع الراهب .

وقبل ان تغوص في المطبخ قالت موصية :

- أشعلي الأنوار يا ايرين .

كانت الصالة مزينة ببساطة : سجادات عجمية ، ولوحات معاصرة ، وبعض كتب الفن الموزعة في فوضى استراتيجية . وكان الأثاث يبدو مريحاً ، وكثرة النباتات تمنح الجو نوعاً من البرودة . استقر فرانثيسكو على الأريكة مفكراً ببيت أبويه ، حيث الشيء الفخم الوحيد هو جهاز للموسيقى ، فيما كانت ايرين تفتح زجاجة نبيذ وردي .

سألها :

- بماذا سنحتفل ؟

فردت صديقه دون ان تبسم ؛

- بأن الحظ حالفنا في البقاء على قيد الحياة .

تأملها بصمت موقناً أن شيئاً قد تبدل فيها . رآها تملأ الكؤوس بيد مرتعشة ، وفي وجهها العاري من المكياج لمحة حزن . ولكسب بعض الوقت والتحقق من مشاعره ، بحث فرانثيسكو بين الاسطوانات واختار موسيقى تانغو

قديمة، وضع الاسطوانة في الحاكي وجاءها صوت غارديل الواضح عبر خمسين سنة من التاريخ. استمعا بصمت، وكل منهما يمسك بيد الآخر، إلى أن دخلت روسا لتعلن ان العشاء جاهز في غرفة الطعام.
فقال له ايرين:

- انتظر هنا. لا تتحرك. وخرجت بعد أن أطفأت الأنوار.
رجعت بعد قليل وهي تحمل شمعداناً ذا خمس شموع، بدت كروياً منبثقة من عصر آخر بعباءتها الطويلة البيضاء وبريق الشموع الذي ينعكس خطوطاً معدنية في شعرها. قادت فرانيسكو باحتفالية عبر الممر إلى غرفة كانت فيها مضى حجرة نوم واسعة، وتحولت الآن إلى غرفة للطعام. كان الأثاث كبيراً جداً بالنسبة لأبعاد الحجرة، لكن ذوق بياتريس الكانترا الصائب تجاوز هذا العائق بطلاء الجدران باللون الأحمر البومبي في تضاد دراماتيكي مع زجاج المائدة وقماش الكراسي الأبيض. واللوحة الوحيدة في الحجرة كانت تمثل طبيعة صامتة من المدرسة الفلامنكية: بصل، ثوم، بندقية صيد مسندة في أحد الأركان وثلاثة ديوك برية مترهلة ومعلقة من قوائمها.

نصحته ايرين:

- لا تتأمل اللوحة كثيراً وإلا جاءتك الكوابيس.
احتفل فرانيسكو صامتاً بغياب بياتريس وعريس المنية، وسعيداً بوجوده وحيداً مع ايرين.

- أخبريني لماذا أنت حزينة الآن يا صديقة.

- لأنني عشت حياتي حتى اليوم حاملة وأخشى ان استيقظ الآن.



كانت ايرين طفلة مدللة، ابنة وحيدة لأبوين ثريين، محمية من الاحتكاك بالعالم الخارجي، بل ومن هواجس قلبها ذاته. ملاطفات. تدليل، مداعبات،

مدرسة انكليزية للأنسات، جامعة كاثوليكية، حذر شديد من أخبار الصحافة والتلفزيون، فهناك كثير من الشر والعنف، ومن الخير ابقاؤها بعيدة عن هذه الأمور، ستعرف الألم فيما بعد، لا مفر من ذلك، فلنجعلها تعيش طفولة سعيدة اذن، نامي يا طفلي فأملك ساهرة. كلاب من سلالات ممتازة، حدائق، حصان خاص في النادي، تزلج على الثلج في الشتاء، وشاطئ البحر طوال الصيف، دروس في الرقص لتتقن التحرك برقة بدل مشيتها المتقافزة ووقوعها على الأثاث مثل بهلوان؛ دعيها وشأنها يا بياتريس، لا تزعجها، هذا ضروري، علينا ان نبنينا سليمة: صورة شعاعية للعمود الفقري، تنظيف للبشرة، طبيب نفساني لأنها حلمت يوم الثلاثاء بمستنقعات متحركة واستيقظت صارخة. انها خطيئتك يا اوسيبو، فأنت تفسدها بهدايا الحظية، والعطور الفرنسية، وبلوزات الدنتيلا، والمجوهرات غير الملائمة لطفلة في سنها. المذنبه في جعلها تافهة وضيقة الأفق هي أنت يا بياتريس، فايرين تلبس الخرق لتعبر عن عدوانيتها نحوك، لقد قال ذلك الطبيب النفسي. وأنا أقول: رغم كل العناية في تربيتها، انظر ماذا كانت النتيجة. فتاة غريبة الأطوار تسخر من كل شيء وترفض استخدام الاصبغة لتكرس وقتها للصحافة، هذه المهنة لا تعجبني، انها مهنة خبيثاء، لا مستقبل لها، بل انها مهنة خطيرة. لا بأس يا امرأة، لكننا تمكنا من جعلها سعيدة على الأقل، فهي تضحك بسهولة وقلبها فرح، وبقليل من الحظ ستعيش سعيدة إلى أن تتزوج، وبعد ذلك، حين يتوجب عليها مواجهة الحياة بنفسها، فستقول على الأقل ان ابويها منحاهما سنوات طويلة من السعادة. ولكنك ذهبت يا اوسيبو، عليك اللعنة، وهجرتنا قبل ان تكبر تماماً، وها أنذا الآن تائهة، التعاسة تتسرب من جميع مساماتي، تقطر، تغرقني، لم أعد أستطيع ايقافها وأصبحت حماية ايرين من أي أذى أكثر صعوبة، آمين. اترى عينيها؟ دائماً شاردتين، لهذا تظن روسا أنها لن تعيش طويلاً، تبدو وكأنها تودع. انظر اليهما يا اوسيبو، لم تعودا عينيها السابقتين المعهودتين، لقد امتلأتا بالظلال وكأنهما تنظران إلى بشر. أين أنت يا اوسيبو؟

قدرت ايرين حجم الكراهية الكبيرة التي تسود علاقة ابوها قبل شعورها بذلك . ففي ليالي طفولتها كانت تبقى مستيقظة تستمع إلى مشاحناتها المتبادلة ، نظرها مثبت في سقف غرفتها وجزع لا يوصف في عظامها . كانت تمتات أمها الباكية في مناجيات هاتفية طويلة مع صديقاتها تؤرقها ، فالصوت يصلها مشوهاً عبر الأبواب المغلقة وكآبة روحها . لم تكن تفهم معنى الكلمات ، لكن مخيلتها كانت تمنحها المعنى ، وكانت تدرك انها تتكلم عن ابوها . لم تكن تنام إلى أن تسمع صوت سيارته تدخل الكراج ومفتاحه يدور في الباب ، عندئذ يتلاشى كriebا ، وتتفس الصعداء ، وتغمض اجفانها لتغرق في النوم . وعندما يدخل اوسيبو بيلتران ليقبل ابنته القبلية الأخيرة لكل يوم ، يجدها نائمة ، فينصرف مطمئناً لاعتقاده انها سعيدة . وحين استطاعت الطفلة حل الرموز الصغيرة ، عرفت انه سيذهب بعيداً ذات يوم ، وهو ما حدث فعلاً في آخر الأمر . لقد كان أبوها رجلاً عابراً في الحياة ، كان عابراً على الدوام ، فهو يقف متمايلاً من جهة إلى اخرى غير قادر على السكون ، بصره يضيع في البعيد ، وينتقل من موضوع إلى آخر بشكل مفاجيء اثناء الحديث ، يسأل ولا يصغي إلى الرد . لكنه أمامها فقط كان يتخذ مظهراً ثابتاً . فايرين هي الكائن الوحيد الذي يجبه حقاً ، وهي وحدها التي جعلته يبقى لبضع سنوات اخرى . كان إلى جانبها في اللحظات الحاسمة من حياتها كامرأة ، فهو الذي اشترى لها أول مشد للصدر ، وأول جوارب النايلون ، والأحذية ذات الكعوب العالية ، وحكى لها كيف تتم عملية الحبل ، فكانت مفاجأة لايرين ، لأنها لم تستطع ان تتصور كيف أمكن لشخصين يتبادلان الحقد والكراهية كأبويها ان يفعلا ذلك ليجيئا بها إلى الدنيا .

ومع مرور الزمن أدركت ان هذا الرجل الذي تعبه قادر على ان يكون مستبداً وقاسياً ، فهو يهين زوجته باستمرار ، مشيراً لها إلى أشرأي تجميعية في وجهها ، وإلى كل كيلوغرام يزداد في خصرها ، أرأيت كيف ينظر اليك السائق يا بهاتريس؟ انت مناسبة للذوق البروليتاري يا عزيزتي . وكانت ايرين بينهما ، تمارس دور الحكم في مشادتهما التي لا تنتهي . لماذا لا تتصالحان وتأكلا الحلوى

احتفالاً بذلك؟، كانت تقول لهما متوسلة . وكان قلبها يميل لصالح الأب ، لأن علاقتها بأبها كانت تتسم بالمنافسة . فيياتريس تراقب تكونها الأنثوي وتراجع حساباتها عائدة إلى الزمن الذي كانت فيه في مثل سنها . رباه ، عساها تتوقف عن النمو!

لقد فتحت الفتاة باكراً على اندفاعات الحياة . ففي الثانية عشرة كانت تبدو أصغر من سنها ، ولكنها كانت قد تعرضت لهزات داخلية وقلق مغامرات . وكثيراً ما كانت تلك الانفعالات العاصفة تعكر أحلامها وتبعث الحمى في أيامها . كانت قارئة نهمة دون تحفظ ، رغم عين أمها المتيقظة المراقبة ، فهي تضع يدها على أي كتاب تحصل عليه ، أما تلك الكتب التي لم تكن تستطيع اظهارها أمام بياتريس ، فكانت تقرأها في منتصف الليل تحت شرشف السرير ، مستخدمة للاضاءة مصباحاً يدوياً . وبهذا توصلت إلى معلومات أكثر من تلك التي تصل إليها في العادة فتاة من وسطها ، وعوضت بالخيال الرومنسي ما كانت التجربة تحرمها منه .

كان اوسيبوييلتران وزوجته مسافرين يوم سقط الوليد من كوة النور . لقد مضت على هذا الحدث سنوات ، لكن روسا وايرين لن تنسياه مطلقاً . ذهب السائق يومها لاحضار الطفلة من المدرسة وتركها عند باب الحديقة ، فقد كان عليه أن يؤدي مهمات اخرى . كان المطر قد هطل طوال ذلك اليوم ، وصار لون سماء الشتاء في تلك الساعة كلون الرصاص المذاب ، فيما كانت أنوار الشارع تضاء . فوجئت ايرين حين رأت بيتها غارقاً في الظلام ، دون أي ضوء ، والصمت يخيم عليه . فتحت الباب بمفتاحها واستغربت لأن روسا ليست في انتظارها كعادتها ، وليست تستمع إلى تمثيلية الساعة السادسة من المذياع . وضعت كتبها على طاولة المدخل وتقدمت في المردون أن تضيء المصابيح . دفعها هاجس غامض وضبابي للتقدم إلى الأمام . انسلت على رؤوس أصابعها ملتصقة بالجدران ، ومنادية على روسا بكل ما في ذهنها من قوة . كانت الصالة خاوية ، وكذلك غرفة الطعام والمطبخ . ودون أن تتجرأ على مواصلة التقدم ، وقفت تستمع إلى الطبل الذي

يدق في صدرها، محاولة البقاء دون حراك، بل ودون تنفس إلى أن يرجع السائق . حاولت أن تشجع قائلة لنفسها انه ليس هناك ما يخيفها، وأن مربيته ريبا تكون قد خرجت من البيت أو نزلت إلى القبو. ولأنها لم تبق وحيدة في البيت من قبل، فقد منعها الاضطراب من التفكير بوضوح . ومع مرور الدقائق راحت تنحني إلى ان وجدت نفسها منزوية في الركن، وحين أحست بالبرد في قدميها تنهت إلى أن جهاز التدفئة لا يعمل، فتوقعت عندئذ حدوث أمر خطير، لأن روسا لم تكن تهمل واجباتها أبداً . حسمت أمرها لتقصي ما حدث، وتقدمت ببطء إلى أن سمعت أول التأوهات . توترت جميع أعصابها، واختفى الرعب ليقود الفضول خطواتها نحو جناح الخدم، حيث كان محظوراً عليها الدخول . هناك توجد آلات تسخين الماء، وغرف الغسيل والكوي، ومستودع الخمر والمؤونة . وفي نهاية الممر كانت غرفة روسا، ومنها كان يأتي النحيب المختنق . وبتجاهها سارت مفتوحة العينين والقلق ينبض في وجنتيها . لم ترضوءاً من فرجة الباب، وصورت لها تخيلتها مشاهد من الرعب، فتواردت القراءات المحظورة إلى ذهنها مثل شحنة من الفزع والعنف : في البيت لصوص، وروسا ملقاة على السرير مقطوعة العنق؛ وفثران ضارية هاربة من القبوتلتهمها؛ روسا مقيدة القدمين واليدين ومهوس يغتصبها، كما قرأت في قصة أعمارها إياها السائق . لكنها لم تتصور أبداً مارأته لدى دخولها .

أدارت ايرين قبضة الباب بحذر ثم دفعته ببطء . أدخلت يدها، ولمست الجدار بحثاً عن مفتاح النور وأشعلته . وأمام عينيها المبهورتين من الضوء المفاجيء، بدت مربيته البدينة والحبيبة روسا، منهارة على كرسي وفسانها مرفوع إلى وسطها وساقاها السمراوان المغمدتان في جوربين من الصوف يصلان إلى ركبتيها، ملطختين بالدم . كان رأسها مائلاً إلى الوراء وجهها منهوكاً من الألم . وعلى الأرض، بين قدميها، كانت تجثم كتلة حمراء ملفوفة بمصران أزرق طويل وملتو.

ما ان رأتها روسا حتى قامت بانزال ملابسها لتستر بطنها وحاولت النهوض

دون جدوى .

- روسا، ماذا أصابك؟

- هيا يا صغيرتي! اخرجي من هنا!

سألتهما إيرين وهي تشير إلى الأرض:

- ما هذا؟ دنت الطفلة من مربيتها، احتضنتها بذراعيها، ومسحت

الحرق عن جبهتها بمريلتها المدرسية وغمرت خدها بالقبلات. ثم سألتها أخيراً:

- من أين خرج هذا الطفل؟

فردت روسا مشيرة إلى فتحة التهوية التي في السقف:

- سقط من فوق، من كوة النور. سقط على رأسه ومات، لهذا هو مغطى

بالدم.

انحنى إيرين لتفحصه وتأكدت من أنه لا يتنفس. لم تجد ضرورة لتوضح
انها تعرف شيئاً حول هذه الأمور وانها قادرة على ان تحدد بدقة انه جنين في الشهر
السادس أو السابع، وأنه يزن حوالي كيلوغراماً ونصف، جنسه ذكر، وسبب
ازرقاقه يرجع إلى نقص الاوكسجين، وانه ربما يكون قدمات قبل الولادة.
الشيء الوحيد الذي فاجأها هو انها لم تلمح حالة الحمل من قبل، ولكنها عزت
ذلك إلى سمته مربيتها، التي يمكنها أن توارى انتفاخاً بين كتل جسدها
اللحمية.

- ماذا سنفعل يا روسا؟

- آه يا صغيرتي! يجب ألا يعلم أحد بهذا الأمر، هل تقسمين لي انك لن

تخبري أحداً؟

- أقسم لك.

- هيا نلق به إلى القمامة.

- مؤسف أن ينتهي هكذا يا روسا. فهو ليس مذنباً لسقوطه من كوة النور. لماذا

لا ندفنه؟

وهذا ما فعلته. ما ان تمكنت المرأة من النهوض، والاعتسال واستبدال

ملابسها، حتى وضعتا الوليد في كيس من أكياس السوق، وختمتاه بشريط

لاصق. خبأتا كيس الرفات البلاستيكي حتى الليل، وبعد أن تأكدتا من أن السائق قد نام، حملتاها إلى الحديقة لتدفنانه. حفرتا حفرة عميقة، وضعتا في قاعها الكيس والكتلة الخامدة التي فيه، وطمرتاها بحذر، ثم وطأتا التراب ورددتا فوقه إحدى الصلوات. بعد يومين من ذلك اشترت إيرين نبتة لا تنسني وزرعتها حيث يرقد الوليد الذي سقط من كوة النور. ومنذ ذلك الحين أحستا انهما متحدتان بالاشتراك في مؤامرة كبيرة، يجمعها سر لن تكشفه أي منهما لسنوات طويلة، وصار السرمالوفاً بينهما حتى أنه بدأ يظهر مصادفة في أحاديثهما. ولم يهتم أحد من في البيت بتقصي ما تعنيه. كان كل جنائني جديد يتلقى وصية الفتاة بالاعتناء بنبتة اللاتسني، وفي فصول الربيع، حين تتفتح أزهارها الصغيرة، كانت تقطفها لتصنع منها باقة تضعها في غرفة مريبتها.

بعد ذلك بوقت قصير، اكتشفت إيرين أثناء لعبها مع ابن عمها غوستافو أن للقبيلات طعم الفواكه وأنه يمكن لأكثر المداعبات خراقة وغرارة أن تلهب الحواس. كانا يختبئان لتبادل القبل، موقظين الرغبة الكامنة فيهما. وقد احتاجا لبضعة أصياف قبل أن يصلا إلى المتعة القصوى، وذلك لخوفهما من العواقب ولتصلب الفتى الذي لقنوه وعلموه أنه يوجد صنفان من النساء: المحترمات الجديرات بالزواج منهن والآخرى لمضاجعتهن. وكانت ابنة عمه تنتمي إلى الصنف الأول. ما كانا يعرفان شيئاً عن وسائل منع الحمل، وفيما بعد فقط، عندما علمت حياة الثكنة القاسية الشاب وظائف الرجال، وأكسبت أخلاقه بعض المرونة، استطاعا ممارسة الحب دون خوف. ثم نضجا معاً خلال السنوات التالية، ولم يعد الزواج سوى أمر شكلي لمن اتفقا على شؤون المستقبل.

على الرغم من وجود خطيبتها ولقائنها الساحر بالحب، فقد بقي مركز الكون بالنسبة لها هو أباهما. كانت تعرف فضائله ونقائصه الكبيرة. فقد فاجأته في عدد لا يحصره من الخيانات الزوجية والأكاذيب، رآته جباناً وخاسراً، ولمحته وهو يلاحق بعيني كلب سبق النساء الأخريات. لم تكن لديها أوهاام بشأنه، لكنها كانت تحبه حباً عميقاً. وفيما كانت تقرأ في غرفتها في مساء أحد الأيام، أحسبت به قريباً منها. وقبل

أن ترفع نظرها لتراه، علمت انها زيارة الوداع . رأته واقفاً عند الباب وأحست كأن ما تراه ليس إلا شبحه، وانه ليس هناك، وانما محمواً، بالطريقة التي كانت تخشى حدوثها دوماً .

قال اوسيبو وهو يقبل جبهتها:

- سأخرج للحظة يا بنيتي .

فردت الفتاة وهي موقنة من أنه لن يرجع :

- وداعاً يا أبتاه .

وكان هذا ما حدث . لقد مضت أربع سنوات، ولكنها من خلال آلية عزاء مهلهلة لم تعتبره ميتاً، مثلما اعتبره الآخرون . كانت تعلم أنه حي، وكان ذلك يمنحها بعض الطمأنينة، ويجعلها تتصوره سعيداً كذلك في حياة جديدة . لكن رياح العنف التي راحت تصفع عالمها الآن ملأتها بالشكوك . كانت خائفة عليه .



انتهى الصديقان من تناول العشاء . كانت صورتاهما تنعكسان على جدران الحجر في ظلين عاليين يهتران مع ارتعاشة ضوء الشموع . كانا يتكلمان بما يشبه الهمس ليحتفظا بحميمية هذه اللحظات . روت ايرين لفرانثيسكو قصة صفقة اللحوم الخيرية المؤثرة وخلص هو إلى الاستنتاج بانه لن يفاجأ بأي تصرف من تصرفات هذه الأسرة .

قالت ايرين :

- بدأ كل شيء عندما تعرف أبي على مبعوث عربي .

كانت مهمة الرجل الموفد من حكومته هي شراء الأغنام . عرفوه على اوسيبو بيلتران في حفل استقبال أقامته سفارة المبعوث، وللحال أصبحت صديقين، فكلاهما يعيش حياة يلهبها الميل الجامح نحو النساء الجميلات والحفلات الممتعة . بعد تلك المأدبة، دعاه والد ايرين لمواصلة الحفلة في بيت

احدى السيدات، حيث اكتملا احتفالهما بالشمبانيا والنساء المرتزة إلى أن انتهيا في ليلة حمراء صاحبة يمكن لها أن تودي بأشخاص آخرين عديمي الخبرة إلى الجحيم . استيقظا في اليوم التالي وقد انقلبت معدتاهما وتشوش ذهنهما، لكنها ما لبثا أن انبعثا بعد حمام دافئ وحساء محار كثيف وساخن . لم يكن العربي ، كمسلم فاضل ، معتاداً على تناول المسكرات، فعانى من أثر الخمرة، وكان لا بد لاوسيبو من مرافقته والتسرية عنه ومتابعته بالعلاج الطبيعي في مثل هذه الحالة : دعك جبهته بالكافور ووضعه كمادات باردة عليها . وعند الظهر صارا أخوين ، وكانا قد باحا لبعضهما بأسرار حياتيهما . حيثئذ نصح الاجنبي اوسيبو بان يتولى تجارة الأغنام ، لأن في الصفقة أطنان من المال لمن يحسن كسبها .

ضحك بيلتران :

- لم أر في حياتي نعجة على الطبيعة، ولكنها إذا كانت مثل الأبقار أو الدجاج فلن أجد أية صعوبة .

كانت تلك هي بداية صفقة ستقوده إلى الإفلاس وإلى نسيان نفسه ، كما تكهنت زوجته قبل وقت طويل من حصولها على أدلة معقولة لتفترض ذلك . سافر إلى أقصى جنوب القارة، حيث تتكاثر المواشي ، وياشر في اقامة مسلخ وبراد، موظفاً في المشروع جزءاً كبيراً من ثروته . وحين صار كل شيء جاهزاً، وصل رجل دين مسلم ، مبعوث من قلب أرض العرب لمراقبة العمل ، وليتم كل شيء حسب شريعة القرآن . كان عليه أن يصلي متجهاً نحو مكة عند ذبح كل نعجة وأن يتأكد من أنها قد دُبِحَت بجرة واحدة من السكين وأن دمها قد نَزَفَ كله كما تقتضي الطهارة المحمدية . وبعد تطهير جثث المواشي وتنظيفها وتجميدها ، كانت تُرسل بطريق الجو إلى وجهتها الأخيرة . في الأسابيع الأولى ، تمت الاجراءات بالصرامة المناسبة ، لكن الإمام ما لبث أن فقد حماسه الذي بدأ به . وذلك لافتقاره إلى الحوافز . إذ لم يكن بين من يحيطون به أحد يدرك أهمية مهمته ، بل لم يكن هناك من يحسن الحديث بلغته أو من قرأ كتابه المقدس . وكان الوضع على العكس من ذلك تماماً ، فهو محاط بأجانب ساقلين يضحكون من ذقنه ويقومون بحركات بذيئة

ويسخرون منه اثناء تأديته تراثيله العربية . لقد أخذ المناخ الجنوبي ، والحنين ، وعدم التفهم الثقافي من حماسه ، ثم لم يلبث ان انكسر ، فنصححه اوسيبوييلتران ، العملي دوماً ، بان يسجل تراثيله على جهاز تسجيل يعمل بالبطارية ، كي لا يتوقف العمل . اعتباراً من هذه اللحظة أصبح انحدار الامام واضحاً لكل ذي عين بصيرة . ووصل به التشوش إلى حدود مخيفة ، فلم يعد يهتم بالحضور إلى المسلخ ، وغلب عليه الكسل ، ولعب القمار ، والنوم ، ورذيلة شرب الخمر ، وكلها أمور محرمة في ديانته . ولكن لا أحد يتمتع بالكمال ، كما كان يقول صاحب المسلخ ليواسيه حين يجده نادماً على بؤسه البشري .

كانت الأغنام تذهب مجمدة وباردة كأحجار قمرية ، دون ان ينتبه أحد إلى انها لم تتخلص من نجاستها عبر الوريد وأن آلة التسجيل كانت تصدح باغنيات البولير والرائشيرا بدلاً من الصلوات اللازمة . وما كان للأمر أن يؤدي إلى نتائج ذات بال ، لولا ان الحكومة العربية المعنية أرسلت ، دون سابق انذار ، مفوضاً لمراقبة الشريك الاميركي الجنوبي . في اليوم الذي زار فيه المفتش مكان الأحداث وتأكد من الطريقة التي يتم بها اهمال تعاليم القرآن ، وضع حداً لصفقة الخراف المزدهرة ووجد اوسيبوييلتران نفسه مع امام محمدي في ذروة الندم ، وبين يديه جبل من الأغنام المجمدة التي لا وجود لسوق يشتريها لأن لحمها لم يكن مرغوباً في البلاد . فكان أن برز حينئذ ذلك المظهر الرائع من شخصيته . إذ انتقل مع بضاعته إلى العاصمة ، وراح يجوب الأحياء الفقيرة في سيارة شاحنة ليوزع اللحوم على من هم بأمس الحاجة اليها . كان واثقاً من أن مبادرته ستجعل بعض كبار التجار يشعرون بالاهانة ، فيسعون إلى محاكاته ، ويتبرعون كذلك بجزء من منتجاتهم إلى المعوزين . ووصل به الأمير إلى الحلم بسلسلة متماسكة مؤلفة من أصحاب الأفران ، وتجار الخضار ، وأصحاب متاجر السمك والمؤن ، ومنتجي المعجنات ، وتجار الأرز والساكر ، ومستوردي الشاي والقهوة والشوكولاته ، وصانعي الملبات والمشروبات والأجبان ، أي أن كل صناعي وتاجر سيقدم جزءاً من أرباحه لتسكين الجوع الذي يداهم المحرومين والأرامل والأيتام والعاطلين وغيرهم من البائسين .

لكن شيئاً من ذلك لم يحدث . فالجزارون اعتبروا لفتته تهريجاً وتجاهلها الآخرون ببساطة . ولأنه واصل صليبيته بحماس رغم كل شيء ، فقد تلقى التهديد بالموت لأنه يدمر تجارتهم وسمعتهم كتجار شرفاء . اتهموه بالشيوعية ، ففاقم ذلك من عصبية بياتريس الكانترا المحبطة ، والتي احتاجت لصلابة عالية كي تتحمل شذوذات زوجها ، ولكن ليس لتحمل صدمة اتهام بهذه الخطورة . كان اوسيبو ييلتر ان يوزع بنفسه أفخاذ الأغنام وظهورها في شاحنة علقت على جانبيها اعلانات كبيرة وزودت بمكبر صوت يعلن عن مبادرته . وسرعان ما وجد نفسه محاطاً بالشرطة وبالقنلة المأجورين . فرجال الأعمال المنافسين كانوا عاقدين العزم على القضاء عليه . شهروا به وهددوه بالقتل وأرسلوا إلى زوجته رسائل مغفلة تتضمن سفالات لا تصدق . وعندما ظهرت شاحنة «الملحمة الخيرية» في التلفزيون ، وتحول صف البائسين إلى حشد يستحيل على خفراء الأمن العام ضبطه ، فقدت بياتريس الكانترا آخر قشة من البر وقذفت في وجهه كل ما جمعت طوال حياة من الضغينة . فذهب اوسيبو دون رجعة .

قالت ايرين :

- لم أشعر أبداً بالقلق على أبي يا فرانيسكو . كنت واثقة من أنه قد هرب من أمي ، ومن دانيه ، ومن الأغنام اللعينة التي بدأت تتعفن دون أن يجد لها وجهة . لكنني الآن أشك في كل شيء .

صارت تشعر بالخوف في الليل ، حين تظهر لها في أحلامها أجساد مستودع الجثث الزرقاء ، وخابيير ليال المعلق مثل ثمرة على شجرة الاكاسيا في حديقة الأطفال ، وصفوف النسوة اللانهائية عمّن يسألن عن رجالهن المفقودين ، وايفانخيلينا رانكيليو الحافية وبقميص النوم وهي تنادي من الظلال ، وبين جميع هذه الأشباح الغريبة كانت ترى كذلك أباه غارقاً في مستنقعات الحقد .

تنهدت ايرين :

- ربما انه لم يهرب ، وانما قتلوه أو اعتقلوه ، كما تظن أمي .

- ليس من سبب منطقي يحمل على الظن بوقوع رجل في مثل مكانته
ضحية للشرطة .

- ليس للمنطق علاقة بكوايبيسي ، ولا بالعالم الذي نعيش فيه .
أثناء حديثها دخلت روسا لتعلن ان هناك امرأة تسأل عن ايرين ، وان
اسمها هو ديغنا رانكيليو .



كانت ديغنا تحمل عبء الزمن على كاهلها ، وكانت عيناها قد ابيضتا
لكثرة ما راقبت الطريق منتظرة . اعتذرت لمجيئها في مثل هذه الساعة المتأخرة
وأوضحت انها انما تصرفت بدافع اليأس . لأنها لا تعرف من توجه اليه . وحيث
انها غير قادرة على ترك الأولاد وحدهم ، فقد كان يستحيل عليها أن تسافر في
النهار ، لكن ماميتا انكارناثيون أبدت استعدادها للبقاء مع الصغار تلك الليلة ،
فأتاحت لها طيبة القابلة أن تركب الحافلة إلى العاصمة . رحبت ايرين بها ، وقادتها
إلى الصالة وقدمت لها شيئاً تأكله ، لكنها لم تقبل سوى فنجاناً من الشاي .
جلست على حافة الكرسي منخفضة بصرها ، وممسكة في حضنها بكيس مهترىء
أسود اللون . كانت تضع شالاً على كتفيها ، ولم تكن تنورتها الصوفية الباهتة
لتغطي نهاية جوربيها المطويين عند الركبتين . كان لا بد لها من بذل الجهد للتغلب
على خجلها .

- هل توصلت إلى شيء عن ايفانخيلينا يا سيدتي؟
نفث الأم ذلك بحركة من رأسها ، وقالت بعد صمت طويل انها تعتبرها
مفقودة وان الجميع يعلمون ان البحث عن المفقودين مهمة لا تنتهي أبداً . وانها لم
تأت من أجلها ، وانما من أجل براديليو ، ابنها الاكبر . وخفضت صورتها إلى ما
يشبه الهمس غير المسموع وقالت معترفة :
- إنه مختبىء .

كان قد فر من الثكنة . وبسبب حالة الحرب القائمة ، فان الفرار من الخدمة

قد يكلفه حياته . لقد كان هجر سلك الشرطة في زمن آخر لا يكلف المرء سوء بعض الاجراءات البير وقرابية . أما الآن ، فحراس الشرطة يشكلون جزءاً من القوات المسلحة ، وهم يقومون بالمهام نفسها التي يقوم بها الجنود في ميدان المعركة . كان براديليو رانكيليو في وضع حرج ، لأنه سيلقى مصيراً سيئاً إذا ما ألقوا القبض عليه ، هذا ما ادركته أمه حين رآته وهو مثل حيوان مُطارَد . كان زوجها هيبوليتو هو الذي يتخذ القرارات الهامة في البيت ، لكنه التحق للعمل بأول سيرك نصب خيمته في المنطقة . فما ان يسمع نداء الطبل معلناً عن أي استعراض ، حتى يُخرج حقيته التي تضم لوازم مهنته ، ويلتحق بالفرقة منطلقاً في جولات عبر القرى والضياع ، ويصبح من الصعب العثور عليه . لم تتجراً ديغنا كذلك على الحديث عن مشكلتها مع أناس آخرين ، بقيت في صراع مع القلق لعدة أيام ، إلى ان تذكرت حديثها مع ايرين بيلتران واهتمام الصحفية بالمحنة التي تجثم على بيت آل رانكيليو . وفكرت بانها الكائن الوحيد الذي يمكنها التوجه اليه .

قالت هامسة :

- يجب اخراج براديليو من البلاد .

- لماذا فر من الخدمة؟

لم تكن الأم تعرف السبب . فقد جاء إلى البيت في أحد الأيام ، كان شاحباً ومنهوكاً ، بدلته العسكرية ممزقة ، ونظراته كنظرات مخبول . رفض التكلم . كان جائعاً جداً ، وبقي يأكل بشراهة لوقت طويل ، مالتاً فمه بكل ما يجده في المطبخ : بصل نيء ، قطع كبيرة من الخبز ، لحم قديد ، فواكه ، شاي . وعندما شبع أسند ذراعيه إلى الطاولة ، وأخفى رأسه بينهما ، وغفا مثل طفل صغير من الانهاك . حرس ديجنا نومه . وبقيت إلى جانبه لأكثر من ساعة وهي تتأمله لتتخيل الطريق الطويل الذي قاده إلى تلك الحالة من الاستنزاف والخوف . ولم يشأ براديليو عندما استيقظ ان يرى اخوته ليحول دون أن يشوا به في لحظة سهو . كان ينوي الهرب إلى الجبال حيث تعجز حتى النسور من العثور عليه . وقال ان غرضه الوحيد من الزيارة هو وداع أمه واخبارها بانها لن يعودا إلى اللقاء ، لأن لديه مهمة يود تنفيذها

حتى لو كلفه ذلك حياته، وبعدها سينتهز فصل الصيف ليجتاز الحدود من أحد الممرات الجبلية. لم توجه ديفنا رانكيليو أسئلة اليه، لأنها تعرف ابنها: فهو لا يطلعها، ولا يُطلع أحداً على أسراره فاكثفت بتذكيره أن محاولة اجتياز الحدود دون دليل بين هذه الجبال اللامتناهية هو عمل جنوني، حتى ولو كان الجوجيداً، لأن كثيرين يضيعون في تلك الأماكن الوعرة ويهيمون على وجوههم إلى أن يفاجئهم الموت، فتغطيهم الثلوج ويختفون حتى الصيف التالي، حين يصطدم مسافر ببقاياهم. نصّحته بالتواري عن الأنظار إلى أن يملوا البحث عنه أو أن يرحل إلى الجنوب، حيث يمكنه الهرب عبر الجبال الواطئة بسهولة أكبر.

فقاطعها براديليو:

- دعيني وشأني يا أماء. سأفعل ما عليّ عمله وبعد ذلك سأسافر كما أستطيع.

انطلق إلى الجبل يقوده خائيتتو، الأخ الأصغر الذي يعرف هذه الجبال كما لا يعرفها أحد سواه. واختبأ في القمة، حيث صار يتغذى بالسحالي والقوارض والجذور وبيع بعض الطعام الذي يحمله اليه أخوه الصغير بين الحين والآخر. رضخت ديفنا لمشيئته بتفريير مصيره بنفسه، ولكن حين فتش الملازم راميريث المنطقة بيتاً بيتاً بحثاً عنه، متوعداً من يتسرون عليه وعارضاً مكافأة لمن يساعد في القبض عليه، وحين جاء الرقيب فاوستينوريفيرا إلى بيتها في احدى الليالي، وهو بالملابس المدنية، ليحذرهما هامساً إذا كانت تعرف مخبأ الهارب لتخبره أنهم سيمشطون الجبال إلى ان يجدوا مكانه، فقررت الأم حينئذ ألا تنتظر اكثر. وقالت موضحة:

- الرقيب ريفيرا من العائلة تقريباً، وكان لا بد له من أن يحذرنى.

ان فكرة خروج الابن إلى بلد آخر، بالنسبة لمزارعة أمضت حياتها كلها في المكان الذي ولدت فيه، ولم تعرف سوى القرية القريبة، تبدو فكرة مستحيلة التحقيق مثلها مثل اخفائه في قاع البحر. لم يكن بإمكانها ان تتصور ان حجم العالم يصل إلى أبعد من الجبال التي تلوح في الأفق، لكنها كانت تخمن ان الأرض

تمتد إلى مناطق يدور الحديث فيها بلغات اخرى، حيث يعيش أناس من أجناس مختلفة وفي مناخات غريبة، هناك حيث يصبح من السهل فقدان التوجه الصحيح، ويتلع سوء الطالع المرء. لكن الذهاب إلى هناك أفضل من الموت على أي حال. كانت قد سمعت عن المنفيين، وهو موضوع صار يتردد بكثرة في السنوات الأخيرة، وكانت تأمل في مساعدة ايرين لتأمين لجوء براديليو إلى بلد اجنبي. حاولت الشابة أن توضح لها المصاعب التي لا يمكن تجاوزها لتحقيق هذه الفكرة، وانه لا يمكن مغافلة الحراس المسلحين، والقفز على سور حديدي والدخول دون مجازفة إلى بناء احدي السفارات، حيث لا يوجد أي دبلوماسي مستعد لتقديم الحماية الى عنصر فار من القوات المسلحة، وأسباب فراره غامضة. ورأت أن الحل الوحيد هو الاتصال برجال الكردينال.

فقال فرانثيسكو عارضاً معونته:

- يمكنني الاستعانة بشقيقي خوسيه. لكنه قال ذلك دون حماس، لأنه غير مستعد للمغامرة باطلاع رجل عسكري على سر منظمته، حتى ولو كان هذا العسكري هو مجرد شرطي بائس يطارده رفاقه. ثم أضاف قائلاً: - للكنيسة أساليب خفية في الانقاذ، لكنها تطالب بمعرفة الحقيقية يا سيدتي، انني بحاجة للتحدث إلى ابنك.

أوضحت له ديغنا انه متوار في كهف في الجبال، على ارتفاع يصعب التنفس فيه، وللوصول اليه لا بد من تسلق منحدر لا يمكن للماعزان ان تتسلقه، والبحث فيه عن موطىء قدم بين الأحجار والأشواك. ليس الوصول اليه بالنزهة السهلة، فالطريق طويل وشاق لمن هو غير معتاد على التسلق.

قال فرانثيسكو:

- سأحاول.

فقررت ايرين:

- إذا أنت ذهبت، فسأذهب معك.

استلقت المرأة في تلك الليلة على الفراش الذي أعدته لها ايرين على

عجل ، وأمضت الساعات وهي تتأمل السماء الصافية بعينين ذاهلتين . وفي اليوم التالي انطلق الثلاثة إلى لوس ريسكوس في سيارة بياتريس ، بعد أن أحضرت الفتاة من مستودع المؤونة كيساً من المؤن لبراديليو . ألمح فرانيسكو إلى صعوبة تسلق الجبل مع هذا الحمل الرهيب ، لكنها تطلعت إليه ساخرة ، فلم يلح على الأمر .

أثناء الطريق روت لهما الأم كل ما توصلت إليه عن مصير ايفانخيلينا المشؤوم ، منذ اللحظة التي قادها فيها الملازم والرقيب إلى سيارة الجيب ليلة الأحد التي لا تنسى . انطلقت صرخات الصبية في البراري منبهة الظلال إلى أن أطبقت فمها صفعه قوية جعلتها تتوقف عن الرفس والصرخ . وفي مقر الشرطة رآهم عريف الحرس عند وصولهم ولم يتجرأ على السؤال عن المعتقلة ، مكتفياً بالنظر إلى ناحية أخرى . وفي اللحظة الأخيرة ، حين شدّها الملازم بقوة جعلتها تقفز في الهواء وحملها إلى مكتبه ، أحس الرقيب بالأسى وتجراً على الطلب منه أن يراف بها ، لأنها مريضة ولأنها كذلك أخت رجل من رجال الموقع ، لكن رئيسه صفق الباب في وجهه ولم يسمح له بمواصلة الكلام ، فانطبق الباب على طرف قميص نوم الفتاة الأبيض ، وبقيت مزقة منه معلقة هناك مثل حمامة جريحة . انطلق بكاء دام لحظة ثم ساد الصمت .

كانت ليلة بلا نهاية بالنسبة للرقيب فاوستينوريفيرا . لم ينم لأنه أحس بقلبه مثقلاً . تسلى بالتحدث إلى عريف الحرس ، وتجول في الموقع ليتأكد من أن كل شيء على ما يرام ، ثم مضى ليجلس تحت افريز سطح اصطبل الخيول ويدخن سجائره القوية ذات التبغ الأسود ، يلفحه نسيم الفصل الدافئ ، ويشم رائحة ازهار الاشواك البعيدة والرائحة الأخرى المنبعثة من روث الخيل الطازج . كانت ليلة مفعمة بالنجوم ومنيرة ، يلفها صمت مطبق . وبقي هناك لوقت طويل دون أن يعرف سبب انتظاره ، ورأى ظهور أول بوادر الفجر ، التي يلحظها أولئك الذين ولدوا على اتصال مع الطبيعة واعتادوا الاستيقاظ مبكرين . وفي الساعة الرابعة وثلاث دقائق بالضبط ، كما قال لديغنا رانكيليسو ، وأعاد قوله فيما بعد دون ان

تتمكن التهديدات من اسكاته، رأى الملازم خوان دي ديوس راميريث يخرج وبين يديه حمل ثقيل . ورغم بعد المسافة وانتشار الظلام إلا انه لم يشك في انها ايفانخيلينا . كان الملازم يترنح قليلاً، ولكن ليس بسبب السكر، لأنه لا يشرب على الاطلاق في ساعات الخدمة . كان شعر الفتاة الطويل يكاد يلامس الأرض، ولدى مروره في المرمر المفروش بالحصى والمؤدي إلى المرآب، لامست أطراف الشعر الحصى . وسمع ريفيرا من مكانه أنفاس الملازم المضطربة وأدرك أن ذلك لم يكن نتيجة الجهد الذي يبذله، لأن جسد المعتقلة النحيل كان خفيفاً بالنسبة له، هو الضخم ذو العضلات والمعتاد على ممارسة التمارين الرياضية . لقد كان يتنفس مثل منفاخ بسبب عصبيته . رآه يضع الفتاة على المنصة الاسمنتية التي يستخدمونها في افرغ شحنات المؤونة . كانت أنوار الكشافات تدور طول الليل في أعلى برج المراقبة تحسباً لهجمات محتملة، فأضواء لدى مرورها وجه ايفانخيلينا الطفولي . كانت عيناها مغمضتين، ولكنها ربما كانت على قيد الحياة، لأنه بدا للرقيب أنها تن . اتجه الملازم إلى الشاحنة الصغيرة البيضاء، فصعد إلى مقعد القيادة وأدار المحرك، ثم رجع ببطء نحو المكان الذي ترك فيه الصبية . نزل، وحملها بين ذراعيه ليضعها في القسم الخلفي من السيارة، في الوقت الذي كانت فيه حزمة نور الكشاف تكس المكان . وقبل ان يغطيها الملازم بقطعة مشمع، رأى فاوستينوريفيرا ايفانخيلينا ملقاة على جانبها ووجهها مغطى بشعرها فيما قدماها الحافيتان تطلان من بين ثنايا العباءة . رجع رئيسه إلى المبنى، واختفى وراء باب المطبخ ليعود للظهور بعد لحظة وهو يحمل رفشاً ومعولاً وضعها إلى جانب الفتاة . صعد اثر ذلك إلى الشاحنة وتوجه بها نحو المخرج . تعرف حارس البوابة على قائده، فحياه بصرامة وفتح الباب الثقيل . وابتعدت السيارة على الطريق باتجاه الشمال .

انتظر الرقيب فاوستينوريفيرا مراقباً ساعته، ودخن سيجارتين وهو يجلس القرفصاء في ظل الاصطبلات . كان يتحرك بين الحين والآخر لينشط ساقه، وغلبه النعاس للحظة، فغفا مستنداً إلى الجدار . ومن موقعه كان قادراً على رؤية

كوخ الحارس ، حيث كان العريف اغناسيو برافويمارس العادة السرية للتخلص من السم ، دون أن يرتاب بوجوده قريباً منه . عند الفجر انخفضت درجة الحرارة وأبعدت البرودة النعاس عن عينيه . وحين رجعت الشاحنة كانت الساعة تشير إلى السادسة ، وكان الأفق قد اصطبغ بألوان الفجر .

سجل الرقيب فاوستينوريفيرا كل ما شاهده في الدفتر الصغير المهترىء الذي يحمله معه دوماً . كان مهووساً بتدوين الاحداث الهامة والتافهة ، دون ان يتصور أن ذلك سيكلفه حياته بعد بضعة اسابيع . راقب من مخبئه الضابط وهو ينزل من السيارة ويشد أحزمته وقراب مسدسه ثم يتجه إلى المبنى . دنا الرقيب من الشاحنة ، ولمس الرفش والمعول وتأكد من وجود تراب طازج على حوافهما . لم يدر ما معنى ذلك ولا ما الذي فعله الضابط أثناء غيابه ، حسبما قال لديغنا رانكيليو ، ولكن بإمكان أي كان أن يخمن الأمر .

توقفت السيارة التي كان يقودها فرانثيسكوليال أمام بيت آل رانكيليو . خرج جميع الصبيان ليحيوا أهمهم والزائرين ، لأن أحداً منهم لم يذهب إلى المدرسة . ومن ورائهم برزت ماميتا انكارناثيون بصدرها الذي يشبه صدر حمامة ، وشعرها القاتم المظفور فوق رأسها المثبت بدبوس ، وساقها الملونتين والمصابتين بالدوالي . . انها عجوز رائعة ، واجهت كوارث الحياة بعزيمة ورباطة جأش .

قالت لهم :

- تفضلوا واستريحوا في الداخل ، سأقدم لكم الشاي .



قادهما خائنتو إلى مكان براديليو ، فهو الوحيد الذي يعرف مخبأ أخيه ويدرك ضرورة حفظ هذا السر ولو كلفه ذلك حياته . أسرجوا الحصانين اللذين يملكهما آل رانكيليو ، وركب الصغير مع ايرين على فرس بينما امتطى فرانثيسكو بهيمة اخرى قاسية الملامح وعصبية . لم يكن قد ركب جواداً منذ زمن طويل ، فكان يشعر

وهو على صهوتها بعدم الأمان . انه قادر على ركوب الخيل دون فن ، ولكن بثبات ، ذلك انه كان يتردد في طفولته على بستان أحد الأصدقاء ، حيث تألف مع الفروسية . أما ايرين ، فهي فارسة مجربة ، لأنها كانت تملك فرسها الخاصة في حقبة الوفرة الاقتصادية لأبويها .

اتجهوا نحو سلسلة الجبال ، صاعدين درباً وعرأً ومقفرأً لا يستخدمه أحد في الأحوال العادية ، مما جعل ملاحه شبه مطموسة . وبعد مسيرة قصيرة أخبرهما خائيتوبانهم لا يستطيعون مواصلة التقدم على الدابتين ، وانه عليهم الصعود بين الأحجار باحثين عن التواءات الصخرية ليستندوا عليها . وربطوا البهيمتين إلى بعض الأشجار وبدأوا الصعود مشياً على الأقدام ، يساعد احدهم الآخر في المنحدرات الوعرة . كانت حقيبة المعلبات تثقل كتفي فرانيسكو وكأنها مدفع ، فكاد ان يطلب من ايرين ان تحملها لبضعة أمتار كونها هي التي أصرت على احضارها ، لكنه أشفق عليها حين رآها تلهث مثل من يحتضر . كانت راحتا يديها قد تجرحتا من الصخور وتمزق بنطالها عند احدي ركبتيه ، وكانت تتعرق بغزارة وتسال في كل لحظة كم بقي أمامهم للوصول . وكان الصغير يرد بالاجابة نفسها دوماً : هناك فقط ، وراء هذا المرتفع . وظلوا على هذه الحال وقتاً طويلاً تحت الشمس القاسية ، ينهكهم التعب والعطش ، إلى أن أعلنت ايرين أنها عاجزة عن التقدم ولو خطوة واحدة .

فقال خائيتو منبهاً :

- ليس الصعود بالأمر المهم . انتظري النزول .

نظروا إلى أسفل ، وأطلقت ايرين شهقة من اعماقها . كانوا قد تسلقوا كالماعز فوق جرف خطير ، متمسكين بأي نبتة ناتئة بين تلك الصخور الوعرة . ومن بعيد تبينوا الأشجار التي تركوا عندها الدابتين فكانت تبدو مجرد بقع قائمة .

تمتمت ايرين وهي تنحني مفتونة بالهوة التي تمتد تحت قدميها :

- لن أستطيع النزول من هنا أبداً . انني أشعر بدوار .

فأمسكها فرانثيسكو قائلاً :

- إذا كنت قد صعدت ، فيمكنك النزول .

وقال الصغير :

- تشجعي يا آنسة ، انه هناك ، وراء هذا المرتفع .

رأت ايرين نفسها تترنح في قمة جبل ، متأهمة من الرعب ، فانتصرت حينئذ قدرتها للتغلب على كل شيء . جمعت قواها ، وأمسكت بيد صديقها وأعلنت انها مستعدة لمواصلة المسير . تركوا جعبة المؤونة ، مفكرين بالرجوع لأخذها فيما بعد ، فاستطاع فرانثيسكو الذي تحرر من ثقل كان ينهك عضلاته ، ان يساعد ايرين . بعد عشرين دقيقة من ذلك وصلوا إلى التواء في الجبل ، حيث برزت فجأة ظلال أشجار عالية ومسيل ماء ينحدر بين الصخور ، فأدركا ان براديليو قد اختار هذا المكان لوجود الينبوع ، الذي يستحيل العيش بدونه في هذا الجبل المقفر . انحنوا على الجدول ليرطبوا وجوههم ، وشعرهم ، وملابسهم . وحين رفع فرانثيسكو رأسه ، رأى الحذاء المهترى أولاً ، ثم البنطال القطني الأخضر ، وبعد ذلك الصدر العاري الذي لوحته الشمس ، وأخيراً قابل وجه براديليو دل كارمن رانكيليو الأسمر ، الذي كان يصبوب سلاحه العسكري اليهما . كانت لحيته قد طالت ، وانتفش شعره المعجون بالغبار والعرق مثل طحالب كوكبية .

قال خائبتو :

- لقد ارسلتها أُمي . انها آتيان لمساعدتك .

انزل رانكيليو المسدس وساعد ايرين على الوقوف ، ثم قادهما إلى كهف ظليل وبارد تحفي مدخله نباتات كثيفة وصخور . وهناك انبطحا على الأرض ، فيما قاد الصغير شقيقه بحثاً عن الحقيبة المتروكة . وعلى الرغم من صغر سن خائبتو ونحول جسده ، إلا انه كان يبدو نشيطاً كما كان عند بدء الرحلة . بقي فرانثيسكو وايرين وحيدين لوقت طويل . فنامت هي على الفور ، كان شعرها مبللاً وبشرتها محروقة . توقفت حشرة على عنقها ثم تقدمت إلى خدها ، لكنها لم تشعر بها . فهز

فرانيسكو يده لهشها مبللاً وجه الشابة الناعم والدافء مثل ثمرة صيفية . أعجبه انسجام تقاطيعها، وبريق شعرها، وتراخي جسدها وهي نائمة . رغب في لمسها، والانحناء لسماح أنفاسها، واحتضانها بين ذراعيه وحمايتها من الهواجس التي تعذبه منذ بدء هذه المغامرة، إلا ان الارهاق ما لبث ان تغلب عليه أيضاً، فنام . لم ينتبه إلى مجيء الاخوين، ولذلك استيقظ فزعاً حين لمسا كتفه .

كان براديليو مارداً، يشد الأنظار بجسده الهائل الذي لا تفسير له وسط اسرة من أناس ضئيلين كاسرته . جلس في المغارة، وفتح الحقيبة بهيبة ليستخرج كنوزها، داعب علبة سجائر بحنان مستبقاً متعة التدخين، فبدأ مثل طفل كبر جسده . كان قد نحل كثيراً، وغارت وجنتاه وأحاطت بعينه هالتان زرقاوان مما منحه مظهر المصاب بشيخوخة مبكرة . كان جلده مدبوغاً بشمس الجبال، وشفته مشققتان وكتفاه مجرّحان تغطيها القشور والبثور . وبدأ وهو منحرف في هذه المغارة المفتوحة في الصخر الأصم مثل قرصان معتوه . كان يستخدم يديه بحذر شديد، وكأنه يخشى أن يتلف ما يمسه بهاتين اليدين وأظافرهما المقروضة والقدرة . وبدأ في اسماله كما لو انه قد كبر فجأة، دون ان يتاح له الوقت الكافي للاعتياد على أبعاد جسده، وكأنه عاجز عن تقدير طول أطرافه ووزنها، فيصطدم بما حوله في بحثه الدائم عن وضع مناسب . لقد عاش في هذا الوكر الضيق أياماً طويلة، متغذياً بالأرانب البرية والجرذان التي يصطادها بالحجارة . زائره الوحيد هو خائنتو، صلة الوصل بين عالمه المتفرودنيا الأحياء . كان يشغل وقته بالصيد، دون استخدام سلاحه الناري الذي يحتفظ به لحالات الطوارئ . صنع مقلاعاً وشحذ الجوع حسن تصويبه هذه الاداة لاقتناص الطيور والقوارض عن بعد . كانت تنبعث من أحد أركان المغارة رائحة عفونة تشير إلى المكان الذي يكوم فيه ريش ضحاياها وجلودها الجافة، كي لا يترك أي أثر في الخارج . ولتغلب على الملل، كانت لديه بعض روايات رعاة البقر التي ارسلتها اليه أمه، فكان يقرأ فيها أطول وقت ممكن لأنها تشكل وسيلة التسلية الوحيدة في أيامه البطيئة . كانت تنتابه مشاعر الناجي الوحيد من كارثة شاملة، ولوحده وشدة يأسه صار يمن إلى زنزاتته في الشكنة .

قالت ايرين وهي تبعد النعاس الذي تغلغل في روحها:

- كان عليك ألا تفر من الخدمة .

- إذا أمسكوا بي فيسرموني بالرصاص . عليّ أن أجد ملجأ يا آنسة .

- سلم نفسك فلا يرمونك بالرصاص . .

- انني ضائع على أية حال .

أوضح له فرانيسكو مصاعب الحصول على لجوء سياسي في مثل حالته .
وانه بعد مرور كل هذه السنوات على الدكتاتورية لم يعد هناك من يغادر البلاد
بهذه الطريقة . ونصحته بالاختفاء لبعض الوقت ، ريثما يحاول الحصول له على
وثائق مزيفة يمكنه الانتقال بها إلى مقاطعة اخرى ليبدأ فيها حياة جديدة . ظنت
ايرين انها لم تسمع ذلك جيداً ، لأنها غير قادرة على تصور أن يكون صديقها ممن
يتاجرون بالوثائق المزيفة . فتح بارديليو ذراعيه في حركة يائسة وفهما انه يستحيل
عليه خداع عيون الشرطة بهذه القامة التي كشجرة سرو وبوجه الجندي الفار الذي
له .

قالت ايرين باصرار:

- اخبرنا عن سبب فرارك .

- من أجل ايفانخيلينا ، شقيقتي .

حينئذ ، وشيئاً فشيئاً ، راح يروي الحكاية ، باحثاً عن الكلمات في مياه
صمته المعتاد الراكدة ، قاطعاً حديثه باطراقات طويلة . وما لم يقله ذلك المارد ،
سألته عنه ايرين وهي تنظر إلى عينيه . وما صمت عنه استطاعا ادراكه من خلال
لحجه ، ومن بريق دموعه وارتعاش يديه الضخمتين .

★ ★ ★

حين بدأت الشائعات تدور حول ايفانخيلينا ومرضها الغريب الذي يجذب
الفضوليين ومحطم اسمها الطيب ، ويضعها في مرتبة المجاذيب ، فقد براديليو

رانكيليو لذة النوم . فبين جميع أفراد أسرته كانت هي المحببة اليه اكثر من سواها ، وقد نما هذا الشعور لديه مع مرور الزمن ، فلم يكن هناك ما يُفرح قلبه كتعليمه تلك الطفلة النحيلة ، ذات الشعر الأشقر ، المختلفة تماماً عن آل رانكيليو ، أول خطواتها . حين ولدت ، كان هو في مطلع صباه ، له قامة أطول وبنية أمتن ممن هم في مثل سنه . وكان معتاداً على أداء أعمال الكبار وتولي مسؤوليات الأب الغائب . لم يكن يعرف اللهو ولا الحنان . فديغنا تقضي حياتها حبلى أو مرضعة وليدها الأخير ، دون ان يمنعها ذلك من العمل في الأرض وانجاز الأعمال المنزلية ، لكنها كانت تحتاج لمن تستند اليه . فكانت تثق بابنها وتحوله السلطة تجاه اطفالها الآخرين . وكان براديليو يتصرف كرب البيت في مجالات كثيرة . وقد مارس هذا الدور منذ صباه المبكر ، ولم يكن يتخلى عن ممارسته حتى عند عودة ابيه إلى البيت . وفي إحدى المرات تجرأ على مواجهة ابيه وهو مخمور ، ليمنعه من ضرب ديغنا ، فجعلت هذه الوقفة منه رجلاً . كان الفتى نائماً يومئذ ، واستيقظ لدى سماعه نحيباً مكتوماً ، قفز من السرير وأطل من وراء الستارة التي تفصل الركن حيث ينام ابواه . رأى هيبوليتورا فاعاً يده ، وأمه منكمشة مثل لفافة خيطان على الأرض ، تغطي فمها كي لا توقظ الصغار بشهقاتها . لقد رأى مشاهد مشابهة في أحيان أخرى ، وكان يرى في أعماقه أن للرجال الحق بمعاينة المرأة والأولاد ، لكنه لم يستطع كبح نفسه في هذه المرة ، إذ أعمت عينيه غلالة من الغضب ، فقفز دون تفكير على أبيه يضربه ويشتمه إلى أن توسلت إليه ديغنا أن يتوقف ، لأن اليد التي تمتد على الأبوين تتحول إلى حجر . في اليوم التالي استيقظ هيبوليتو وجسده مليء بالبقع الزرقاء الداكنة . وكان ابنه مروعاً من الجهد الذي بذله ، انما دون أن يتحول أي طرف من أطرافه إلى حجر ، كما تؤكد الخرافات الشعبية . وكانت تلك هي المرة الأخيرة التي استخدم فيها هيبوليتو العنف مع أفراد أسرته .

كان براديليو دل كارمن رانكيليو يضع في ذهنه دوماً ان ايفانخيلينا ليست شقيقته . الجميع كانوا يعاملونها كما لو كانت كذلك ، أما هو فرآها بعينين مختلفتين منذ صغرها . وبذريعة مساعدة أمه كان يحممها ، ويؤرجحها ويطعمها . وكانت

الطفلة تعبده، فتستغل أي مناسبة للتعلق بعنقه، وتندس في سريريه، وتتكور بين ذراعيه. وكانت تلحق به إلى كل مكان مثل كلب وفيّ، وتطارده بأسئلتها، وتود سماع حكاياته ولا تغضو إلا على أغانيه. كان اللعب مع ايفانخيلينا مشحوناً بالقلق، وقد تحمل براديليو الضرب مرات ومرات لأنه كان يداعبها، دافعاً بذلك ثمن خطيئته. . . خطيئة الأحلام المبللة، حيث كانت تستدعيه بايحاءات فاحشة، خطيئة مراقبتها حين تنحني لتبول ما بين الشجيرات، خطيئة ملاحظتها إلى الساقية عند ذهابها للاستحمام، خطيئة ابتداء ألعاب محرمة يختبئان فيها بعيداً عن الآخرين ليتبادلا المداعبات حتى الانهاك. وبغريزة الاغراء التي لدى جميع النساء، كانت الطفلة تحفظ السر المشترك مع أخيها الأكبر وتتصرف بتكتم أيضاً. كانت تستخدم مزيجاً من البراءة والوقاحة، من التعنج والخفر، لتبعث فيه الجنون، وتبقي على حواسه متوقدة، وتبقيه أسيراً. ولم يجد قمع أبويه ومراقبتها إلا في تأجيج اللهب الذي يكوي دماء براديليو المراهق. قاده ذلك للبحث عن مومسات في وقت مبكر، لأنه لم يجد السلوى في متعته المنفردة بالصبية. كان ايفانخيلينا ما تزال تلعب بالدمى حين حلم بامتلاكها، مقدراً ان قوة اندفاع ذكورته قادرة على اختراقها كسيف. كان يجلسها على ساقيه ليساعدها في وظائفها المدرسية، وخلال بحثه عن الاجابة على المسائل التي في الدفتر، يشعر بعظامه تذوب وبشيء دافئ ولزج يتقد في عروقه؛ فتخور قواه، ويفقد القدرة الذهنية على الفهم، بل وتغادره الحياة بسبب رائحة شعرها الدخانية، ورائحة الكلور المنبعثة من ثيابها، وعرق عنقها، وثقل جسدها فوق جسده؛ ويرى انه عاجز عن احتمال كل ذلك دون أن يعوي ككلب شبق، ودون أن ينقض عليها ليلتهمها، ودون أن يهرع الى حيث أشجار الحور ليعلق نفسه من عنقه على أحد الأغصان كي يدفع بموته ثمن جريمة عشق أخته بهذه العاطفة الجهنمية. كانت الطفلة تهيجه وتتحرك فوق ركبتيه ضاغطة، متمرغة، مدلكة، إلى ان تراه يئن مختنقاً، يضغط عقد أصابعه على حافة الطاولة ويتيسس، ويلفها معاً شذى نفاذ وحلو. ولقد استمرت هذه الألعاب طرال طفولتها.

خرج بارديليو رانكيليو من بيته وهو في الثامنة عشرة لاداء الخدمة العسكرية، ولم يرجع . وقد قال لايرين وفرانثيسكو في ذلك الكهف الجلي معترفاً: - ذهبت كي لا ألوث يدي باختي .

فبعد انتهاء خدمته العسكرية، التحق فوراً بسلك الشرطة . وبقيت ايفانجيلينا خائبة وتائهة ، دون أن تفهم سبب ذلك الهجر، يسحقها قلق لا تعرف له اسماً وكان موجوداً في قلبها قبل وقت طويل من استيقاظ غددها . وهكذا هرب براديليو من قدره كصلاح فقير، ومن طفلة بدأت تتحول الى امرأة، ومن ذكريات طفولة منكوبة بالميل إلى زنا المحارم . وفي السنوات التالية احرز جسده أبعاده النهائية ووجدت روحه نوعاً من السلام . ثم جاءت الاحداث السياسية لتجعله ينضج ولتسكن من فتنة ايفانجيلينا في نفسه، إذ تحول بين يوم وليلة من شرطي ريفي تافه إلى رجل في السلطة . صار يرى الخوف في عيون الآخرين، وأعجبه ذلك . أحس انه مهم، وقوي وذو جبروت . ففي الليلة التي سبقت الانقلاب العسكري أخبروه ان العدو ينوي إبادة الجنود ليقم نظاماً استبدادياً سوفيتياً . لا شك أن هذا العدو كان خصماً خطيراً وذكياً، لأن أحداً لم يتبته حتى ذلك اليوم إلى تلك المخططات الدموية، باستثناء قادة القوات المسلحة، الحريصين دوماً على المصالح الوطنية . ولو لم يبادر هؤلاء القادة إلى تحمل مسؤولياتهم، لغرقت البلاد في حرب أهلية، أولكان الروس قد احتلوها، هذا ما أوضحه له الملازم خوان دي ديوس راميريث . وقد جاء حسن تصرف الجنود وشجاعتهم، ومن بينهم رانكيليو، لينقذ الشعب من مصير رهيب . لهذا أشعر بالاعتزاز وأنا أرتدي الزي العسكري، رغم وجود أمور لا تعجبني . أنا أنفذ الأوامر دون أسئلة، لأنه إذا ما بدأ كل جندي بمناقشة قرارات رؤسائه، فسيتحول كل شيء إلى فوضى وسيذهب الوطن إلى الجحيم . كان عليّ أن أعتقل أناساً كثيرين، لا أستطيع انكار ذلك، بل وبينهم بعض المعارف والأصدقاء مثل آل فلوريس . انه لأمر سيء انضمام آل فلوريس إلى النقابة الفلاحية . كانوا يبدون اناساً طيبين ولم يكن ليخطر ببال أحد انهم يفكرون بمهاجمة الثكنة . انها فكرة سخيفة . كيف فكر انسوبو فلوريس وأولاده

بمثل هذه الحماقة؟ كانوا أذكيا ومتعلمين . لحسن الحظ أن أصحاب العقارات المجاورة أخبروا ملازمي راميريث بأمرهم واستطاع التصرف في الوقت المناسب . كان اعتقال آل فلوريس أمراً شاقاً بالنسبة لي . ما زلت اذكر صرخات ايفانجيلينا المستبدلة حين قدنا رجال اسرتها . ألمني صراخها لأنها شقيقتي الحقيقية ، فهي من آل رانكيليو مثلي تماماً . أجل ، كان هناك معتقلون كثيرون في تلك الفترة . وقد أجبرت بعضهم على الإدلاء باعترافات عن طريق حشرهم في الاصطبلات وهم مقيدوا الأقدام والأيدي وضربهم دون رحمة . ورمينا بعضهم بالرصاص أيضاً وقمنا بأعمال لا يمكنني الخوض فيها لأنها أسرار عسكرية . كان الملازم يثوق بي ، ويعاملني كابنه ؛ وكنت احترمه وأقدره . كان قائداً طيباً وكان يكلفني بمهمات خاصة لا ينفع فيها الضعفاء والمتشدقين من أمثال الرقيب فوستينوريفيرا ، الذي يفقد عقله إذا تناول كأساً من البيرة ويبدأ بالثرثرة مثل عجوز شمطاء . كثيراً ما كان ملازمي يقول لي : رانكيليو، ستصل بعيداً جداً لأنك صامت مثل قبر ولأنك شجاع كذلك . فالكتمان والشجاعة هما أفضل خصال الجندي .

وفي ممارسة براديليو للسلطة ، فقد الخوف من خطاياهم وتمكن من التخلص من شبح ايفانجيلينا ، اللهم إلا أثناء زيارته لبيته . لان الصبية كانت تعود حينئذ إلى اطلاق دمانه بمداعباتها كطفلة بلهاء ، ولكنها لم تعد تبدو طفلة ، فقد صار لها مظهر امرأة مكتملة . يوم رآها منحنية الى الوراء وهي ترتعش وتتأوه مقلدة الفعل الجنسي بشكل مضحك ، صفعته العذابات الدافئة التي كاد ينساها . ولاقصائها عن مخيلته لجأ الى أساليب يائسة ، مثل الحمامات الطويلة في المياه المثلجة عند الفجر وتناول مرارة الدجاج مع الخل ، ليرى ان كان البرد في عظامه والحَد في أحشائه يعيدان اليه الاتزان ، لكن ذلك كله كان بلا جدوى . واخيراً روى كل شيء للملازم خوان دي ديوس راميريث ، الذي يربطه به تواطؤ قديم .

فأكد له الضابط بعد ان سمع الحكاية الغريبة الشاذة :

أنا سأتولى أمر هذه المشكلة يا رانكيليو . جميل ان يفضي لي رجال

بمشاكلهم . لقد أحسنت صنعاً بالثقة بي .



في يوم الفضيحة التي وقعت في بيت آل رانكيليو بالذات، أمر الملازم راميريث بحجز براديليو في الزنزانة الانفرادية، دون أن يقدم له أية ايضاحات .

بقي الشرطي هناك لعدة أيام يعيش على الخبز والماء دون معرفة السبب الذي استدعى عقوبته، رغم اقتناعه بان للأمر علاقة بتصرف اخته غير اللبق . ولدى تفكيره بذلك لم يكن يستطيع منع نفسه من الابتسام . كان يبدو مستحيلاً أن تكون هذه البنت التافهة مثل دودة، والهزيلة التي ليس لها نهدان كالنساء، وانما شيء أشبه بحبتي خوخ بارزتين بين أضلاعها، قد تمكنت من رفع الملازم في الهواء وهزه مثل ممسحة أمام مرؤوسيه . ظن أنه رأى ذلك في الحلم؛ فربما ان الجوع والوحدة واليأس قد شوشت ذهنه، وربما ان كل ذلك لم يحدث مطلقاً . فيسأل نفسه عندئذ عن سبب اعتقاله . انها المرة الأولى التي يُعتقل فيها، فهو لم يعرف اذلاً كهذا حتى أثناء خدمته العسكرية . لقد كان مجنناً مثالياً كما كان شرطياً جيداً خلال سنوات عديدة . كان ملازمه يقول له : رانكيليو، يجب ان تكون البدلة العسكرية هي مثلك الأعلى الوحيد، عليك بالدفاع عنها والثقة برؤسائك . وهذا ما فعله على الدوام . علمه الضابط قيادة السيارات في الثكنة وجعل منه سائقه الخاص . كانا يذهبان معاً في بعض الأحيان لتناول زجاجة بيرة ولزيارة المومسات في لوس ريسكوس، كصديقين حميمين . ولهذا تجرأ على اخباره بأمر النوبات التي تصيب اخته، الحجارة التي تسقط على السطح، ورقص الفناجين وهياج الحيوانات . قال كل ذلك دون أن يتصور أنه سيذهب مع ذريته من الرجال المسلحين لانتهاك حرمة بيت أبويه، وان ايفانجيلينا ستجعل منه اضحوكة وقرغه في تراب الفناء .

كان رانكيليو يشعر بالراحة في عمله . كان روحاً بسيطة غير قادر على اتخاذ القرارات، فهو يفضل الطاعة بصمت، ويرى أن وضع مسؤولية أعماله في يد

الآخرين أكثر سهولة . كان يتلثم عند الكلام ويقضم أظافره حتى جذورها ، تاركاً أصابعه تدمى وكأنها مبتورة .

اعتذر أمام إيرين وفرانيسكو:

- لم أكن أقضمها في السابق .

كان يشعر في الحياة العسكرية القاسية بسعادة أكبر من تلك التي يشعر بها في بيت والديه . ولم يكن يحب العودة إلى الريف . ففي القوات المسلحة وجد مهنة ، ومصيراً وأسرة أخرى . كان يتمتع بقوة جاموس تساعد على الصمود في المناوبات وفي أقسى التدريبات ، وفي ليالي الحراسة . وكان رقيقاً طيباً ، يتخلى عن وجبته لرفيق جائع وعن ذئبه لمقرور . وكان يتحمل المزاح الثقيل دون تذمر ، ولا يفقد طيب مزاجه ، ويشارك في الضحك حين يسخرون من جسده اللفظ ومن عضو ذكورته الضخم . وكانوا يسخرون كذلك من حماسه في أداء عمله ، وحلمه الدائم في تقديم حياته في سبيل العلم كبطل . وفجأة انهار كل هذا . لم يكن يعرف سبب وجوده في هذه الزنزانة ، ولم يكن قادراً على حساب الزمن الذي يمضي عليه فيها . اتصاله الوحيد بالعالم الخارجي كان بضع كلمات يهمس بها إليه الرجل المكلف بحمل الطعام إليه . وقد قدم له السجائر في مناسبتين ووعده بحضور رواية عن رعاة البقر أو مجلة رياضية ، رغم عدم وجود نور ليقرأها عليه . وفي هذه الأيام تعلم العيش بالتمتمة ، وبالآمال ، وبالخدع الصغيرة للتغلب على الضجر . لقد شحذ جميع حواسه في محاولة للمشاركة في الحياة الخارجية ؛ ومع ذلك ، كانت وحدته رهيبية في بعض اللحظات حتى ليخيل إليه انه ميت . كان يسمع الجلبة التي تدور في الخارج ، ويعرف موعد استبدال الحرس ، ومحصى السيارات الداخلة إلى الفناء والخارجة منه ، وأحكم سمعه للتعرف على الأصوات ، ووقع الخطأ التي يشوهها البعد . كان يحاول النوم لكي يمضي الوقت بسرعة ، لكن العطالة والكآبة أقصت النوم عن عينيه . لقد كان بإمكان رجل أضال منه أن يتمدد أو أن يمارس بعض التمارين في هذا المجال ، أما رانكيليو فكان كالمقيد . عشن قمل الفرشة في رأسه وتكاثر بسرعة مذهلة . وصارت الصئبان تقرصه تحت ابطيه وفي

عانتة وتضطره إلى الحك حتى يدمى . كان لديه سطل لقضاء حاجته فيه ، وحين يمتليء تصبح التثانة هي عذابه الأعظم . فكر ان الملازم راميريث يخبثه . وانه ربما يريد التأكد من مقاومته وصلابة طبعه قبل أن يكلفه بمهمة خاصة ، ولهذا لم يلجأ إلى الاستئناف الذي له الحق فيه خلال الأيام الثلاثة الأولى . حاول الاحتفاظ بالهدوء ، والصمود وعدم البكاء أو الصراخ كما كان يفعل جميع المعزولين تقريباً . أراد أن يقدم مثلاً في الصلابة الجسدية والمعنوية ، كي يقدر الضابط معدنه ، وليثبت له انه لن يضعف حتى في أقسى ظروف القسوة . حاول المشي في دائرة لينشط عضلاته ويحول دون خدرها ، فاستحال عليه ذلك ، لأن رأسه كان يصطدم بالسقف ، وكانت ذراعه تصطدم بالجدار إذا ما حاول شدما . لقد اعتقلوا في بعض الأحيان ستة أشخاص في هذه الزنزانة ذاتها ، ولكن لأيام قليلة فقط ، وليس مثل هذا العدد من الأيام التي أمضاها هو ، ثم أن أولئك لم يكونوا معتقلين عاديين ، وانما أعداء للأمة ، وعملاء للسوفييت وخونة ، كما قال له الملازم بكل وضوح . ان جمود الجسد الاضطرابي هذا بدأ يتسرب إلى ذهنه أيضاً ، هو المعتاد على ممارسة التمارين وعلى الهواء الطلق ، فصار يصاب بالاغماء ، وينسى الأسماء والأماكن ، ويرى ظلالاً فظيعة . ولكي لا يصاب بالجنون كان يغني بصوت خافت . وقد أفرحه ذلك ، رغم ان خجله كان يمنعه من الاقدام على الغناء في الظروف العادية . لقد كانت ايفانخيلينا تحب الاستماع اليه ، وتصغي صامتة وعيناها مغمضتان ، وكأنها تسمع أصوات حوريات . غن لي ، غن لي اكثر . لقد فكر بها كثيراً خلال مدة حبسه ، تذكر كل حركة من حركاتها بدقة ، والرغبة المحرمة التي تقاسمها منذ طفولتيهما . كان خياله ينطلق به ليضع وجه اخته مكان أجراء المومسات اللواتي مارسن معهن ، فكانت هي من تفتتح مثل بطيخة طازجة ، همراء ، ومليئة بالرحيق وفاترة . وهي من تتعرق رائحة نفاذة كرائحة المحار . وهي التي تعضه ، تخمسه ، تمصه ، تن ، تحتضر اختناقاً ولذة . كان يتخيل انه يفرق في لحمها الجنون إلى ان يفقد أنفاسه ويتحول إلى اسفنجة ، إلى رثة أو نجمة بحرية في أعماق البحار . كان قادراً على قضاء ساعات طويلة في مداعبة شبح

ايفانخيلينا، لكن ساعات اخرى طويلة كانت تزيد دوماً . فبين هذه الجدران كان الزمن متوقفاً في لحظة سرمدية . وصل في بعض الأحيان إلى حافة الجنون، وفكر بضرب رأسه في الجدار الى أن يدميه الضرب، ويسيل الدم من تحت الباب وبينه الحارس، لعلهم ينقلونه إلى العيادة على الأقل . وفي مساء أحد الأيام كان على وشك ان يفعل ذلك، حين ظهر الرقيب فاوستينوريفيرا . فتح الكوة التي في الباب الحديدي، وأدخل له سجائر وكبريت وشكولاته .

- الشباب يبعثون اليك تحيتهم . سيشترون لك شموعاً ومجلات لتتسلى بها، انهم قلقون عليك ويريدون التحدث مع الملازم عله يرضى برفع العقوبة عنك .

- ولماذا وضعني هنا؟

- لست ادري، ربما بسبب اختك .

- انني ضائع ولا بد أيها الرقيب .

- هكذا يبدو . جاءت أمك لتسأل عنك، وعن ايفانخيلينا أيضاً .

- ايفانخيلينا؟ ماذا أصابها؟

- ألا تعرف؟

فصرخ براديليو وهو يهز الباب كمجنون :

- ماذا جرى لاختي؟

قال الرقيب :

- أنا لا أعرف شيئاً . لا تصرخ، إذا ما فاجأوني هنا، فسأدفع الثمن غالياً يا

رانكيليو . لا تيأس، أنا قريبك وسوف أساعدك . سأرجع عما قريب .

ومضى مبتعداً .

انهار رانكيليو على الأرض، وكل من مرّ بالفناء، حينئذ استطاع ان يسمع بكاء رجل هز الضمائر طوال ساعات . شكل اصدقاؤه لجنة للتوسط لدى الضابط، لكنهم لم يتوصلوا إلى شيء . فانتشر التدمير بين الرجال، وصاروا يتمتمون في المراحيض، وفي الممرات، وفي صالة الأسلحة . لكن الملازم خوان

دي ديوس راميريث تجاهلهم . عندئذ قرر فاوستينوريفيرا ، أكثرهم حيطة ، أن يضع الأمور في نصابها . فاستغل بعد يومين من ذلك عتمة الليل وغياب الضابط ليقترّب من زنزانة السجين المنفرد . رآه الحفّير يدنو، وأدرك نواياه في الحال، فتظاهر بالنوم ، لأنه كان يرى كذلك ان هذا العقاب بحق رانكيليو جائر. تناول الرقيب المفتاح المعلق بمسما على الجدار دون أن يحاول التخفي أو يتفادى اثاره ضجة ، واتّجه إلى الباب الحديدي . أخرج رانكيليو من سجنه ، وأعطاه ملبسه وسلاحه النظامي مع ست طلقات ، وقاده إلى المطبخ حيث قدم له وجبة مزدوجة . ثم أعطاه بعض المال الذي جمعه عناصر الوحدة وحمله إلى أبعد ما يستطيع عن الثكنة في سيارة الجيب . من رأوها، نظروا إلى الجانب الآخر ولم يشاؤوا أن يعرفوا شيئاً عن التفاصيل ، وقالوا: للرجل الحق بالثأر لاخته .

أمضى براديليو رانكيليو نحو اسبوع وهو يزحف في الليل ويختفي في الحقول دون حراك اثناء النهار، ولم يتجرأ على طلب المساعدة من أحد، لأنه كان يتخيل غضب الملازم حين سيكتشف هروبه ويعلم ان الحراس لا يستطيعون رفض الأوامر بالبحث عنه في السماء والأرض . قبع في الظلال منتظراً إلى ان قاده الجوع واليأس أخيراً إلى بيت والديه . كان الرقيب ريفيرا قد زار البيت وروى لديغنا ما كان قد اخبره به ، وبهذا لم تكن هنالك من حاجة للحديث . فالثار مسألة تخص الرجال . كان ريفيرا قد طلب منه وهو يودعه أن يبحث عن اخته ، لكن ما أراد قوله في الحقيقة هو أن يثار لها ، وبراديليو متأكد من ذلك . كان واثقاً من موتها . لم تكن لديه أية أدلة ، لكنه يعرف رئيسه بما يكفي ليفترض ذلك .

قال لفرانثيسكو وايرين وهما في المغارة :

- سيكون قيامي بواجبي مكلفاً ، لأنهم سيقتلونني إذا ما نزلت من هذا

الجبل .

- لماذا؟

لأنني أحمل سراً عسكرياً .

- إذا كنت تريدنا أن نساعدك فعليك ان تخبرنا به .

- لن أبوح به أبداً .

كان منفعلاً جداً، يتعرق ويقضم أظافره، ويلمع في عينيه بريق دعر. كان يمر بيده على وجهه وكأنه يريد أن يبعد عن ذهنه ذكريات فظيعة . لاشك أن لديه شيئاً كثيراً يقوله، لكنه كان مقيداً بأحزمة صمت هائلة . تتم قائلاً أنه من الخير له ان يموت سريعاً، لأنه لا مفر له من هذا المصير . وحاولت ايرين طمأنته، يجب عليه ألا ييأس، فسيجدان طريقة لمساعدته، والمسألة هي مسألة بعض الوقت . وكان فرانثيسكو يرى في تلك القصة عدداً من النقاط الغامضة ويشعر بالريبة الغريزية؛ لكنه يسترجع في الوقت ذاته اتصالاته باحثاً عن رجل ينقذ حياة هذا الرجل .

وفي اللحظة الأخيرة، قال براديليو:

- إذا كان الملازم راميرث قد قتل אחتي فأنا أعرف أين خبأ جثتها . أتعرفان

منجم لوس ريسكوس المهجور؟

وقطع كلامه فجأة، نادماً على ما قاله . ومع ذلك، ومن تعابير وجهه ونبرة صوته، أدرك فرانثيسكو انه لا يتكلم عن احتمال، وانما عن يقين . لقد قدم لها طرف خيط .

كان الوقت أصيلاً حين ودعاه وبدأ النزول، تاركين رانكيليو مكروباً، يجتر أفكار الموت . كان نزول الجبل شاقاً كصعوده، وخاصة بالنسبة لايرين التي كانت تنظر إلى الهوة السحيقة مرتجفة، لكنها لم تتوقف إلى أن وصلت إلى حيث تركوا الجوادين . هناك تنفست الصعداء، ونظرت إلى الجبل، فبدأ لها مستحيلاً انها قد تسلقت هذه القمم الوعرة التي تتلاشى في لون السماء .

قال فرانثيسكو:

- هذا يكفي اليوم . سأرجع فيما بعد ومعني بعض الأدوات لأرى ما يوجد في

ذلك المنجم .

فقلت ايرين:

- وأنا معك .

نظر كل منهما إلى الآخر وأدركا انها قد قبلتا كلاهما الوصول إلى نهاية هذه المغامرة التي قد تقودهما إلى الموت، أو إلى ما هو أبعد منه .



تقدمت بياتريس الكانتررا تضرب كعبيها بغطرسة على لينليوم المطار النظيف، سائرة وراء الحمال الذي كان يحمل حقائبها الزرقاء . كانت ترتدي فستاناً من الكتان مفتوحاً حول العنق وله لون البندورة، وتربط شعرها فوق رقبتها، لأنها لم تجد في نفسها الرغبة الكافية لتصفيفه باتقان . وكانت تتدلى من اذنيها لؤلؤتان باروكيتان كبيرتان تُظهران لون السكر المحروق الذي لبشرتها وبريق عينيها القامتين اللتين تشعان راحة جديدة . فساعات الطيران الطويلة في المقعد غير المريح، برفقة راهبة غاليسية، لم تنزع منها سعادة لقائها الأخير مع ميشيل . كانت تشعر انها امرأة اخرى، متجددة الشباب وخفيفة . وكان اعتزاز من تعلم انها جميلة يضيف على مشيتها ايقاعاً متغطرساً . فعيون الرجال تلاحقها، دون ان يشك أي منهم في عمرها الحقيقي . إذ انها ما تزال قادرة على ارتداء الملابس المفتوحة حول العنق وهي مطمئنة، دون ان تظهر آثار في الصدر تشي بحقيقة سنها، ودون ان تبدو في ذراعيها أية ترهلات، بينما يحتفظ ساقاها باستدارتها الرقيقة وخط ظهرها باستقامته الشائخة . كان هواء البحر قد منح وجهها نفحة احتفالية، وتكفلت ريشة المكياج باخفاء التجاعيد الخفيفة عند جفنيها وفمها . يداها وحدهما، المليئتان بالبقع والاحاديذ رغم المراهم السحرية، كانتا تشيان بمرور الزمن . لقد كانت راضية عن جسدها . فهي تعتبره انجازها وصنع يديها وليس من صنع الطبيعة، لأنه الحصيلة النهائية لقوة ارادتها الهائلة، ونتيجة سنوات من الحمية والتمارين والمساجات واسترخاءات اليوغا والتقدم في صناعة مستحضرات التجميل . كانت تحمل في حقيبة يدها امبولات زيت للنهدين، ودهناً للعنق، وسوائل وكريمات هرمونية للبشرة ومستحضرات مستخرجة من النمس المسكي للشعر، وكبسولات

الرُب الملكي وبودرة الشباب الأبدى ، وأدوات وفراش مصنوعة من عرف الفرس للحفاظ على مرونة انسجتها . انها معركة خاسرة يا أماه ، فالعمر لا يترجع والشيء الوحيد الذي قد تحصلين عليه هو بعض التأجيل فقط . أيستحق الأمر كل هذا العناء؟ حين تستلقي تحت الشمس على رمال أحد الشواطئ المدارية الدافئة ، دون أية ملابس سوى قطعة قماش مثلثة على عضوها ، وتقارن نفسها مع نساء يصغرنها بعشرين سنة ، تبتسم فخورة . أجل يا ابنتي ، انه يستحق العناء . حين تدخل أحد الصالونات أحياناً ، تشعر بالجو المشحون بالحسد وبالرغبة ، فتعلم حينئذ ان جهودها تعطي نتائج . ولكنها حين تكون بين ذراعي ميشيل بشكل خاص ، تصل إلى القناعة بان جسدها هو رأسمال رابح ، لأنه يمنحها المتعة العظمى .

كان ميشيل يجسد ترفها السري ، والتأكيد على تقويمها لنفسها ، ومبرر غرورها الداخلي . كان أصغر منها سناً ، حتى يمكن الاعتقاد انه ابنها . طويل القامة ، عريض الكتفين وضيق الوركين مثل مصارع ثيران ، شعره حائل اللون لكثرة تعرضه للشمس ، وعيناه زرقاوان ، ولصوته نبرة عذبة عند الكلام ، وهو يتقن كل المعارف اللازمة لممارسة الحب . ان حياة البطالة ، وممارسة الرياضة ، وانعدام القيود تطبع ابتسامة دائمة على وجهه وتمنحه قدرة على المتعة . نباتي ، لا يتناول المسكرات ، عدو للتدخين ، ليست لديه أية هموم ثقافية ، وأعظم متعه هي اللهوف في الهواء الطلق واللقاءات الغرامية . عذب ، رقيق ، بسيط ، وطيب المزاج على الدوام ، يعيش في دنيا اخرى ، وكأنه ملاك هبط إلى الأرض نتيجة خطأ . كان يبتدع الاساليب التي تجعل حياته تمضي في اجازة دائمة . تعارفا على شاطئ ذي أشجار نخيل مائلة ، وحين ضم كل منهما الآخر للرقص في عتمة الفندق أول مرة ، ادركا انه لا بد لهما من لقاء اكثر حميمية . وفي تلك الليلة بالذات فتحت بياتريس باب حجرتها يراودها احساس بأنها فتاة مراهقة . كان بها شيء من الرهبة لخوفها من ان يكتشف علامات صغيرة تشي بحقيقة سننها ، لكن ميشيل لم يتح لها الوقت لمثل تلك المخاوف . فقد أضاء النور مستعداً للتعرف عليها معرفة كاملة . وفيما هو

يقبلها بشفتين خبيرتين، كان يعربها من كل زينتها: اللؤلؤتين الباروكيتين، الخواتم الماسية، وسوارات العاج. . إلى أن جعلها عارية ومكشوفة. حينئذ تنهدت مطمئنة، لأنها وجدت في عيني عشيقها التأكيد على جمالها. نسيت مرور السنوات، واستنزاف الصراع والسأم الذي غرسه رجال آخرون في روحها، وتقاسمت معه علاقة سعيدة لم يسميها كإلهما حباً.

كان القرب من ميشيل يبهج بيأتريس ويجعلها تنسى جميع همومها. فلهذا الرجل القدرة الخارقة التي تجعله يسحب قبالاته من ذاكرتها مسني «مشيئة الرب» المقعدين، وشذوذات ابتها ومصاعبها المادية. لأنها لا ترى وهي معه سوى الحاضر. كانت تشم فيه رائحة الحيوان الفتي، وانفاسه النظيفة، وعرق بشرته الناعمة، وأثر ملوحة البحر في شعره؛ وتلمس جسده، وشعر صدره الخشن، ونعومة خديه الحليقين، وقوة ذراعيه، وصلابة عضوه المتجددة. لم تعرف حباً ولا جماعاً مثل هذا من قبل. فعلاقتها بزوجها كانت مصبوغة بأحقاد متراكمة وصدلاً ارادي، وكان عشاقها العابرون رجالاً متقدمين في السن يعوضون نقص قوتهم بفنون من التصنع. فلم تكن تحب أن تذكر شعورهم الخفيفة، وأجسادهم المترهلة، وروائحهم الوبيلة التي هي مزيج من رائحة التبغ والخمر، وأعضاءهم التي تندفع بمشقة، وهداياهم البائسة ووعودهم الخادعة. أما ميشيل فلا يكذب. لم يقل لها أبداً: أحبك، وانها: تعجيبني. . أشعر بالراحة إلى جانبك. . أريد ممارسة الحب معك. كان مسرفاً في السرير، منهمكاً في تقديم السعادة لها، وارضاء أهوائها، واستنباط متع جديدة لها.

كان ميشيل يمثل الجانب الخفي والاكثر اضاءة في حياتها. وكان يستحيل عليها اطلاع أحده على هذا السر، لأن أحداً لن يفهم عاطفتها تجاه رجل أصغر منها بكثير. ويمكنها أن تتصور التعليقات التي سيتبادلها معارفها إذا ما علموا بالامر: بيأتريس فقدت عقلها من أجل صبي أجنبي، لا شك انه يستغلها ويجردها من كل أموالها، عليها ان تخجل وهي في مثل هذه السن. لن يصدق أحد الفرح المشترك والحنان، ولن يقتنع أحد بصداقته لها، وبانه لا يطلب منها شيئاً

على الاطلاق، ولا يقبل هداياها. كانا يلتقيان مرتين في السنة، في أي مكان من الخريطة، ليعيشا أياماً من الأمل تعود بعدها وجسدها شاكر وروحها منشرحة، فتمسك بياتريس الكانترابزام أموراً من جديد، وتتولى مسؤولياتها، وترجع إلى علاقاتها المتأنقة مع عشاقها المعهودين، من مترملين ومطلقين وأزواج خائنين لزوجاتهم ومخادعين مزمنين يغدقون عليها اهتمامهم دون أن يمسوا قلبها.

اجتازت البوابة الزجاجية التي تفصل المنطقة المسيجة في المطار، ورأت ابنتها في الجانب الآخر ذائبة وسط الجموع. كان يرافقها ذلك المصور الذي لم يعد يفارقها في الشهور الأخيرة، ما اسمه؟ ولم تستطع ان توارى تكشيرة ضيق وهي ترى ايرين مهملة لمظهرها إلى هذا الحد. فحتى حين كانت تلبس ثيابها العجرية، كانت تظهر شيئاً من الأصالة على الأقل، أما وهي بهذا البنطال المجعد وشعرها المربوط مثل ذيل فانها تبدو كمعلمة ريفية. وعندما دنت منها لمحت علامات اخرى مثيرة للقلق، لكنها لم تتمكن من تحديدها. فقد رأت في عينيها مسحة كآبة، وتكشيرة في فمها، ولم تستطع التحقق من امارات وجهها الأخرى لانشغالها بوضع الحقائب في السيارة والانطلاق في الطريق إلى البيت.

- أحضرت معي ملابس فاخرة لجهاز عرسك يا ابنتي.

- ربما لن أستطيع استخدامها يا ماما.

- ماذا تعنين؟ هل حدث شيء مع خطيبك؟

نظرت بياتريس إلى فرانيسكولبال عرضاً وكاد أن يصدر منها تعليق لاذع، لكنها اعتصمت بالصمت إلى ان تنفرد بايرين. أخذت نفساً عميقاً ملأ رئتيها ثم زفرت الهواء في ست دفعات متتالية، مرخية عضلات عنقها ومفرغة روحها من كل عدوانية، لتضع نفسها في انسجام ايجابي، كما يعلمها معلم اليوغا. أحست بالتحسن للحال وصار بامكانها الاستمتاع بمنظر المدينة البديع في الربيع، وبالشوارع النظيفة، والجدران حديثة الطلاء، والناس المهذبن والمنضبطين، وأحست انه لا بد من شكر السلطات على ذلك، فكل شيء مراقب جيداً وتحت السيطرة. تأملت واجهات المحال التجارية المترعة بالبضائع الأجنبية التي لم تكن

تستهلك في البلاد من قبل، والأبنية الفخمة التي أقيمت على سطوحها مسابح مسيجة بقصب قصير، ومجمعات الاسمنت الحلزونية حيث المتاجر الخيالية لارضاء أهواء الأثرياء المحدثين، والاسوار التي تخفي منطقة البؤس، حيث الحياة تسير بعيداً عن نظام الزمن وقوانين الرب. فأمام استحالة القضاء على البؤس، فرض الحظر على ذكره. أخبار الصحافة كانت مطمئنة، فهم يعيشون في مملكة مسحورة. أما الشائعات عن نساء وأطفال يسطون على المخازن بدافع الجوع فليست إلا أكاذيب. والمساوىء الجديدة لا وجود لها إلا في الخارج، حيث العالم بأسره يعاني من مشاكل لا حل لها، لكنها لا تمس الوطن الفاضل. وتذرع الشوارع سيارات يابانية شديدة الهشاشة حتى لتبدو وكأنها صُنعت لتستبدل؛ وفي كل ناحية اعلانات تعرض للبيع مساكن مخصصة لفئة محددة من الناس، واخرى تعلن عن رحلات ماركو بولو بالتقسيط وعن آخر منجزات الالكترونيات. وتزايد دور اللهب بأصوائها المشعة وأبوابها المحروسة حتى ساعة حظر التجول. ويدور الحديث عن الثراء وعن المعجزة الاقتصادية، ورؤوس الأموال الأجنبية التي جذبها بغزارة صلاح النظام. أما المتبرمون فهم معادون للوطن، لأن السعادة اجبارية. وبموجب قانون تمييز غير مكتوب، لكنه معروف للجميع، كان هناك بلدان اثنان يموجان ضمن التراب الوطني نفسه: اولها بلد النخبة الذهبية والقوية، والآخر بلد الكتلة الهامشية الصامتة. ويفسر الاقتصاديون الشباب من اتباع المدرسة الجديدة الأمر قائلين: انه الثمن الاجتماعي. فتردد وسائل الاعلام هذا الكلام. توقفت السيارة عند إشارة ضوئية، دنت ثلاثة كائنات صغيرة ترتدي الاسمال لتمسح زجاج السيارة الامامي، ولتعرض للبيع بطاقات دينية وأبرخياطة، أو لطلب صدقة وحسب. تبادل فرانيسكو وايرين النظرات، لأنها كانا يفكران بالشيء نفسه:

قالت ايرين:

- في كل يوم يزداد عدد الفقراء.

فردت بياتريس معترضة:

- هل ستبدئين هذه الترتيلة؟ في كل مكان يوجد متسولون . كل ما في الأمر ان الناس هنا لا يريدون أن يشتغلوا، انه بلد ضعفاء .

- ليس هناك عمل للجميع يا أماه .

- وماذا تريدين؟ ألا تكون ثمة فروق بين الفقراء وبين الناس المحترمين؟ أحست ايرين بالحجل ولم تتجرأ على النظر إلى فرانثيسكو، لكن أمها تابعت باصرار:

- هذه مرحلة انتقالية، وعمما قريب ستتحسن الأمور. لدينا نظام على الأقل الآن، أليس كذلك؟ ثم ان الديمقراطية تقود إلى الفوضى، لقد قال الجنرال ذلك ألف مرة .

أمضوا بقية الطريق صامتين . وعند وصولهم إلى البيت، حمل فرانثيسكو الحقائب إلى الطابق الثاني، حيث كانت روسا تنتظر مضيئة الأنوار. شكرته بياتريس على هذه اللفتة ودعته للعشاء معها . وكانت تلك هي لفتتها الودية الوحيدة، فوافق على الفور.

قالت ايرين:

- قدمي الطعام باكراً يا روسا، فلدينا مفاجأة في «مشيئة الرب» .

كانت بياتريس قد أحضرت معها، بناء على رغبة ابنتها، هدايا صغيرة للمسنين وللعاملات في خدمتهم . واشترت ايرين حلوى وأعدت شراب بونش الفواكه لاقامة حفلة . بعد العشاء نزلوا إلى الطابق الأول، حيث كان النزلاء ينتظرون وهم يرتدون أفضل ما لديهم من ثياب، والمشرفات يزدهين بمرايل بيضاء منسأة . وكانت أول أزهار الفصل تشرئب من المزهريات لترحب بالسيدة .

أعلنت خوسيفينا بيبانتشي، الممثلة، انها ستمتعهم بتقديم مشهد تمثيلي . التقط فرانثيسكو غمزة من ايرين، فهم منها انه يشارك في مؤامرة سرية، فأراد الانسحاب قبل فوات الأوان، لأن السخرية من الآخرين كانت تسبب له الألم . لكن صديقه لم تتح له الوقت ليختلق عذراً وينسحب . أجبرته على الجلوس إلى جانب روسا وأمها على مقاعد الشرفه، واختفت مع خوسيفينا في داخل البيت .

انتظروا لبضعة دقائق أحس فرانيسكو خلالها بالضيق . كانت بياتريس تدلي بتعليقات تافهة حول الأماكن التي زارتها في رحلتها، فيما المشرفات يضعن المقاعد مقابل نافذة المطبخ . جلس التزلاء متدثرين بالشالات والحرامات ، لأن التقدم بالسن يجمد العظام إلى حد لا يمكن معه لليلة ربيعية ان تخفف من برودة الشيخوخة . أطفأوا مصابيح الحديقة ، وطغت على الجوانغام سوناتا قديمة ، ثم ازاحوا الستارة . وحار فرانيسكو لبرهة متردداً بين الحياء الذي يدفعه الى الهرب وبين سحر هذا الاستعراض غير المألوف . ظهر أمام عينيه مشهد مغمور بالضوء ، مثل بحيرة في الظلام . وقطعة الأثاث الوحيدة في المشهد الفسيح الخاوي كانت اريكة من البروكار الأصفر إلى جانب مصباح ذي قاعدة وكمة من الرق ، ينشر دائرة ذهبية من الضوء تبدو وسطها امرأة من الماضي ، روح من القرن التاسع عشر لم تتبدل . لم يتعرف فرانيسكو أول الأمر على خوسيفينا بيانتشي وظنها إيرين ، لأن آثار الزمن كانت قد اختفت من ذلك الوجه . فالفتور، والإغراء، والانسجام كانت بادية في كل حركة من حركاتها . كانت ترتدي فستاناً فاخراً ذي كشاكش ومطرزاً بلون العجاج ، وكان ذلك الفستان باهتاً ، مجمداً ، لكنه ما يزال يحتفظ بروعته رغم رماد السنين والسفر الطويل في الحقائب والصناديق . وكان حفيف حريره الناعم يُسمع عن بعد . بدت الممثلة وهي جالسة كأنها تطفو بخفة حشرة طيارة، مسترخية ، حسية ، انوثية إلى أقصى الحدود . وقبل ان يتمالك فرانيسكو نفسه من وقع المفاجأة ، صمتت الموسيقى وسمع صوت غادة الكاميليا دون سن محددة، ففقد مقاومته واستغرق في سحر ذلك العرض . كانت تصل إلى اذنيه مأساة المومس ، والحسرة الطويلة التي لا يشوبها نشاز، مما ضاعف من شدة تأثيرها . كانت تصد الحبيب اللامرئي باحدى يديها، وتتوسل اليه وتداعبه باليد الاخرى . وبدا المسنون غائبون وصامتون وكأنهم يعيشون ذكرياتهم ، وأحست المشرفات المذهولات بتلك المرأة الهشة والخفيفة التي يمكن لنفخة أن تحوّلها الى غبار ، أحسسن بصدورهن مفعمة بالتأثر . ولم يكن هناك من هو قادر على السهو عن ذلك السحر .

أحس فرانثيسكو بيد ايرين على كتفه، لكنه كان عاجزاً عن الالتفات، مسحوراً بالاستعراض حين انطلقت نوبة سعال حادة، كجزء من المشهد التمثيلي أو بسبب الشبخوخة، ووضعت حداً للكلمات العاشقة الخالدة. كانت عيناها تتقدان وتوشكان على البكاء. سيطر عليه الاسى، ولم يستطع التصفيق مع الآخرين، ثم نهض عن مقعده وسار نحو طرف الحديقة، إلى المكان الأكثر ظلمة، فتبعته الكلبة متقافزة بين قدميه. ومن هناك راقب حركة المسنين والمشرفات وهم يتناولون البونشو ويفتحون هداياهم بأصابع مترددة، فيما مرغريتا غاوتير، وقد كبرت مئة سنة بشكل مفاجيء، تبحث عن حبيبها ارماندو دوفال حاملة في إحدى يديها مروحة من الريش، وفي اليد الأخرى قطعة من حلوى الكريمة. أشباح تنزلق بين المقاعد وتتسكع في الممرات المحفوفة بالازهار وبشذى الياسمين العابق، وبريق المصابيح الأصفر. فساهم كل ذلك في خلق احساس بالنعاس. وكان هواء الليل يبدو مترعاً بالنبوءات.

بحثت ايرين عن صديقها، وحين رآته اقتربت منه مبتسمة. ولاحظت حينئذ تعابير وجهه وأدركت ماهية الانفعالات التي تتناهب. أسندت جبهتها إلى صدر فرانثيسكو، فداعب شعرها المشعث بفمه.

- بماذا تفكر؟

كان يفكر بأبويه. فبعد بضع سنوات سيصبحان في سن نزلاء «مشيئة الرب» الذين انجبوا مثلها أولاداً للدنيا وعملوا بلاكلل لتقديم العون لهم، دون أن يدور في خلداهم انهم سينهون آخر أيامهم وينتظرون الموت محاطين بعناية أيدٍ مأجورة. كان آل ليال يعيشون دوماً كما في قبيلة، متقاسمين البؤس والسعادة، والألم والأمل، مرتبطين بوشائج الدم والمسؤولية. وما زالت هناك عائلات كثيرة تعيش هكذا؛ وربما كان المسنون الذين شهدوا عرض خوسيفينا بيانثشي هذه الليلة لا يختلفون عن أبويه. ومع ذلك، فهاهم وحيدون. انهم الضحايا المنسية للريح التي شتتت شمل الناس في كل الجهات، المؤجلون من الشتات، ومن بقوا دون مكان خاص بهم، ودون موقع في الأزمنة الجديدة. ليس لهم أحفاد قريبون

يعتنون بهم أويرونهم يكبرون، ولا أبناء يساعدونهم في مهمة العيش، وليس لديهم حديقة يزرعون فيها بذوراً، ولا كناري يغني عند الغروب. شغلهم الشاغل هو تفادي الموت من خلال التفكير به على الدوام، من خلال احتضانه والخوف منه. أقسم فرانثيسكو انه لن يسمح بحدوث مثل هذا لأبويه أبداً. وكرر الوعد بصوت عال صدر من شفثيه المختلفتين في شعر ايرين.

القسم الثالث

الوطن العذب

حين أسافر بعيداً عن أرضنا،
تحيا معي هناك في البعيد، عناصر وطني الطولاني.

بابلو نيرودا

بعد زمن سيتساءل كل من ايرين وفرانيسكو عن اللحظة التي انعطف فيها مسار حياتيهما بالتحديد، وسيشيران إلى يوم الاثنين المشؤوم، ذلك اليوم الذي دخلا فيه إلى منجم لوس ريسكوس المهجور. ولكن ربما كان الانعطاف قبل ذلك، في يوم الأحد الذي تعرفنا فيه على ايفانخيلينا رانكيليو، أو في مساء اليوم الذي عاهدنا فيه ديغنا على البحث عن الفتاة المفقودة، أو ربما كانت دروبها مخطوطة منذ الأزل ولم يستطيعا إلا اجتيازها.

ذهبا الى المنجم على الدراجة النارية - فهي أكثر كفاءة من السيارة في الأراضي الوعرة - وحملنا معها بعض ادوات الحفر، وترمس مليء بالقهوة الساخنة ومعدات التصوير، دون أن يذكرنا لأحد الغرض من الرحلة لشعورهما المشترك بأنهما يقتران حماقة بعملهما هذا. فقد علما كلاهما، مذ اتخذنا قرار فتح المنجم، ان مجازفتها قد تكلفها حياتيهما.

درسا المخطط إلى ان حفظاه عن ظهر قلب وتأكدا من انهما يستطيعان الوصول إلى هدفهما دون أن يسألا أحداً أسئلة قد تثير الشكوك. لم يكن هناك أية أخطار في ذلك الريف ذي التلال الوديعة، ولكن لدى الدخول في دروب الجبال الوعرة، حيث تحيم الظلال قبل غياب الشمس بوقت طويل، تحول المشهد إلى مكان وعر وموحش، وصار الصدى يعيد اندفاع أفكارهما المتدافعة مع صرخة

الصقر النائية . وقدّر فرانيسكو القلق انه ليس من المناسب اصطحاب صديقه في مغامرة يجهل أبعادها .

لكنها سخرت منه ، وربما كانت محقة في قولها :

- أنت لن تأخذني معك إلى أي مكان ، بل أنا التي ستأخذك معها .

كانت هناك لوحة متآكلة بالصدأ ، لكنها ما تزال مقروءة ، تقول إن المكان مسيج ومخروس ، ومخطور الدخول اليه . وكانت بعض الاسلاك الشائكة تسد الطريق بصورة متوعدة ، فراودت الشاين للحظة الرغبة في التذرع بهذه الحجة ليرجعا على اعقابهما ، لكنها استبعدا فكرة التهرب في الحال وبحثا عن ثغرة في شبكة الاسلاك ليُدخلا منها الدراجة النارية . لقد جاءت اللوحة الصدئة والاسلاك الشائكة لتؤكد هواجسهما بوجود شيء جدير بالاكشاف . وكما خططا ، فقد اكتنفهما الليل عند وصولهما إلى هدفهما ، مما سيسهل من حركتهما . كان مدخل المنجم عبارة عن فجوة في الجبل تطل مثل فم أبكم يصرخ دون صوت . وكانت تلك الفجوة مسدودة بأحجار وتراب موطوء وبنوع من البناء . راودهما احساس بان أحداً لم يطأ هذا المكان منذ سنوات . فالعزلة تبدو وكأنها استقرت هناك لتبقى مقيمة الى الأبد ، ماحية آثار الدروب وذكرى الحياة . خبأ الدراجة النارية تحت بعض النباتات الكثيفة ، وجابا المكان بعد ذلك في جميع الاتجاهات ليتأكدا من عدم وجود حراسات . وبعثت نتيجة التفتيش الطمأنينة في نفسيهما ، لأنها لم يجدا اثراً بشرياً في المنطقة المحيطة ، ولم يكن هناك سوى كوخ بائس صغير مهجور للريح والنباتات البرية ، على بعد مئة متر من المنجم . وكانت الريح قد أطارت نصف سقفه ، وانهار أحد جدرانها على الأرض ، بينما غزت النباتات أرضه مغطية كل شيء بسجادة من العشب البري . بدت لهما هذه العزلة وهذا الهجران في مكان شديد القرب من لوس ريسكوس ومن الطريق العام أمراً مريباً .

همست ايرين :

- انني خائفة .

- وأنا كذلك .

نزعاً غطاء الترمس وشرباً رشفة كبيرة من القهوة، أراحت جسديهما وروحيهما. تمازحاً بالقول ان كل هذا ليس إلا لعباً وحاول كل منهما أن ينقل إلى الآخر عدوى الاعتقاد بانه لا يمكن لأي ضرر ان يطالهما، هما المحميان بروح خيرة. كانت ليلة مقمرة، وسرعان ما اعتادا على العتمة، فتناولوا المعول والمصباح اليدوي واتجها إلى الحفرة. لم يكن أي منهما قد رأى منجماً من الداخل من قبل، وكانا يتخيلانه مثل مغارة في الأرض تصل إلى أعماق سحيقة. وتذكر فرانثيسكو ان التقاليد تحظر وجود النساء في المناجم، لانهن يجلبن الكوارث تحت الأرضية، لكن ايرين سخرت من هذه الخرافة، وأصررت على مواصلة التقدم بأي شكل.

انقض فرانثيسكو على المدخل بمعوله. كانت خبرته قليلة في هذا النوع من الأعمال الشاقة، وكان لا يكاد يحسن استخدام المعول، فأدرك ان العمل سيستغرق أكثر مما توقعاه. لم تحاول صديقه مساعدته، بل جلست على صخرة، متدثرة بكنزتها الصوفية، لتحمي نفسها من الهواء الذي يندفع بقوة في عمرات الجبال الضيقة. كان أي صوت غريب يفزعها، وكانت تحشى وجود ضوارٍ، أو ما هو أسوأ من ذلك، وجود جنود يتر بصون في مكان قريب منها. حاولا أول الأمر ألا يصدرا أية ضجة، لكنها ما لبثا أن رضخا لما لا مفر منه، لأن ضربة المعدن على الصخر كانت تنتشر عبر الجبال القريبة، فيتلقفها الصدى ويكررها ألف مرة. ولو كانت هناك دوريات، كما يقول الاعلان، فليس أمامهما من مفر. وقبل مضي نصف ساعة كانت أصابع فرانثيسكو قد تشنجت وامتلت راحتا يديه بالفقايع، ولكن مجهوده أدى إلى فتح ثغرة استطاعا انطلاقاً منها ان يزيحا المواد المفتتة. فساعدته ايرين وتمكنا من فتح فجوة واسعة تكفي للانزلاق عبرها إلى الداخل.

أشار فرانثيسكو إلى الحفرة وقال مازحاً:

- السيدات أولاً.

وببلاغة اكبر من أي جواب، أعطته المصباح اليدوي وتراجعت خطوتين إلى الوراء. أدخل الشاب رأسه وذراعيه في الحفرة منيراً أعماقها بالمصباح،

فصفت انفه هبة هواء منتن . كان على وشك التراجع ، لكنه فكر بانه لم يصل إلى هنا ليتخلى عن المهمة قبل أن يبدأ بها . أضاءت حزمة الضوء بقعة في الظلام ليظهر رواق ضيق ، لم يكن يشبه في شيء تصوارته عن الناجم : كان المكان عبارة عن حجرة محصورة في قلب الجبل الصلد ، ينطلق منها نفقان ضيقان ، تردمهما الانقاص . وكانت ما تزال موجودة هناك السقالات الخشبية التي كانت تحول دون انهيار المنجم حين كان المعدن يُستخرج منه ، لكن مرور الزمن جعلها تتآكل وتهترىء لدرجة أن بعضها كان ما يزال قائماً في مكانه بمعجزة ، وكان مجرد النفخ عليها كافياً لتقويض توازنها الهش . وفجأة اصطدم جسم سريع بذراعه ومرق على بعد سنتمترات قليلة من وجهه ، فأطلق صرخة قوية ، كانت تعبيراً عن المفاجأة أكثر منها تعبيراً عن الخوف ، وافلت المصباح من يده . سمعته ايرين وهي في الخارج ، فأمسكت به من ساقيه وراحت تشده ، لاعتقادها بان شيئاً فظيماً قد حدث .

صاحت وروحها معلقة في فمها :

- ماذا جرى؟

لا شيء . انه فأر فقط .

- هلم بنا من هنا! هذا المكان لا يعجبني في شيء . . .

- انتظري ، سألقي نظرة في الداخل .

دخل فرانيسكو من الفتحة منزلقاً بحذر ليتفادى الحجارة البارزة واختفى وقد ابتلعه فم الجبل . رأت ايرين الحفرة السوداء تغيب رفيقها فأحست بالأسى ، رغم ان العقل كان يقول لها ان الأخطار ليست في داخل المنجم ، وانما خارجه . فإذا ما فوجئا وهما هناك فقد يتلقيان رصاصة في العنق وقبراً مجهولاً هناك بالذات . فالناس يموتون لأسباب أتفه بكثير من هذا السبب . تذكرت حكايات الأشباح التي كانت تروى لها روسا في طفولتها : العفريت المقيم في المرايا لتر وبع المزهوات بانفسهن ؛ والغول حامل الكيس المتليء بفتيات مخطوفات ؛ والكلاب ذات الحراشف التمساحية في ظهرها وأظلاف التيوس في قوائمها ؛ والرجال ذوو الرأسين

الذين يترصدون في الزوايا لاختطاف الفتيات اللواتي ينمن وأيديهن تحت الغطاء . حكايات قاسية كانت تسبب لها الكوابيس ، لكن انبهارها بها كان كبيراً لدرجة انها لم تكن تستطيع رفض سماعها ، بل كانت تطلب من روسا ان تفصها عليها وهي ترتجف خوفاً ، وترغب في صم اذنيها واغماض عينيها كيلا تسمعها وتتعجل في الوقت ذاته التقصي عن أدق التفاصيل : إذا ما كان العفريت يظهر عارياً ، وإذا كانت للغول رائحة كريهة ، وإذا كانت الكلاب خاطفة النساء تتحول إلى حيوانات اخرى مخيفة ، وإذا كان الرجال ذوو الرأسين قادرين على الدخول إلى المخادع المحمية بوجود صورة للسيدة العذراء فيها . وأمام الحفرة ، عادت ايرين لتعاني - في تلك الليلة من ذلك المزيج من الخوف واللذة الذي كانت تشعر به منذ زمن بعيد ، حين كانت مربيتها تخيفها بحكاياتها الخرافية . واخيراً قررت اللحاق بفرائيسكو ودخلت من خلال الفتحة بيسر ، لكونها نحيلة ورشيقة . ولم تحتج سوى لبضع ثوان كي تعتاد على العتمة . بدت لها الرائحة غير محتملة ، وأحست كأنها تستنشق سماً زعافاً . نزعت شال العجربة الذي كان مربوطاً على خصرها وغطت به نصف وجهها .

جاب الرفيقان المغارة واكتشفا وجود ممرين فيها . الممر الذي إلى اليمين كان يبدو وكأنه مسدود بالانقاض والتراب فقط ، فيما كان الممر الآخر مغلقاً بجدار مبني . اختارا اكثرهما سهولة وبدأ بازاحة الحجارة وجرف التراب عن النفق الأول . وفيما هما يبعدان الأنقاض ، كانت رائحة العفونة تشدّ مما جعلها يضطران إلى الاكثار من اخراج رأسيهما إلى الخارج عبر فتحة المدخل ليستنشقا نفساً من الهواء النقي الذي كان يأتيهما نظيفاً وصحياً مثل دفقة ماء بارد .

وحين أحست ايرين باتقاد كفيها المخدشين ، سألته قائلة :

- عم نبحث بالتحديد؟

فرد عليها فرائيسكو:

- لست أدري . وواصل العمل صامتاً ، لأن ذبذبات صوتيهما كانت تؤثر

على الدعائم المتعفنة .

استولى عليهما الخوف من المخاطرة . كانا يتطلعان من فوق كنفيهما إلى الفراغ المظلم وراءهما، ويتصوران ان ثمة عيوناً تراقبهما، وظلالاً تتحرك وراء ظهرهما، وهمسات تأتي من الأعماق . كانا يسمعان أنهن الأخشاب القديمة ويشعران بالفوارض التي تركز بين أقدامهما . وكان الهواء كثيفاً ومثقلاً يكتم الأنفاس .

أمسكت ايرين بصخرة وحركتها بكل ما اوتيت من قوة لتزيحها من مكانها . جاهدت قليلاً، واستطاعت انتزاعها، فتدحرجت عند قدميها ، وظهرت وراءها فتحة معتمة إلى جانب ضوء المصباح اليدوي . ودون ان تفكر مدت يدها لتلمس ما في الداخل ، وأطلقت في اللحظة ذاتها صرخة رهيبية من أعماقها زعزعت القبة ، واصطدمت بالجدران في صدى أصم وغريب لم تتعرف فيه على صوتها . التصقت بفرانثيسكو الذي حماها بحشرها إلى جوار الجدار، بينما كانت احدى الدعائم تفلت من السقف وتهوي بصخب . بقيا متعانقين، وعيناها مغمضتان، وهما لا يكادان يقويان على التنفس لزمان سرمدي . وحين ساد الصمت في آخر الأمر وهدا الغبار الذي اثاره الانهيار، تمكنا من استعادة المصباح اليدوي وتأكلنا من ان المخرج ما يزال سالكاً، وجه فرانثيسكو، ودون أن يفلت ايرين ، الضوء نحو المكان الذي حركت فيه الصخرة، فظهرت هناك اللقمة الأولى في هذه المغامرة المرعبة . كانت توجد يد بشرية، أو بكلمة أدق؛ بقايا يد بشرية .

قاد الفتاة إلى خارج المنجم وشدها إلى صدره، مجبراً اياها على استنشاق أنفاس طويلة من هواء الليل النقي . وحين أحس أنها قد استكانت قليلاً، احضر الترمس وقدم لها قليلاً من القهوة . كانت مذهولة، عاجزة عن النطق، وغير قادرة، لارتعاشها، على امساك الفنجان بين أصابعها . ساعدها على تناول الشراب كما يساعدون المرضى، وداعب شعرها، ثم حاول طمأنتها بان بين لها انها وجدا ما كان يبحثان عنه، ولا شك في أن الجثة هي جثة ايفانجيلينا رانكيليو . وانه على الرغم من حضور الموت، إلا ان ذلك لا ينطوي على أي تهديد، لأنها مجرد جثة . ومع ان ايرين لم تستوعب شيئاً من تلك الكلمات، لأن

انفعالها لم يمكنها من ان تعرف انها كلمات من لغتها، إلا ان ايقاع الصوت منحها بعض الموساة. وبعد مرور وقت طويل، وحين هدا اضطرابها، قرر فرانتيسكو اتمام عمله.

- انتظري هنا. سأرجع إلى المنجم لوضع لحظات. اتستطيعين البقاء وحدك؟

هزت الشابة رأسها موافقة وهي صامته، وثنت ساقها ثم غرست رأسها بين ركبتيها مثل طفل، محاولة ألا تفكر، وألا تسمع، وألا ترى، بل وألا تتنفس أيضاً، غارقة في أعظم كآبة، فيما رجع هو إلى المدفن حاملاً معه آلة التصوير ومغطياً وجهه بمنديل.

رفع فرانتيسكو الاحجار وأزاح التراب إلى ان كشف عن جسد ايفانخيلينا رانكيليو سانتشيث كله. تعرف عليها من لون شعرها الاشقر. كان نصف جسدها ملفوفاً بعباءة، وكانت حافية القدمين وترتدي شيئاً شبيهاً بتنورة تحتانية أو بقميص نوم. كانت في حالة فظيعة من التحلل، تتعفن في الدهن الذائب الذي تتغذى به الديدان، وتخمّر في تفسخها، مما اضطره إلى بذل مجهود هائل للتحكم في تقززه ومواصلة التقدم. لم يكن بالرجل الذي يفقد السيطرة على نفسه بسهولة، فقد مارس تدريبه المهني على الجثث، وكان قادراً على التحكم بمعدته، لكنه لم يجد نفسه حتى ذلك اليوم أمام مثل هذا المشهد، حيث اجتمعت قذارة المكان، ورائحة العفونة النفاذة والخوف المتراكم في داخله لتوهن من عزيمته. كان عاجزاً عن التنفس، فالتقط عدة صور بأسرع ما استطاع، ودون ان يهتم بضبط الكادر أو المسافة، لأن فقاعة غثيان كانت تعبر حنجرتة مع كل ومضة نور تضيء المشهد. هجل بالانتهاء بأسرع ما يمكنه وخرج هارباً من ذلك المدفن.

ما أن أصبح في الهواء الطلق حتى أفلت الكاميرا والمصباح وانهار على ركبتيه فوق الأرض ورأسه متدل، محاولاً الاسترخاء والسيطرة على تشنجات معدته. كانت الرائحة ملتصقة بجلده مثل طاعون ومحفورة في حدقتيه صورة ايفانخيلينا المطهورة في رعبها الأخير. فكان على ايرين ان تساعده على النهوض.

- ما الذي علينا عمله الآن؟

فقرر وصوته لا يكاد يخرج بسبب المخلب المتقد الذي يضغط على صدره :
- لئسد مدخل المنجم ، وبعد ذلك سنرى .
جمعا الحجاره نفسها ووضعها فوق الفتحة . كانا يعملان بسرعة وعصبية
وتهور ، وكأنهما باغلاقهما الفتحة سيمحوان ما تحويه وسيعودان في الزمان الى
اللحظة التي كانا ما يزالان فيها جاهلين بالحقيقة ، وسيحتفظان ببراءتهما في الجانب
المشرق من الواقع ، بعيداً عن ذلك الاكتشاف . أمسك فرانثيسكو بيد صديقه
وقادها إلى الكوخ الخرب ، الملجأ الوحيد المرئي في الجبل .



كانت ليلة هادئة . وعلى الضوء البكر كان المنظر يتكشف ، وتختفي رؤوس
الجبال وأشجار اليوكالبتوس المغمورة بالظل . كان الكوخ ينتصب فوق الجبل ولا
يكاد يبدو للناظر في الظلمة المخلخله ، منبثقاً من الأرض وكأنه ثمرة طبيعية من
ثمارها . وبالمقارنة مع المنجم ، بدا الكوخ من الداخل للشابين مريحاً كعش . توسدا
العشب في أحد الأركان وراحا يتأملان السماء ذات النجوم التي يلمع في قبتها
اللانهاية قمر حليبي . وضعت ايرين رأسها على كتف فرانثيسكو وبكت مفرجة
عن كل غمها . فطوقها بذراعه وبقيا على هذه الحال لوقت طويل ، ربما امتد
الى ساعات ، باحثين في السكينة والصمت عن مُسكِّن لما اكتشفاه ، وعن قوى
لاحتمال ما عليهما احتماله . استراحا معاً منصتين إلى حفيف اوراق الشجيرات
التي يحركها النسيم ، وإلى اصوات طيور الليل القريبة ، وإلى مرور الأرناب البرية
الرشيق فوق العشب .

وشيناً فشيناً أخذت تنحل العقدة التي كانت تضغط على روح فرانثيسكو .
فانتبه إلى جمال السماء ، ونعومة الأرض ، ورائحة الريف النفاذة ، واحتكاك ايرين
بعجسده . فوعى أبعاد جسدها ووزن رأسها على ذراعه ، وانحناء اليتها المستندة
على اليته ، وحصل شعرها التي تداعب رقبتة ، ونعومة بلوزتها الحريرية التي
تضاهي نعومة بشرتها . تذكروم تعرف عليها ؛ حين فنتته ابتسامتها ، فأحبها منذ
ذلك الحين ، ولم تكن جميع الحماقات التي أوصلته إلى هذه المغارة إلا ذريعة ليصل

اخيراً إلى هذه اللحظة الثمينة التي تصبح فيها ملكاً خالصاً له؛ قريبة منه، مخدولة ومستسلمة. أحس بالشهوة مثل موجة قاهرة ومتسلطة. توقف الهواء في صدره وانفلت قلبه في خفق مجنون. نسي خطيبها العنيد، وبياتريس الكانتر، ومصيره المجهول وجميع العوائق الأخرى التي تفصل بينهما. ستكون ايرين له لأن ذلك مكتوب منذ بدء تكوين الدنيا.

لاحظت التبدل الذي طرأ على نفسه، فرفعت وجهها ونظرت إليه. وعلى ضوء القمر الخافت لمح كل منها الحب في عيني الآخر. وأحاط قرب ايرين الدافئ فرانثيسكو بدثار من الحنان، فأغمض عينيه وجذبها باحثاً عن شفيتها، وفتحها في قبلة مطلقة مشحونة بالوعود، وبصفوة كل الآمال. قبلة طويلة، ورطبة، ودافئة تتحدى الموت. قبلة مداعبة، وهيب، وتمهيدة، واجهاشة حب. ذرع فمها، ورشف ريقها، واستنشق أنفاسها، مستعداً لاطالة تلك اللحظة حتى نهاية حياته، يهزه اعصار حواسه، واثقاً من انه لم يحي حتى الآن إلا من أجل هذه الليلة العجيبة التي سيغوص فيها وإلى الأبد في أعماق أحماق هذه المرأة. ايرين يا عسلأ وظلاً، ايرين يا ورق الأرز، يا حبة دراقن، يا زبدأ، يا لاستدارة اذنيك، يا لرائحة عنقك، يا لحماستي كفيك، ايرين، يا لهذا الحب. . لهذه العاطفة التي تصهرنا معاً في محرقة واحدة، أحلم بك مستيقظة، أشتهيك نائمة، يا حياتي، يا امرأتي، يا ايريني. لم يدركم من الكلمات قال لها ولا ما همست به اليه في تلك التمتمة المتواصلة. . في ذلك النبع المتدفق من الكلمات إلى اذنيه، ذلك النهر من تأوهات واختناقات من يارسا الحب عن حب.

وفي ومضة اتزان أدرك ان عليه عدم الاستسلام لدوافع التمرغ واياها على الأرض أو انتزاع ملابسها بعنف وتمزيقها في حمى تسرعه. خشبي ان يكون الليل قصيراً، بل والحياة كلها كذلك، بحيث لا تكفي لاستنزاف هذا الاعصار الذي في اعماقه. وبيطاء، وبشيء من الاضطراب، لأن يديه كانتا ترتعشان، فتح ازرار بلوزتها واحداً واحداً وكشف عن فجوتي ابطيها الدافئتين، وعن انحناء كتفيها، وعن نهديها الصغيرين وحلمتيهما، فوجدهما كما تخيلهما حين كان يحس باحتكاكهما

في ظهره وهما يركبان الدراجة النارية، أوحين كان يراها منحنية على طاولة الاخراج، أو عندما ضمها بين ذراعيه في تلك القبلة التي لا تُنسى . وعشش في كفيه عصفوراً سنونودافئان ولدا على مقاس راحتيه، فارتعشت لتلك الملامسة بشرة الفتاة المصبوغة بزرقة قمرية . رفعها من خصرها، فانتصبت واقفة فيما هو جاث أمامها، وراح يبحث عن الدفء المختبئ بين نهديها، وعن شذى الخشب واللوز والقرفة ؛ حل أربطة صندلها فظهرت قدماها اللتان كقدمي طفلة، وداعبها متعرفاً عليهما، لأنه كان قد حلم بهما كقدمين بريئتين وخفيفتين . شدّ سحاب بنطالها وانزله كاشفاً عن درب بطنها الصقيل، وظل سرتها، وخط ظهرها الطويل الذي ذرعه بأصابع ملتهبة، وفخذيهما المتينين المكسوين بزغب ذهبي . رآها عارية أمام اللانهاية، فخط دروبها بشفتيه، حفر انفاقها، صعد تلال جسدها، وجال في وديانه راسماً بذلك الخرائط اللازمة لجغرافيته . جثت هي أيضاً، وحين حركت رأسها رقصت خصلات الشعر القائمة على كتفيها، مختلطة مع لون الليل . عندما خلع فرانيسكو ملابسه بدوا وكأنهما الرجل الأول والمرأة الأولى قبل الخطيئة الازلية . لم يكن هناك من متسع لآخرين، فبشاعة العالم والنهاية الوشيكة كانت بعيدة بعداً شاسعاً عنهما، ولم يكن هناك سوى نور هذا اللقاء .

لم تكن ايرين قد عرفت حباً كهذا، وكانت تجهل ذلك النوع من الاستسلام، بلا حواجز وبلا مخاوف أو تحفظات، ولا تذكر أنها أحست بمثل هذه اللذة، ومثل هذا التواصل العميق والمتبادل . كانت تكتشف مذهولة الشكل الجديد والمفاجيء لجسد صديقها، ودفئه، وطعمه، ورائحته، فترتاده مستكشفة كل ما فيه شبراً شبراً، وتزرعه بمداعبات ابتدعتها لتوها . لم تكن قد استمتعت من قبل بمثل هذه السعادة في حفلة الحواس . خذني، امتلكني، احتضني، لاني آخذك أنا أيضاً، امتلكك، احتضنك . أخفت وجهها في صدره مستنشقة دفاً جلده، لكنه أبعداها برفق ليتأملها . فعكست مرآة عينيها السوداء البراقة صورته وقد أحالها الحب المتبادل أكثر تألقاً . وخطوة بعد خطوة راحا يبارسان طقساً أزلياً . احتضنته فغاب غارقاً في أكثر جنائنها خصوصية، واحتفظ كل منهما بايقاع الآخر في

تقدمها نحو النهاية نفسها . ابتسم فرانشيسكو بسعادة تامة لأنه وجد المرأة التي طالما لاحقها في مخيلته مذ كان مراهقاً، وبحث عنها في كل جسد عرفه على امتداد سنوات عديدة: انها الصديقة، الاخت، الحبيبة، الرفيقة . وفي سكون الليل، أقام فيها طويلاً وبلا تسرع، متوقفاً عند عتبة كل متعة، محبباً كل لذة، متخذاً وضعاً من الاستسلام التام . وبعد مرور وقت طويل، حين أحس بارتعاش جسدها مثل آلة حساسة وحين خرجت من فمها آهة عميقة لتغذي آهته، انفجر خزان هائل في بطنه وهزته قوة هذا السيل، وأغرقت ايرين في أمواه سعيدة .

بقيا ملتصقين في راحة هادئة، يكتشفان الحب في أبعاده المتسعة، يتنفسان وينبض قلباهما في ايقاع متوافق، إلى ان هيج الاتصال الحميم رغبته ثانية . أحست به ينمو فيها من جديد وبحثت عن شفتيه في قبلات لا نهائية . كانت السماء شاهداً عليهما، فيما حصى الأرض يחדشهما، ويغطيها الغبار والأوراق الجافة التي تفتت في فوضى الحب . كانت تدفعها رغبة جارفة، وعاطفة لا تحمد . تبادلوا المداعبات تحت القمر إلى ان نفذت روحاهما في تنهدات وعرق، واخيراً، ماتا متعانقين، وشفاهما متحدة ، يحملان الحلم نفسه . لقد بدأ طريقاً لارجعة فيه .

استيقظا مع أول أنوار الصباح وزقزقة عصافير الدوري، مبهورين بلقاء الجسدين وانسجام الروح . لكنهما تذكرتا عندئذ الجثة في المنجم واستردا الاحساس بالواقع . وبخيلاء الحب الذي تقاسماه، ارتديا ملابسهما وهما يرتجفان ويلفهما الذهول . ثم ركبا الدراجة النارية وانطلقا في الطريق نحو بيت آل رانكيليو .



كانت المرأة منحنية فوق طشت الغسيل، تدعك الملابس بفرشاة قاسية . كانت قدماها العريضتان مستقرتين بثبات فوق قطعة من الخشب كي لا نخوض في الوحل، ويدها الثقيلتان تعملان بهمة، تدعكان وتعصران ثم تضعان الاسمال في سطل، حيث تراكم تلك الملابس لتنظف من الصابون في مياه الساقية الجارية

فيما بعد. كانت المرأة وحيدة، لأن أولادها يذهبون في مثل هذا الوقت إلى المدرسة. وكانت بشائر الصيف قد بدأت بالظهور من خلال الفواكه شبه الناضجة، وتشكيلة الأزهار ذات الألوان الصاخبة، والقبولات الخانقة والفراشات البيضاء التي تطير في كل اتجاه مثل مناديل يحملها النسيم. وكانت أسراب العصافير تغزو الحقول ليتحد تغريدها بطنين النحل والناموس المتواصل. لم تكن ديغنا تشعر بشيء من هذا وذراعاها غائصان في طشت الغسيل، غير عابثة إلا بعملها المرهق. لكن ضجة الدراجة النارية وكورال الكلاب لفتا انتباهها فرفعت عينيها، ورأت الصحفية ورفيقها الذي لا يفارقها، صاحب آلة التصوير، يتقدمان في الفناء متجاهلين النباح. مسحت يديها بالمريلة وخرجت للقائهما دون ان تبسم، لأنها أحست بالانباء السيئة حتى قبل ان تنظر في عينيها. احتضنتها إيرين بيلتران في عنق خجول، هي الطريقة الوحيدة التي خطرت لها لتقديم العزاء. ففهمت الأم في الحال. لم تكن ثمة دموع في عينيها المعتادتين على كل تلك الأحزان المتنوعة أطبقت فمها بحركة مغمومة وأفلتت من صدرها تنهيدة مبسوطة لم تستطع كبجها، فسعلت لتخفي هذا الضعف وأزاحت خصلة شعر عن جبهتها، ثم أشارت للشايبين كي يتبعاها إلى داخل البيت. جلسوا ثلاثتهم حول الطاولة، وخيم عليهم الصمت لبضع دقائق، إلى ان جمعت إيرين الكلمات اللازمة لتقول مدممة:

- أظن اننا قد وجدناها .

وروت لها ما رآه في المنجم دون ان تشير إلى التفاصيل المرعبة، ومفسحة المجال للشك بان ما وجداه قد يكون رفات شخص آخر، لكن ديغنا أبدت هذا الأمل، لأنها تنتظر منذ مدة ظهور الأدلة على موت ابنتها. كانت تعرف انها قد ماتت بسبب الاحساس بالحداد الذي استقر في قلبها منذ الليلة التي اعتقلوا فيها الفتاة وللمعلومات التي تراكمت خلال سنوات الدكتاتورية.

قالت:

- انهم لا يعيدون أبداً من يعتقلونهم.

فرد فرانثيسكو:

- هذا الأمر لا علاقة له بالسياسة يا سيدتي ، انها جريمة مبتذلة .
- الأمر سيان . لقد قتلها الملازم راميرث وهو سيد القانون هنا ، فما الذي
استطيع عمله أنا؟

ايرين وفرانثيسكو كانا يشكان بالضابط أيضاً ، وكانا يفكران بأنه اعتقل
ايفانخيلينا ليجعلها تدفع بطريقة ما ثمن الاهانة التي وجهتها اليه أمام عيون كل
ذلك العدد من الشهود . ربما يكون قد فكر باحتجازها ليومين فقط ، لكنه لم يأخذ
بالحسبان ضعف بنية سجينته ، وتجاوزت يده الحد في تعذيبها فماتت . ونحن رأينا ما
فعله قرر اخفاء جسدها في المنجم وتزوير سجل المناوبة ليحمي نفسه من أي
تحقيق . لكن هذا كله لم يكن سوى تكهنات . وكان هناك طريق طويل لا بد من
السير فيه للوصول إلى أعماق هذا السر . وفيما الشابان يغتسلان في الساقية ،
أعدت لهما ديغنا الفطور ، موارية حزنها بالانهالك في أعمال البيت الروتينية من
اشعال النار ، وغلي الماء ، وترتيب الأطباق والفناجين . لأنها كانت تشعر بخجل
شديد من ظهور انفعالاتها .

على رائحة الخبز الطازج ، أدرك فرانثيسكو وايرين كم هما جائعان ، فهما لم
يتذوقا طعاماً منذ اليوم السابق . أكلا ببطء ، واثناء ذلك كانا يتبادلان النظرات
وكان كلاً منهما يود التعرف على الآخر ، وبيتسمان متذكرين الحفلة التي عاشاها
للتو ، ويلمس كل منهما يد الآخر في وعد مشترك . ورغم المأساة التي تحيط بهما ،
فقد كانا ينعمان بسلام أناني ، وكأنهما قد جمعا فئات حياتيهما المبعثر وتمكنا أخيراً من
رؤية مصيريهما . ويخيل اليهما انهما بمنأى عن أي شر ، في كنف سحر هذا الحب
الجديد .

قالت ايرين مقترحة :

- يجب إخبار براديليو كي لا يواصل البحث عن أخته .

فقرر فرانثيسكو:

- أنا سأصعد الجبل . انتظري هنا لتستريح قليلاً ولتبقي إلى جانب
السيدة ديغنا .

بعد الانتهاء من تناول الطعام، قبل صديقتي وانطلق على الدراجة النارية. كان ما يزال يذكر الطريق، فوصل دون صعوبة إلى المكان الذي تركوا فيه الجوادين حين ذهب مع خائيتنوني في المرة الأولى. وهناك خبأ الدراجة بين الأشجار وبدأ الصعود على الاقدام. كان واثقاً من قدرته على التوجه للعثور على المخبأ دون كثير من الدوران، لكنه ما لبث أن أدرك ان الأمر لن يكون سهلاً، لأن المشهد كان قد تبدل خلال هذه الأيام. فحرارة الصيف التي لوحت سفوح الجبال، أحرقت الخضرة ولم تبق إلا على الأرض العطشى. فغلب الشحوب على الألوان وفقدت رونقها الذي كانت عليه. لم يتعرف فرانيسكو على نقاط العلام التي ثبتها في ذاكرته، وترك نفسه تنقاد بالغريزة. توقف في منتصف الطريق مكتئباً، وموقناً من انه ضل الطريق، فقد خيل اليه أنه يمر ويعود للمرور من المكان ذاته. ولولا انه كان يمضي صاعداً، لأقسم انه يدور في حلقة. كان منهوكة بفعل التوتر الذي تراكم في الأيام الأخيرة وتأثير الليلة الماضية في المنجم. فهو يتعد عادة ما امكنه ذلك عن اختبار أعصابه في أعمال متهورة. ولأن عمله السري يقتضي الدخول في الأخطار والمجازفة، إلا أنه كان يفضل وضع خطط دقيقة والتقيدها. فالمفاجآت لم تكن تروقه. لكنه شعر بعدم جدوى المخططات الآن، لأن حياته كلها قد دخلت في متاهة من الفوضى. كان معتاداً على الاحساس بالعنف معلقاً في الهواء مثل غاز غير مرئي، تكفيه شرارة واحدة لينفجر في حريق لا ينظفيء، لكنه لم يكن ليفكر به، مثله في ذلك مثل آخرين كثيرين يعيشون ظروفًا مشابهة لظروفه. كان يحاول تنظيم حياته ضمن حد ادنى من الطبيعية. لكنه أدرك، هنا في وحشة الجبال، انه قد اجتاز حداً لا مرئياً ودخل في منطقة جديدة ومرعبة.

ما أن حلت الظهيرة حتى أصبح الحركانه الحمم البركانية. لم تكن هناك من خضرة حانية يجد في كنفها الحماية. فاستغل وجود نتوء صخري، وجلس ليستريح في ظله قليلاً، ساعياً لاستعادة ايقاع قلبه. اللعنة، من الأفضل لي أن أرجع قبل أن أسقط فاقداً قواي هنا. مسح العرق عن جبهته وواصل الصعود

ببسطه متزايد ووقفات أكثر. وأخيراً رأى مسيلاً ينحدر عكراً بين الصخور، فتهد براحة لأنه تأكد من أن خيط الماء سيقوده إلى نخباً براديليو رانكيليو. بلبل عنقه ورأسه وهو يحس باتقاد الشمس في جلده، ثم تسلق الأمتار الأخيرة، فوجد منبع المسيل، ويبحث عن الكهف بين الشجيرات، منادياً على براديليو بأعلى صوته، فلم يجبه أحد. كان المكان جافاً، الأرض مشققة والشجيرات مغطاة بغبار يلون المشهد بأسره بلون الفخار العتيق. رفع أحد الأغصان، فبدت فتحة المغارة، ولم يكن بحاجة للدخول إليها كي يعرف أنها مقفرة. تجول في الجوار دون أن يعثر على آثار الهارب وافترض أنه قد غادر المكان منذ عدة أيام، لأنه لم يجد هناك بقايا طعام أو أية علامات على الأرض التي كنستها الرياح. عثر في الكهف على علب مأكولات فارغة وعدد من روايات رعاة البقر أوراقها صفراء ومهترئة، وكانت تلك هي الآثار الوحيدة التي تشير إلى أن أحداً قد مر من المكان. كان شقيق ايفان خيلينا قد نظم كل شيء بدقة، كما هوشأن من اعتاد على النظام العسكري. تفحص فرانيسكو هذه الأشياء البائسة بحثاً عن علامة أو رسالة. فلم يجد هناك ما يشير إلى وقوع أعمال عنف، واستنتج من ذلك أن الجنود لم يعثروا عليه؛ وأنه تمكن دون ريب من الذهاب قبل أن يصلوا إليه. ربما يكون قد نزل إلى الوادي وحاول الابتعاد عن المنطقة أو أنه غامر باجتياز سلسلة الجبال في محاولة للوصول إلى الحدود.

جلس فرانيسكو ليال في المغارة وراح يتصفح الكتب. . انها مطبوعات جيب شعبية، ذات رسوم قبيحة، مشتراة من دكاكين بيع الكتب المستعملة أو من أكشاك الصحف. ابتسم وهو يستعرض غذاء براديليو رانكيليو الثقافي: رجل السهوب المتوحد، هوبالونغ كاسيدي، وأبطال آخرون من الغرب الأميركي، أولئك المدافعون الخرافيون عن العدالة، وحماة البائسين في مواجهة الاشرار. تذكر حديثهما خلال اللقاء الفاتت، واعتزاز ذلك الرجل بسلاحه الذي يعلقه في حزامه. فالمسدس والاحزمة والحذاء التي كان يستخدمها هي مثل تلك التي يستخدمها أبطال قصصه، انها العناصر السحرية التي يمكنها أن تحول شخصاً

تافهاً إلى سيد يتحكم بالحياة والموت، وتمنحه مكانة في الدنيا. انها أشياء شديدة الأهمية بالنسبة لك يا براديليو، وحين سلبوك إياها، لم يُمكنك من الاستمرار في الحياة إلا براءتك الحقّة وأملك باستعادة تلك الأشياء. اقنعوك بانك صاحب سلطة، وطرقوا رأسك بصخب مكبرات الصوت في الثكنة، ثم أمروك باسم الوطن، وبهذا أعطوك جرعتك من الذنب كي لا تستطيع رفع يدك وتبقى مكبلاً إلى الأبد بسلاسل الدم يا رانكيليو البائس.



تذكر فرانشيسكو وهو جالس في المغارة تلك الانفعالات التي سيطرت عليه حين حمل سلاحاً للمرة الوحيدة في حياته. كان قد تجاوز فترة المراهقة دون اضطرابات تذكر، فاهتمامه بالمطالعة كان أقوى من اهتمامه بالنضال السياسي، وذلك كرد فعل على المطبعة السرية وخطابات ابيه التحريرية اللاهبة. ومع ذلك، فقد جندته جماعة متطرفة، جذبتة إلى صفوفها بحلم الثورة، وكان يومها قد أنهى دراسته الثانوية. لقد رجع بذاكرته إلى تلك المرحلة مرات ومرات ليسأل نفسه عن سحر العنف، وعن ذلك الدوار الذي لا يُقاوم نحو الحرب والموت. فقد كان عمره ستة عشر عاماً حين مضى مع مجموعة من رجال العصابات المستجدين إلى الجنوب، ليتدربوا هناك على انتفاضة غامضة وعلى مسيرة عظمى نحو مكان ما. كانوا سبعة فتیان أو ثمانية - يحتاجون لمربية أكثر من حاجتهم لبندقية - هم الذين يشكلون تلك القوة الهزيلة، يقودهم زعيم أكبر منهم بثلاث سنوات، هو العارف الوحيد بقوانين اللعبة. لم يكن دافع فرانشيسكو إلى الالتحاق بهم هو نشر نظريات «ماو» في اميركا اللاتينية، لأنه لم يكن قد كلف نفسه عناء قراءتها، لكن دافعه كان رغبة بسيطة وساذجة في المغامرة. كان يود الابتعاد عن وصاية ابويه. وفي سعيه إلى اثبات انه قد صار رجلاً، غادر بيته في احدى الليالي دون ان يقول وداعاً، ودون أن يحمل معه سوى سكين كشاف، وزوج جوارب صوفية ودفترأ ليكتب فيه أشعاراً.

بحثت عنه اسرته حتى وصل بها الأمر إلى اللجوء للشرطة، وحين عرفوا طريقه لم يجدوا عزاء لمصيبة كهذه. أطبق البر وفسور ليال فمه وغرق في الكآبة، جريح الروح لجحود هذا الابن الذي مضى دون أن يقدم تفسيراً لذهابه. وليست أمه مسوح عذراء لورديس، مطالبة المساء برد قرّة عينها إليها. ولا شك في ان ذلك كان تضحية عظيمة بالنسبة لها، هي الحريصة على مظهرها والمتابعة لتطور الازياء كي ترفع طرف تنورتها أو تخفضه باضافة بعض الثنايا أو نزعها منه. أما زوجها، الذي تأهب أول الأمر لوضع تجربته التربوية موضع التطبيق وانتظار عودة ابنه العفوية دون ان يفقد هدوءه، ما لبث ان فقد صبره حين رأى زوجته بالعباءة البيضاء وحزام لورديس السماوي. وفي اندفاعه اللاواعي، نزع عنها تلك الملابس ممزقاً إياها، ومطلقاً الشتائم ضد البربرية ومهدداً بترك البيت، والبلاد، بل وترك أميركا كلها إذا ما عادت لارتداء هذه القباحة والظهور بها. بعد ذلك استنفض حماسه، ونفض الغباء عن طبعه المنذفع، وانطلق بحثاً عن ابنه الضائع. ذرع دروب البغال لأيام وأيام، متفحصاً كل ظل اجتازه في طريقه، وكان يراكم الغضب أثناء ترحاله من ضيعة إلى ضيعة، ومن جبل إلى جبل، ويضع الخطط لضرب الفتى للمرة الأولى في حياته. واخيراً أخبره أحدهم ان طلقات نارية تُسمع في الغابة بين حين وآخر، وان بعض الشبان الذين تغطيهم القذارة يخرجون من هناك أحياناً ليتسولوا الطعام وليسرقوا الدجاج، ولكن أحداً لم يكن ليفكر في الحقيقة انهم الحلقة الأولى من مشروع ثوري للقارة بأسرها، وانها مجرد طائفة دينية هرطوقة متأثرة بديانات الهند، مثل طوائف اخرى شوهدت في بعض الانحاء. وكانت هذه المعلومات كافية كي يصل البر وفسور ليال إلى معسكر رجال العصابات. حين رآهم متسربلين بالاسمال، متسخين ومسترسلي الشعور، يأكلون الفاصولياء المعلبة والسردين القديم، ويتدربون على بنديقية من الحرب العالمية الأولى، تملأ جلودهم لسعات الزناير وحشرات الجبل الاخرى، انزاح عنه كل الغضب فجأة وطفى عليه احساس بالشفقة موجود دائماً في اعماقه. ان انضباطه السياسي كان يدفعه إلى اعتبار العنف والارهاب خطأ استراتيجياً

فادحاً، وخصوصاً في بلد يمكن الوصول فيه إلى التغيير الاجتماعي عبر سبل أخرى. كان على قناعة من ان الجماعات الصغيرة المسلحة لا تتمتع بأدنى حظ من النجاح، وان هؤلاء الشبان لن يتوصلوا إلا إلى تمكين الجيش من التدخل لذبحهم. كان يقول انه لا بد للثورة من المجيء من خلال شعب واع، يدرك حقوقه وقوته، فيمسك بزمام حريته وينطلق في مسيرته، وليس من خلال ستة صبيان برجوازيين يلعبون لعبة الحرب.

كان فرانثيسكو يجلس القرفصاء إلى جوار موقد صغير يغلي عليه ماء، حين رأى ظهور وجه غريب بين الأشجار. كان وجه رجل عجوز يرتدي بلدة قائمة وربطة عنق، يغطيه الغبار والشوك، وله ذقن لم تُخلق منذ ثلاثة أيام وشعر مشعث ومعفر، يحمل حقيبة سوداء في إحدى يديه وغصناً جافاً يتوكأ عليه في اليد الأخرى. نهض الفتى واقفاً من المفاجأة، وحذا حذوه رفاقه الذين حوله. وحينئذ فقط تعرف على القادم. كان يذكر والده كرجل قصير مهيب، ذي عينين عاطفتين وصوت خطيب، ولكن ليس بأي حال من الأحوال مثل هذا الكائن المحطم والكئيب الذي يتقدم وهو يعرج، بظهره المنحني، وحذائه المعفر بالغبار. واستطاع فرانثيسكو ان يهتف، قبل ان تخنق صوته اجهاشة:

بابا!

أفلت البر وفسور ليال عكازه الخشنة وحقيته الصغيرة، وفتح ذراعيه. قفز ابنه من فوق الموقد راكضاً أمام رفاقه المذهولين، والتحم بابيه متبيناً اثناء ذلك انه لم يعد قادراً على الاختباء في كنف صدره، لأنه صار أطول من ابيه بمقدار نصف الرأس وأمتن منه بنية بكثير.

- أمك في انتظارك.

- هاأنذا قادم.

وبينما الصبي يجمع أشياءه، انتهز الروفسور الفرصة ليوجه خطبة للأخرين، متعللاً بأنهم إذا كانوا يريدون القيام بثورة فعليهم التصرف وفق بعض القواعد، وليس بهذا الاسلوب الارتجالي.

فقال أحدهم :

نحن لا نرتجل .. اننا بكيينون .

فرد الروفسور ليال بحزم :

- انتم مجانين . ما كان صالحاً للصينيين لن ينفذ هنا .

بعد ذلك بزمن طويل ، سينطلق هؤلاء الفتيان في الجبال والغابات ،
مطلقين الرصاص والشعارات الآسيوية في قرى نسيها التاريخ الاميركي . لكن
البروفسور ليال لم يكن ليتصور كل ذلك يوم أخذ ابنه من المعسكر، وحين هز
أولئك الفتيان أكتافهم وهم يرونها يتعدان .

أثناء رحلة العودة في القطار، بقي الأب صامتاً يتأمل فرانثيسكو، وحين
وصلا إلى المحطة أفضى له بكل ما في قلبه بكلمات قليلة :

- انتظر ألا يتكرر هذا . لأنني في المرة القادمة سأضربك ضربة الحزام مقابل

كل دمعة من دموع أمك . أتري هذا عدلاً؟

- أجل يا بابا .

كان فرانثيسكوراضياً في أعماقه عن عودته إلى البيت . وبعد مرور زمن
قصير، حين شفي تماماً من اغراء حرب العصابات، غرق في النصوص
السيكولوجية مفتوناً بلعبة الأوهام تلك، وبالأفكار المتضمنة في أفكار اخرى
والمتضمنة بدورها في غيرها، وذلك في تحدّ لانهائي . واستغرقت الآداب أيضاً
فشغف بأعمال الكتاب الاميركيين اللاتينيين، ونبهه ذلك إلى أنه يعيش في بلد
كأنه رسم ملون، أوبقعة على الخريطة، محاطة بقارة فسيحة وعجيبة، حيث
التقدم يصل متأخراً بضعة قرون : أرض، أعاصير، وبراكين، وأنهار عريضة
كالبحار، وغابات كثيفة لا يخترقها ضوء الشمس، وأرض مغطاة بالدبال تدب
فوقها حيوانات خرافية، وتعيش عليها كائنات بشرية لم تتغير منذ نشوء العالم،
وجغرافية مضطربة يولد المرء فيها وعلى جبهته نجمة، علامة الدهشة؛ منطقة
مسحورة ذات جبال رهيبية حيث يصبح الهواء رقيقاً مثل حجاب، وصحارى لا
نهائية، وغابات وارقة، ووديان بلا قرار. هناك تندمج جميع أجناس البشر في بوتقة

العنف: هنود معممون بالريش، ورحالة من جمهوريات نائية، وزنوج جوالون، وصينيون يدخلون تهريباً في صناديق التفاح، وأتراك مختلطون، وفتيات نار، ورهبان، وأنبياء، وطغاة، جميعهم جنباً إلى جنب، الأحياء وأشباح أولئك الذين وطئوا على امتداد القرون هذه الأرض المباركة بشتى الآلام. وفي كل مكان منها هناك رجال ونساء اميركيون، يكابدون في حقول القصب، ويرتجفون من الحمى في مناجم القصدير والفضة، ويهيمون تحت المياه لاصطياد محار اللؤلؤ، ويبقون على قيد الحياة في المعتقلات رغم كل شيء.

وبحثاً عن أنماط معيشية اخرى، قرر فرانثيسكو أن يتابع دراسته في الخارج، فأقلق ذلك والديه بعض الشيء، لكنها وافقا على تمويله، وكانا من الرقة بحيث صمنا ولم يوجهها التنبيهات المعتادة حول الشرور التي ترصد الشبان حين يرحلون بمفردهم. أمضى بضع سنوات في الخارج، حصل في نهايتها على درجة دكتوراه ومعرفة معقولة للغة الانكليزية. ولكي يغطي نفقاته، كان يجلو الأطباق في أحد المطاعم ويصور حفلات ضئيلة الأهمية في أحياء المهاجرين.

كان وطنه يمور في تلك الفترة بغليان سياسي، وفي السنة التي رجع فيها فاز بالانتخابات مرشح اشتراكي. ورغم التكهنات المتشائمة والمؤامرات للوقوف في وجه هذا المرشح، إلا أنه جلس على كرسي الرؤساء أمام ذهول السفارة الاميركية.

لم يكن فرانثيسكو قد رأى أباه في مثل تلك الحالة من البهجة.

- أرايت يا بني؟ لم تكن هناك من حاجة لبندقيتك.

فيقول فرانثيسكو ساخراً:

- ولكنك فوضوي أيها العجوز، وحزبك ليس ممثلاً في الحكومة.

- هذه صغائر! المهم ان الشعب هو من يملك السلطة الآن، ولن يستطيعوا

انتزاعها منه أبداً.

لقد كان يخلق في الوهم كعادته. ويوم وقع الانقلاب العسكري ظن انها جماعة متمردة لن تلبث القوات المسلحة الموالية للدستور والجمهورية ان تسيطر

عليها. وبقي ينتظر ذلك لعدة سنوات فيما بعد. كان يقارع الدكتاتورية بوسائل غريبة. ففي أوج القمع، وحين أعدوا حتى الملاعب الرياضية والمدارس لاعتقال آلاف السجناء السياسيين، طبع البروفسور ليال بعض المنشورات في مطبخ بيته، وصعد إلى الطابق الأخير من مبنى البريد وألقى بها إلى الشارع. كانت تهب رياح مواتية، فحالف مهمته النجاح، إذ حظ عدد من تلك المنشورات في وزارة الدفاع. كان نص المنشور يتضمن بعض الأفكار التي بدت له مطابقة للخطة التاريخية التي تعيشها البلاد:

ان تربية العسكريين، من الجندي العادي وحتى أعلى المراتب، تحولهم بالضرورة إلى أعداء للمجتمع المدني وللشعب. حتى ان زهم، بكل تلك الزينة المضحكة التي تميز الوحدات والرتب، وكل تلك الحماقات الصبيانية التي تحتل قسماً مهماً من وجودهم، تجعلهم يبدون كالمهرجين، لولا التهديد الدائم الذي يشكلونه، وهذا كله يفصلهم عن المجتمع. ان هذه الزينة، والطقوس الكثيرة التي تدور حياتهم وسطها دون هدف آخر سوى الاستعداد للمذبحة والدمار، هي مذلة بالنسبة لرجال لم يفقدوا الاحساس بالكرامة الانسانية. ان الطاعة العمياء هي ميزتهم الأولى، وفي خضوعهم للانضباط المستبد، ينتهون إلى الاحساس بالرعب من كل من يتحرك بحرية. انهم يريدون ان يفرضوا بالقوة الانضباط الغاشم، والنظام الاخرق الذي يشكلون هم أنفسهم ضحاياه.

ليس هناك من سبيل إلى حب الخدمة العسكرية إلا بمعاداة الشعب.

● باكونين

لوان الروفسور ليال أمعن التفكير، أوبحث عن رأى من هو اكثر خبرة، لأدرك انه نص طويل جداً بالنسبة لمنشور سيلقى في الهواء، لأن أحداً لن يتمكن من قراءة نصفه إلا ويكون قد اعتقل. لكن احترامه لأبي الفوضوية كان شديداً لدرجة انه استغرق كل ذهنه دون ان يبقي شيئاً لخططه. ما ان انقضت اربع وعشرين ساعة حتى علم أولاده وزوجته بالأمر، وذلك حين نشرت الصحف

والاذاعة والتلفزيون بلاغاً عسكرياً، فقطعه من الجريدة ليحتفظ به في ألبومه الخاص .

بلاغ رقم /١٩/

١ - نحذر المواطنين من ان القوات المسلحة لن تتساهل بشأن المظاهرات العامة مهما كان نوعها .

٢ - على المواطن باكونين، الذي وقع منشوراً ينال فيه من شرف القوات المسلحة المقدس، المثول طوعاً في وزارة الدفاع قبل الساعة ١٦,٣٠ من هذا اليوم .

٣ - ان عدم حضوره يعني انه قد وضع نفسه تحت طائلة تدابير مجلس القادة العامين، وعرض نفسه للنتائج التي يمكن تصورها .

في ذلك اليوم بالذات قرر الاخوة ليال الثلاثة نقل آلة الطباعة من المطبخ ليحولوا دون وقوع أبيهم في شراك مثاليته العاطفية . وحاولوا منذ ذلك الحين عدم تعريضه لأي نوع من القلق . فلم يطلعه أحد منهم على نشاطاته في المعارضة، لكنهم لم يستطيعوا منع البر وفسور ليال حين اعتقل خوسيه مع عدد من رهبان وراهبات المطرانية، من الجلوس في ساحة السلاح وهو يرفع لافتة كتب عليها: انهم يعذبون ابني في هذه اللحظة . ولولا وصول خابيير وفرانثيسكو في الوقت المناسب ليقوداه من ذراعيه بعيداً عن ذلك المكان، لبلل ملابسه بالبنزين وأشعل النار في نفسه مثل بوذي أمام عيون من اجتمعوا حوله مشفقين .

انضم فرانثيسكو إلى مجموعة منظمة تعمل على تهريب الملاحقين عبر احدى المناطق الحدودية وادخال عناصر من المعارضة عبر منطقة اخرى . وكان يؤمن المال اللازم لمساعدة الناجين المتوارين عن الأنظار ولشراء الطعام والادوية، ويجمع المعلومات لارسالها إلى الخارج مخبأة في نعال رهبان أو في شعور دمي . وأنجز بعض المهام شبه المستحيلة : فقد صور جزءاً من الأرشيف السري للشرطة السياسية وسجل على ميكروفيلم صوراً للهويات الشخصية للقائمين على عمليات التعذيب، مفكراً بان هذه المعلومات قد تكون ذات نفع في أحد

الأيام لاحقاق العدالة . ولم يطلع على هذا السر أحد سوى خوسيه ، الذي لم يكن يرغب في سماع الأسماء أو الأماكن أو غيرها من التفاصيل ، لأنه كان قد تأكد من صعوبة الصمت تحت بعض أصناف التعذيب .

ولأنهما كانا يشاركان في مهمات متماثلة ، فقد فكر فرانثيسكو باخيه وهو في مغارة براديليو رانكيليو ، وندم لأنه لم يطلب منه المساعدة . فإذا كان الهارب قد ولج المنطقة الصامتة من الجبال ، فلن يجده من أثر ، وإذا كان قد نزل إلى الوادي لينفذ ثأره واعتقل هناك ، فسيكون من المستحيل مد يد المساعدة إليه .
نفص فرانثيسكو التعب ، وبلبل ثيابه بالماء ليستمتع بالرطوبة وبدأ بالنزول وقيظ القيلولة بثقل رأسه ، ويغشي عينيه أحياناً بنقاط ملونة تراقص أمام حدقتيه .

واخيراً وصل إلى المكان الذي ترك فيه الدراجة النارية ، وهناك وجد إيرين في انتظاره . فصديقته التي فقدت الصبر وهي تنتظره في بيت آل رانكيليو ، أوقفت أول عربة خضار عابرة وطلبت ممن فيها ان يحملوها معهم . تعانقا بشوق ، وقادته إلى ظل الأشجار حيث سوت الأرض مبعدة الحصى ، وساعدته على الاستلقاء . وفيما هو يحاول الراحة والسيطرة على ارتعاش ساقيه ، مسحت العرق عن وجهه ، ثم قطعت شمامة أهدتها إياها ديغنا واعطته ليأكل منها ، منتزعة القطع بأسنانها لتضعها في فمه مرفقة بقبلة . كانت الفاكهة دافئة وشديدة الحلاوة ، لكنه أحس أن كل لقمة منها هي بمثابة دواء عجيب ، قادر على الغاء اثر الاجهاد وعلى مكافحة الخمود . وحين لم يبق من الشمامة سوى قشورها المقضومة ، بللت إيرين المنديل من جدول ماء ونظفاه به ديديها ووجهيهما . وتحت شمس الساعة الثالثة اللاهبة ، جددا العهود التي همسا بها في الليلة السابقة ، وتبادلا المداعبات المجربة التي تعلمها حديثاً .

ورغم سعادة هذا الحب الذي لم يكذب يوماً ، فإن إيرين لم تكن تستطيع إبعاد ذكرى المنجم من ذاكرتها . فتساءلت :

- كيف عرف براديليو بمكان جثة اخته؟

الحقيقة ان فرانيسكو لم يكن قد فكر بذلك، ولم يكن يرى ان تلك اللحظة هي اللحظة المناسبة للتفكير بأمر كهذا. كان يشعر بالارهاق، وكانت رغبته الوحيدة هي النوم قليلاً ليتخلص من الدوار، لكنها لم تتح له الوقت لذلك. كانت تجلس مقاطعة ساقها مثل فقير هندي، وتتكلم بسرعة، قافزة من فكرة الى اخرى، كما هي عاداتها. وكانت ترى انه في هذه النقطة بالذات يكمن مفتاح بعض الأسرار الاساسية. وفيما صديقها يستجمع قواه ويحاول تصفية ذهنه، كانت هي تبهر في الموضوع موضحة الشكوك ويأحثة عن اجابات، إلى أن استخلصت بشكل مؤكد ان براديليو رانكيليو يعرف منجم لوس ريسكوس لأنه كان يتردد عليه مع الملازم خوان دي ديوس راميريث. لا بد انهما استخدماه ليخفيا فيه شيئاً، لأن الشرطي كان يعرف انه مكان آمن وقد افترض ان رئيسه سيعود إلى استخدامه عند الحاجة.

قال فرانيسكو وفي عينيه نظرة من فوجيء وهو يسير نائماً:
- لست أفهم شيئاً.

- الأمر في غاية البساطة. فلنذهب إلى المنجم ونفتح النفق الثاني. فقد نجد هناك مفاجأة.

سيتذكر فرانيسكو هذه اللحظة فيما بعد مبتسماً، إذ بيننا دائرة الرعب تطبق من حولها، فإن شعوره الغالب كان معانقة ايرين، ناسياً الموتى الذين بدأوا ينبثقون من تحت الأرض مثل شجيرات برية، والخوف من الاعتقال أو الاغتيال. كان ذهنه مشغولاً تماماً بالرغبة الجارحة في ممارسة الحب. وبدلاً من تلمس الطريق في المتاهة التي يتقدمان فيها، كان يحاول البحث عن مكان مريح ليلعب معها. وكان اندفاعه لضمها بين ذراعيه، واحتضانها، وشمها، والاحساس بها تحت جلده، وامتلاكها على مرأى من الاشجار أقوى من الارهاق والحرق والعطش، كان يريد ان يفعل كل ذلك هناك بالذات، إلى جانب الطريق، تحت أنظار من يصادف مروره الآن. ولحسن الحظ أن أفكار ايرين كانت أكثر صفاء، فقالت له حين حاول احتضانها فوق العشب: أنت محموم. ثم شدته من ملابسه لتقوده إلى

الدراجة النارية وأقنعتة بالانطلاق، ممتطية الدراجة خلفه ومحتضنة خاصرته، هامسة بأوامر جازمة وبكلمات غرامية في اذنه، إلى ان خففت اهتزازات الدراجة وضوء الشمس المبهر من اندفاع عواطفه واعادت اليه السكينة، فواصل طريقهما إلى منجم لوس ريسكوس.



كان الوقت ليلاً حين وصلت ايرين مع فرانيسكو إلى بيت آل ليال . وكانت هيلدا قد انتهت لفورها من اعداد عجة البطاطا فيما كانت رائحة القهوة تعطر المطبخ . لقد أشرفت هذه الحجرة الفسيحة للمرة الأولى ، وظهرت أبعادها الحقيقية بعد اخراج آلة الطباعة منها، فاتيح للجميع تقدير سحرها : الاثاث الخشبي القديم المغطى بقطع من الرخام، والثلاجة المعمرة والطاولة الموضوعة في الوسط والتي تستخدم لألف غرض ويجتمع أفراد الأسرة حولها . كان هذا المطبخ يشكل المكان الأكثر دفئاً وحناناً في الدنيا خلال فصل الشتاء، ففيه، وإلى جانب آلة الخياطة والمذياع والتلفزيون، يجدون ضوء ودفاء مدفأة الكير وسين والفرن والمكواة . ولم يكن فرانيسكو يجد مكاناً أفضل من تلك الحجرة، فأجمل ذكريات طفولته حدثت اثناء لعبه ودراسته واحاديثه الهاتفية الطويلة مع خطيبة ذات جدائل مدرسية في هذه الحجرة، فيما امه التي كانت ما تزال شابة وفاتنة في ذلك الحين، تقوم بأعمالها مدنونة بأغنيات من وطنها الاسباني البعيد . كان الجويعبق دوماً برائحة الاعشاب الطازجة وبهارات تتبيل الطعام والمقالي . وتختلط رائحة أغصان اكليل الجبل، وأوراق الغار، وفصوص الثوم، ورؤوس البصل، والفانيليا، واليانسون والشوكولاته المستخدمة في صنع الحلوى والبسكويت .

في تلك الليلة، كانت هيلدا تصفي قليلاً من قهوة ممتازة أهدها إياها ايرين بيلتران . ووجدت ان هذه المناسبة تستدعي اخراج الفناجين الخزفية الصغيرة التي تحتفظ بها في الصوان، والتي يختلف كل منها عن الآخر وتبدو لرققتها وكأنها

تهييدات . كانت رائحة القهوة هي أول ما تلقاه الشابان عند فتح الباب ، وقادتهما إلى قلب البيت .

أحس فرانثيسكو لذي دخولهما انه محاط بدفء الجو ، الدفء الذي كان يشعر به في طفولته ، حين كان صبياً نحيلاً وضعيفاً ، وضحية الألعاب الخشنة مع أولاد أكثر منه قوة وقسوة . كانت قد اجريت له جراحة وهو حديث الولادة بسبب تشوه خلقيّ ففي إحدى ساقيه ، وقد رعته امه التي كانت دعامة طفولته في ظل تنورتها ، وأرضعته لفترة أطول بكثير من فترة الرضاعة المعتادة ، وحملته على ظهرها أوبين ذراعيها أو على وركها وكأنه جزء من جسدها ، إلى أن شفيت عظامه تماماً وصار قادراً على الاعتماد على نفسه . كان يأتي من المدرسة وهو يجرب لوازمه ، متهيئاً للقاء أمه في المطبخ ، حيث تنتظره بابتسامتها الهادئة المرحة وقد أعدت له وجبة طعامه . لقد تركت هذه الذكرى أثراً خالداً في روحه على مدى الحياة ، وكلما احتاج لاستذكار الطفولة ، كان يعيد في ذاكرته بناء أدق تفاصيل هذه الحجرة ، رمز الحضور الكليّ للحب الامومي . ولقد أحس في تلك الليلة بالاحاسيس ذاتها حين رآها تحرك العجة في المقلاة وتندندن بصوت خافت . وكان أبوه عاكفاً على دفاتره يصحح اختبارات التلاميذ ، تحت ضوء مصباح السقف .

أفزع منظر القادمين الزوجين ليال . فقد كان الشابان شاحيين ، ثيابهما مجمدة ومتسخة ، وتطل من عينيها تعابير غريبة .

سألها البر وفسور:

- ماذا أصابكما؟

فرد فرانثيسكو:

- وجدنا مدفناً سرياً . توجد فيه جثث كثيرة .

- كونيو! - صاح أبوه ، متلفظاً لأول مرة في حياته بكلمة نابية أمام زوجته . رفعت هيلدا منديل المطبخ إلى فمها ، وفتحت عينيها الزرقاوين المستديرتين برعب ، متجاوزة بذاءة زوجها . وكان الشيء الوحيد الذي استطاعت ان تتمم به :

- أيتها العذراء المقدسة!

قالت ايرين:

- أظن انهم من ضحايا الشرطة.

- هل هم من المفقودين؟

وقال فرانيسكو:

- هذا ممكن. - ثم أضاف وهو يُخرج بضعة أفلام من حقيبته ويضعها فوق

الطاولة: - لقد التقطت بعض الصور.

رسمت هيلدا اشارة الصليب بحركة آية. وانهارت ايرين فوق أحد المقاعد وقد نفذت قدرتها على الصمود، فيما كان البر وفسور ليالي يتمشى بخطوات واسعة دون ان يجد الكلمات المناسبة في قاموسه الواسع والغني. كان ميلاً إلى الفصاحة، لكن وقع ذلك النبا أفقده القدرة على النطق.

روى فرانيسكو وايرين ما جرى. فقد وصلا إلى منجم لوس ريسكوس عند الأصيل، منهكين وإجائعين، ولكنها كانا على استعداد للتحري بدقة، ومتشبهين بأمل العودة إلى حياتهما الطبيعية وتبادل الحب بطمأنينة بعد حل هذا اللغز. لم تكن تبدو على المكان أية علامات شؤم في وضوح النهار، لكن ذكرى ايفانجيلينا اجبرتهما على التقدم بحذر. أراد فرانيسكو الدخول وحيداً، لكن ايرين قررت التغلب على ترددتها ومساعدته في فتح النفق الثاني لينتهيها ويخرجها من هناك بأسرع ما يمكن. ازاحا الانقاص والأحجار عن المدخل بسهولة، وشقوا المنديل إلى قطعتين، ربطاهما إلى وجهيهما ليتقيا رائحة العفونة القوية ودخلا الرواق الأول. لم يحتاجا إلى اضاءة المصباح اليدوي، فالشمس كانت تنفذ من الفتحة مضيئة جسد ايفانجيلينا رانكيليو، فغطاه فرانيسكو بالعباءة ليحجبه عن عيني صديقه.

اضطرت ايرين إلى الاستناد إلى الجدار كي تحتفظ بتوازنها، لأن ساقها انهارتا. حاولت التفكير بحديقة بيتها حين تتفتح فيها أزهار اللاتنسيني فوق قبر الوليد الذي سقط من كوة النور، أو بالثمار المكدسة في سلال ضخمة أيام السوق.

رجاها فرانثيسكو أن تخرج ، ولكنها تمكنت من السيطرة على معدتها وتناولت قطعة حديد عن الأرض ، وانحالت بها على طبقة الاسمنت الرقيقة التي تسد مدخل النفق . وشاركها فرانثيسكو في هذه المهمة مستخدماً المعول . لا بد أن مزيج مواد البناء قد أعدته أيد غير خبيرة ، لأنه كان يتفتت قطعاً صغيرة أمام أدنى الجهود . وانتشرت في الجو ، اضافة لرائحة التتانة ، سحابة كثيفة من غبار الاسمنت ، لكنها لم يتراجعا ، ليقينهما الذي كان يترسخ مع كل ضربة يهويان بها في انها سيجدان شيئاً في انتظارهما وراء هذا الحاجز . سيجدان حقيقة مخبأة منذ زمن طويل . وبعد عشر دقائق من الحفر وجدنا قطعاً قماشية وبعض العظام . كانت هناك اضلاع مغطاة بقميص أبيض وصدريه زرقاء . وفيما الغبار يهدأ ، أشعلا المصباح اليدوي ليتفحصا هذه العظام ويتأكدوا من انها عظام بشرية . وكان يكفي ان يحفرا قليلاً بين الانقراض لتدحرج حينئذ عند أقدامهما جمجمة ما تزال عالقة في جبهتها خصلة شعير . لم تستطع ايرين احتمال المزيد ، فخرجت من المنجم متعثرة ، فيما واصل فرانثيسكو الحفر دون تفكير ، وكأنه آلة صامتة . بدأت تظهر بقايا اخرى ، فأدرك أنه في مدفن مليء بالجلث المدفونة منذ سنوات ، كما يبدو من حالتها . كانت الاجزاء البشرية تظهر من تحت التراب مختلطة بالملابس المهترئة الملطخة ببقع من مادة زيتية قائمة . التقط فرانثيسكو قبل أن ينصرف بعض الصور بكل هدوء ودقة ، وكأنه في حلم ، لأنه كان قد اجتاز حدود الدهول ، وصار الأمر يبدوله طبيعياً على غرابته ، واكتشف نوعاً من المنطق في ذلك الوضع ، كما لو ان العنف كان ينتظره ، دوماً . ورأى ان هؤلاء الموتى الذين برزوا من تحت التراب بأيديهم المعروقة وجباهاهم المثقوبة بالرصاص ، كانوا ينتظرونه منذ وقت بعيد ، وينادونه دون توقف ، لكنه لم يسمعهم حتى ذلك اليوم . وفاجأ نفسه وهو يتكلم بصوت عال ليوضح لهم سبب تأخره باحساس من تخلف عن موعد . نادته ايرين من الخارج ، لتعيده إلى الواقع ، فخرج من المنجم وهو يجرجر روحه .

تعاوننا على سد مدخل المنجم محاولين جعله يبدو كما وجداه . واستراحا لبضعة دقائق استنشقا خلالها الهواء النظيف ملء رئتيهما ، فيما كل منهما يشد على

يد الآخر ويسمع نبضات قلبه المنفلتة المكابح . وذكرهما تنفسهما المضطرب
وارتعاش جسديهما بانهما ما يزالان على قيد الحياة على الأقل . اختفت الشمس
خلف الجبال واصطبغت السماء بلون البترول ، فركبا الدراجة النارية واتجها
صوب المدينة .

تساءل البر وفسور ليال عندما انتهيا من القصة :

- ماذا سنفعل الآن؟

تجادلوا طويلاً حول الطريقة المثلى لكشف القضية ، مستبعدين فكرة
اللجوء إلى القانون ، لأن ذلك سيكون كمن يضع عنقه في انشودة . فقد افترضوا
أن براديليو رانكيليو كان يعرف أن اخته في المنجم لكونه استخدم هونفسه هذا
المكان لإخفاء جرائم أخرى ، وانذار السلطات قد يعني اختفاء ايرين فرانثيسكو
كذلك خلال بضع ساعات ، وتغطية منجم لوس ريسكوس ببضعة رفوش جديدة
من التراب . فالعدالة ليست إلا مصطلحاً منسياً من اللغة التي لم تعد تستخدم ،
لأن لهذا المصطلح هيئة توحى بالتمرد ، مثله مثل كلمة حرية . كان العسكريون
ينعمون بعفو من العقاب عن كل ما يقترفونه ، وكان ذلك يشكل عائقاً أمام
الحكومة ذاتها ، فلكل فرع من القوات المسلحة جهازه الامني الخاص ، اضافة إلى
الشرطة السياسية التي تحولت إلى السلطة العليا في الدولة ، وكانت بمنأى عن أية
رقابة . إن الغيرة المهنية لمن يتولون هذه الأجهزة كانت تؤدي إلى وقوع أخطاء
مؤسفة وإلى انعدام الفعالية . فقد يحدث ان تتنازع جماعتان أو ثلاث جماعات
امنية على أحد المعتقلين ، وكل جماعة منهم تريد استجوابه لاسباب متناقضة ، أو
انهم يخطئون بالعملاء المزدوجين وتنتهي الجماعة إلى تصفية أفرادها .

تهددت هيلدا :

ربها ! كيف خطر لكما الدخول إلى ذلك المنجم؟

ورد البر وفسور :

- ما فعلتاهم هو عين الصواب . ويجب البحث الآن عن طريقة تخرجان بها

من هذه المشكلة .

فأفترحت ايرين وهي تفكر بمجالات المعارضة القليلة التي ما زالت متداولة :

- الشيء الوحيد الذي يخطر لي هو أن نعلم الصحافة بالأمر.
- وقرر فرانشيسكو:
- سأذهب غداً ومعى الصور.
- فأكد لها البروفسور ليال :
- لن تستطيعا المضي بعيداً. سيقتلونكما عند أول ناحية.

ومع ذلك، كانوا جميعهم متفقين على ان الفكرة ليست بالجنونية. فالحل الأفضل هو في اعلان الخبر، واطلاقه ليجوب العالم ويهز الضمائر ويزعزع ركائز الوطن ذاتها. عندئذ ذكرتهم هيلدا، بغريزتها الخفية، ان الكنيسة هي المؤسسة الوحيدة التي ما زالت تقف على قدميها، في حين حُلَّت جميع المنظمات الاخرى وكُنست بالقمع. وبمساعدة الكنيسة هناك فرصة حيال المستحيل، وبالامكان كشف أمر المنجم دون المخاطرة بفقدان الحياة. فاتفقوا حينئذ على وضع هذا السر بين يدي الكردينال.

تمكن فرانشيسكو من العثور على سيارة اجرة توصل ايرين إلى بيتها قبل موعد حظر التجول، لأنه لم تعد لدى الفتاة قوة تمكنها من تثبيت نفسها على مقعد الدراجة النارية الخلفي. ونام في ساعة متأخرة بعد ان انهى تحميلض الأفلام. نام نوماً قلقاً، وكان يتقلب في فراشه ببأس، وهو يرى في الظلال وجه ايفانخيلينا محاطاً بعظام صفراء تدق مثل الجلاجل. فصرخ في أحلامه واستيقظ ليجد هيلدا إلى جواره:

- لقد أعددت لك زهر الزيزفون، اشربه.
- أظن انني بحاجة لشيء أقوى..
- فأمرته مبتسمة:
- اصمت وأطع، فلهذا لك أم.

جلس فرانثيسكو في السرير، ثم نفخ على الشراب، وبدأ يتناوله برشقات بطيئة، فيما كانت أمه تتأمله دون مواربة.

- لماذا تنظرين إلي هكذا يا أماه؟

- لم تخبرني بكل ما حدث يوم أمس. فأنت وايرين مارستها الحب، أليس صحيحاً؟

- يا لطبعك! أتريدين التدخل في كل شيء؟

- لي الحق بمعرفة ذلك.

فضحك فرانثيسكو:

- لقد أصبحت كبيراً على تقديم الحسابات.

- انتبه، أريد أن انبهك إلى أن هذه الشابة هي فتاة محترمة، وانتظر أن تكون نواياك طيبة تجاهها وإلا فاني سأختلف معك كثيراً، هل تفهميني؟ والآن، تناول شراب الزيزفون، وإذا كان ضميرك نقياً فستنام بهدوء - قالت هيلدا ذلك وهي ترتب غطاء سريره لتخرج.

رآها فرانثيسكو تغادر الغرفة، بعد ان تركت الباب موارباً لتستطيع سماعه إذا ما ناداها، فأحس بالحنان الذي كان يشعر به في طفولته، حين كانت هذه المرأة تجلس في فراشه لتداعبه بيد حانية إلى أن ينام. لقد انقضت سنوات طويلة منذ ذلك الحين، لكنها ما زالت تعامله بالعناية البالغة نفسها، متجاهلة أنه كثيراً ما يضطر إلى حلاقة ذقنه مرتين في اليوم الواحد، ومتناسية درجة الدكتوراة في الطب النفسي التي يحملها، وكونه قادراً على رفعها بيد واحدة. كان يسخر منها، ولكنه لم يكن يفعل شيئاً لتغيير عاداتها باغداق الحنان المفرط عليه. كان يشعر انه يملك امتيازاً ويحرص على التمتع به طالما هو متاح له. فعلاقتها التي بدأت منذ لحظة الحب وتمتنت من خلال تعرف كل منهما على مساويء الآخر وحسناته، كانت هبة ثمينة بحرسان على إطالة أمدھا إلى ما وراء موت أي منهما. نام فرانثيسكو بقبية تلك الليلة نوماً عميقاً وحين استيقظ لم يتذكر شيئاً من أحلامه. استحم طويلاً

تحت دوش الماء الساخن ، ثم تناول الفطور مع بقايا القهوة المستوردة وخرج بعد أن وضع الصور في حقيبته متوجهاً إلى الحي الشعبي الذي يعيش فيه اخوه .
كان خوسيه ليال يعمل سباكاً . وحين لا يكون لديه ما يفعله بموقد اللحام أو بالمفتاح الانكليزي ، فانه يشغل وقته في مهمات ونشاطات متنوعة لصالح جماعة البؤساء الذين اختار العيش بينهم ، وذلك انسجاماً مع ميله الذي لا شفاء منه لمد يد العون إلى الآخرين . كان يعيش في حي واسع ومكتظ لا يظهر للناظر من الطريق العام ، لأنه محاط بأسوار وبصف من أشجار الحور المشربية نحو السماء بأغصانها الجرداء ، إذ لا يمكن حتى للنباتات أن تنمو سليمة في هذا القطاع .
وراء تلك الستارة الكتيمة توجد شوارع يملؤها الغبار والتراب في الصيف ، والوحل والمطر في الشتاء ، وبيوت مشادة بمواد مستخرجة من النفايات والقمامة ؛ وملابس منشورة ، وعراكات كلاب . وهناك يجتمع الرجال العاطلون عن العمل على النواصي لتمضية الوقت ، فيما الأطفال يلعبون بخردة الحديد ، والنساء ينهمن في مقاومة تردي جاهلن . عالم من الندرة والفاقة ، حيث العزاء الوحيد المضمون هو التكتاف . فلا أحد يموت هناك جوعاً ، لأنه ما أن يصل المرء إلى حافة اليأس ، حتى تمتد إليه يد صديقه ، هذا ما كان يقوله خوسيه ليال ليوضح حقيقة القدر المشتركة التي يلقي فيها كل واحد من الجيران ما هو قادر على تقديمه لحساء الجميع . والاقرباء يعيشون هناك ملتحمين بالاسرة ، لأنهم منفردين سيكونون أفقر من الفقراء ولن يجدوا سقفاً يأويهم . وفي مطاعم الأطفال ، تتولى الكنيسة تقديم جزء من الطعام اليومي للصغار ، والراهب الذي كان معتاداً على رؤية كل هذا منذ سنوات طويلة ، لم تتصلب مشاعره أمام صف الأطفال المستحمين ومسرحي الشعور الذين ينتظرون دورهم للدخول إلى ذلك المطعم المكشوف ، حيث صحون الالنيوم تنتظر فوق طاولات طويلة ، فيما اخوتهم الكبار ، ممن لا ينالهم الاحسان ، يتجولون حول المكان عساهم يظفرون بشيء من البقايا . كانت هناك امرأتان تقومان بطهي الطعام الذي يجمعه الرهبان بالتوسل وبالتهديدات الروحية . وإضافة إلى تقديمهما الطعام ، كانتا تتوليان مراقبة

الأطفال كي يأكل كل منهم حصته ، لأن كثيرين منهم كانوا يجثون الطعام والخبز ليأخذوه إلى بيوتهم ، حيث بقية أفراد أسرهم لا يملكون شيئاً يأكلونه ، اللهم إلا بعض الخضار التي يجمعونها من حاويات القمامة في السوق أو قطعة عظم غليت مراراً وتكراراً لتمنح الحساء شيئاً من النكهة .

كان خوسيه يعيش في كوخ خشبي شبيه بأكواخ كثيرة هناك ، لكنه أكثر اتساعاً منها لأنه يستخدمه لتقديم الخدمات ولحل ما تعانيه رعيته التعيسة من مشكلات دنيوية وروحية . وكان فرانثيسكو يتردد على الحي برفقة محام وطبيب ليساعدوا الأهالي في نزاعاتهم القضائية وأمراضهم وقنوطهم ، شاعرين أن مساعدتهم تلك ليست ذات جدوى في معظم الأحيان ، لأنه لم يكن هناك من حلٍ لاكداس المآسي التي يواجهونها .

وجد فرانثيسكو أخاه يستعد للخروج ، كان يرتدي ملابس العمال ويحمل حقيبة العدة الثقيلة . وبعد التأكد من انها وحيدان ، فتح فرانثيسكو حقيبته . وفيما كان الراهب يتأمل الصور ، ويزداد شحوباً لحظة بعد اخرى ، راح فرانثيسكو يروي له القصة ، بادئاً من ايفانخيلينا رانكيليو ونوبات القداسة التي كانت تصيبها ، وكان أخوه يعرف بعض المعلومات حولها مذ ساعدهم في البحث عنها في مستودع الجثث ، ووصولاً إلى اللحظة التي تدرجت فيها على قدميه البقايا البشرية التي يحمل صورها في يده . ولم يغفل شيئاً باستثناء اسم ايرين بيلتران ليركها بعيدة عن النتائج التي قد يؤدي إليها هذا الأمر .

استمع خوسيه ليال حتى النهاية واحتفظ بعد ذلك بالصمت لوقت طويل ، ونظره مثبت بالأرض ، في وقفة تأمل . وأدرك أخوه أنه يحاول السيطرة على أعصابه . ففي شبابه ، كان أي شكل من أشكال التعسف أو الظلم أو الشريعة فيه شحنة كهربائية ويجعل الغضب يعميه . لكن السنوات التي أمضاها كقس وتصلب طبعه منحاه القدرة للسيطرة على هذه الهيجانات عبر منهج تدريبي على الخشوع ، فبدأ يتقبل الدنيا على أنها انجاز غير مكتمل ، يختبر الرب فيه صلاح

الارواح . واخيراً رفع رأسه ، وكان وجهه قد استعاد هدوءه كما استرد صوته نبرته الصافية ، فقال :

- سأكلم الكردينال في الأمر .

★ ★ ★

قال الكردينال :

- فليوفقنا الرب في هذه المعركة التي سنخوضها .

وأضاف خوسيه ليال :

- عسى أن يكون كذلك .

أمسك النائب الرسولي الصور بأطراف أصابعه ثانية ، متأملاً الأسماك المتسخة ، والمحاجر التي بلا عيون ، والأيدي المقيدة . ان من لا يعرف الكردينال سيفاجأ برؤيته . ففي الاحتفالات العامة ، وعلى شاشات التلفزيون ، وحين يقود القداس في الكتدرائية بمسوحه المطرزة با! ذهب والفضة مع بطاتته من المساعدين ، يبدو رقيقاً وانيقاً . لكنه كان في الواقع رجلاً وضيع النشأة . متيناً ، وخشناً ، له يدا فلاح ثقيلتان ، قليل الكلام ولكلامه حين يتحدث نبرة خشنة على الدوام ، وذلك بسبب الخجل وليس بدافع العجرفة . وكان طبعه الصامت يظهر بوضوح في حضرة النساء وفي اللقاءات الاجتماعية . أما عند ممارسة عمله فلم يكن يظهر عليه ذلك . كان له أصدقاء معدودون ، لأن التجربة علمته ان للتحفظ في منصب كمنصبه فضائل لا يستهان بها . والقلة الذين استطاعوا الوصول إلى إقامة علاقة وثيقة معه يؤكدون ان له طبعاً بشوشاً ، مثل طباع الريفيين . فهو ينحدر من أسرة ريفية كبيرة العدد ، ويحتفظ من بيت والديه بذكرى وجبات الغداء السخية ، والمائدة التي كان يجلس إليها اثنا عشر أحياناً ، والنبيد المعتق الذي يُعبأ في زجاجات في البهو بعد حفظه لسنوات طويلة في القبو . وبقي له من تلك الحياة حبه لحساء الخضار اللذيذ ، ولحلوى الذرة ، ومرق الدجاج ، والأسماك المطبوخة ، وقبل كل ذلك حبه للحلويات البيتية . والراهبات اللواتي يتولين شؤون منزله كن يسعين

لنسخ وصفات المأكولات التي كانت تعدها أمه وبعثن إلى غرفة الطعام بالأطباق التي كان يأكلها في طفولته . ومع ان خوسيه ليال لا يمكنه ان يفاخر بكسب صداقة الكردينال ، إلا انه كان يعرفه من خلال عمله في مقر المطرانية ، حيث كانا يلتقيان باستمرار، تجمعهما الرغبة المشتركة في اىصال التضامن الانساني إلى حيث يبدو ان الحب الرباني غائب . كان يشعر كلما رآه بالحيرة التي أحس بها في اللقاء الأول ، فهو يحتفظ له في ذهنه بصورة رجل وجيه ، مختلف عن هذا العجوز الذي يبدو أشبه بقروي منه بأمر للكنيسة . وكان يكن له احتراماً شديداً ، لكنه يلتزم جانب الحذر في ابداء هذا الشعور ، لأن الكردينال لا يحتمل أي نوع من أنواع التملق . وقبل ان تتمكن البلاد بأسرها من تقدير شخصيته الحقيقية واحترامه ، كانت لدى خوسيه ليال أدلة على شجاعته وحسن ادارته ودهائه ، وهي الخصال التي اظهرها فيما بعد في مقارعتة للدكتاتورية . ولم تستطع حملة العداة ، ولازج الرهبان والراهبات في المعتقلات ، ولا تحذيرات روما أن تحرفه عن أهدافه . فقد ألقى زعيم الكنيسة على كاهله مسؤولية الدفاع عن ضحايا النظام الجديد ، واضعاً مؤسسته المهيبة في خدمة المطاردين . فإذا ما اشتدت المخاطر ، غير من استراتيجيته مستنداً إلى ألفي سنة من الدهاء ومن معرفة السلطة . وهذا كان يحول دون مواجهة مفتوحة بين ممثلي يسوع وممثلي الجنرال . كان يبدو في بعض الأحيان وكأنه يتراجع ، لكنه سرعان ما يبين ان ذلك لم يكن سوى مناورة سياسية طارئة . لم يكن لينحرف ولو قليلاً عن مهمته في رعاية الأرامل والأيتام ، وفي مساعدة المعتقلين ، واحصاء القتلى واللجوء إلى الشفقة حين تعز العدالة . لهذه الأسباب ولأسباب اخرى كثيرة ، رأى فيه خوسيه الأمل الوحيد للكشف عن سر لوس ريسكوس .

كانا حينئذ في مكتب الكردينال . وفوق طاولة الخشب القديمة الثقيلة كانت الصور المغمورة بالضوء الداخلى عبر الزجاج . وكان بإمكان الزائر وهو في مقعده أن يرى من خلال النافذة سماء الربيع الصافية وقمم أشجار الشارع المعمرة . كانت الحجرة مؤثثة باثاث قاتم وبخزائن للمكتب . ولم يكن على الجدران سوى صليب مصنوع من سلك شائك ، أهدها إياه سجناء أحد معسكرات الاعتقال . وكان

العاملون قد قدموا الشاي في فناجين كبيرة من الخزف الأبيض، فوق طاولة ذات عجلات، وقدموا معه رقائق من الحلوى والمربى الذي يعده دير الآباء الكرمليين. رشف خوسيه ليال آخر ما تبقى من الشاي وتناول الصور ليضعها في حقيبة أدوات السباكة. وضغط الكردينال على جرس، فحضر سكرتيره في الحال.

- أرجو ان ترتب لي موعداً اليوم مع هؤلاء الأشخاص المذكورين في القائمة.

قال الكردينال وهو يمد اليه ورقة سجل عليها بخطه الدقيق مجموعة من الأسماء. فأخذها السكرتير، والتفت الكردينال إلى خوسيه قائلاً:

- كيف علمت بهذه القصة أيها الأب ليال؟

فابتسم خوسيه مبدياً عدم رغبته في الكشف عن ذلك، وقال:

- لقد اخبرت نيافتك. انه من اسرار الاعتراف.

- إذا ما قررت الشرطة استجوابك فلن تقتنع بهذه الاجابة.

- سأحتمل المخاطرة.

- أتمنى ألا يكون ذلك ضرورياً. أعلم أنك اعتقلت مرتين من قبل، اليس كذلك؟

- أجل يا صاحب النيافة.

- عليك ألا تلفت الانظار إلى محركاتك. وأنا أفضل عدم ذهابك حالياً إلى هذا المنجم.

فرد خوسيه متورداً:

- اني مهتم بهذا الأمر جداً وأرغب في الوصول به إلى نهايته، ان كنت تسمح لي يا صاحب النيافة.

تأمله الشيخ متفحصاً لبضع ثوان، ومتقصياً أعمق دوافعه. لقد عمل معه منذ سنوات، وهو يعتبره أحد العناصر الشجاعة في المطرانية، حيث يتطلب العمل أناساً أشداء وقوي قلوب سمحة مثل هذا الرجل الذي يرتدي ملابس العمال ويضع فوق ركبتيه حقيبة مليئة بأدلة على الشر. لكن نظرة الكردينال اقنعتة ان

ذلك الرجل لا يتصرف مدفوعاً بالفضول أو التفاخر، وإنما بحماسة الوصول إلى الحقيقة.

- كن حذراً أيها الأب ليال، ليس من أجل نفسك وحسب، بل من أجل مكانة الكنيسة أيضاً. لسنا راغبين في خوض حرب مع الحكومة، هل تفهمني؟
- تماماً يا صاحب النيافة.

- تعال هذا المساء إلى الاجتماع الذي دعوت اليه. وإذا سمح الله، فستفتح هذا المنجم غداً.

نهض الكردينال عن كرسية ورافق الزائر حتى الباب، كان يمشي متمهلاً وقد أسند إحدى يديه إلى ذراع هذا الرجل المتين الذي اختار مثله المهمة الصعبة: حب الآخرين فوق حب الذات.
- ليكن الله معك . . . قال العجوز مودعاً، وضغط على يد خوسيه بهمة، قبل أن يقوم هذا بتقبيل خاتمه.

عند الغروب اجتمعت في مكتب الكردينال مجموعة من الشخصيات المنتقاة. ولم تمر الحادثة دون ان تنتبه اليها عيون رجال الشرطة السياسية وجماعات أمن الدولة الذين أعلموا الجنرال شخصياً بالأمر، لكنهم لم يتجرأوا على منع الاجتماع نظراً للتعليمات المشددة بتفادي النزاعات مع الكنيسة. اللعنة، هؤلاء الرهبان اللعينون يزجون أنفسهم في أمور لم يطلب أحد منهم التدخل فيها، لماذا لا يلتفتون إلى الشؤون الروحية ويتركون شؤون الحكم لنا؟ ولكن دعوهم . . . لا نريد مشكلة اخرى - قال الجنرال غاضباً - وتقصوا في أية شياطين يتداولون لنستطيع استخدام المرهم قبل أن يحدث الجرح، وقبل أن يبدأ هؤلاء الأشقياء باطلاق الرسائل الرعوية في الكنائس ليخوزقوا الوطن ولا يبقى أمامنا حينئذ سوى تلقينهم درساً، رغم انني لا أجد في ذلك أية مسرة، فأنا كاثوليكي، رسولي، ورومي محافظ، ولا أفكر في الحرب ضد الرب.

لم يعرفوا مادار من حديث في تلك الليلة، رغم أجهزة التنصت المشتراة من أرض تورانية، والقادرة على التقاط حتى أنفاس وتهدات العاشقين الذين

يهارسون الحب في فنادق بعيدة؛ ورغم مراقبة هواتف الجميع لسامع أدنى همسة في المعتقل الفسيح الذي يشكله التراب الوطني؛ ورغم العملاء المبتوثين حتى في بيت الكردينال ذاته والمتنكرين بملابس ميدي الصراصير أو صبيان المتاجر أو الجنائين، بل وأولئك العرجان والعميان ومرضى الصرع الذي يقبعون عند الباب طالبين الصدقات والمباركات لدى مرور ذي المسوح. بذلت جماعات الأمن جهودها، ولكنها لم تتحقق إلا من أن هؤلاء الواردة أساؤهم في هذه القائمة قد اجتمعوا لعدة ساعات وراء أبواب موصدة ياسيدي الجنرال، ثم خرجوا من المكتب ليدخلوا إلى صالة الطعام، حيث قدم لهم حساء القواقع البحرية، ولحم عجول مشوي مع البطاطا والبقدونس، وكانت الحلوى عبارة عن . . . تكلم في المهم أيها الكولونيل. لا تقدم لي وصفات مطبخ، بل أخبرني بما تبادلوه من حديث! ليست لدينا أدنى فكرة عما قالوه يا سيدي الجنرال، ولكن إذا شئت فيمكننا استجواب السكرتير. لا تكن أحمق أيها الكولونيل.

عند منتصف الليل صافح المدعوون بعضهم بعضاً عند باب منزل الكردينال، وذلك أمام عيون رجال الشرطة الذين انتشروا في الشارع بشكل مكشوف. وعلم جميع المشاركين أن حياتهم قد أصبحت في خطر منذ هذه اللحظة، لكن أياً منهم لم يتردد، فهم معتادون على السير فوق شفير الهاوية، منذ بدأوا العمل لصالح الكنيسة منذ سنوات. وباستثناء خوسيه ليال، كانوا جميعهم من العلمانيين، بل ان بعضهم كان بعيداً عن الايمان ولم يعرف اتصالاً بالدين إلا اثر الانقلاب العسكري، حين اجتمعوا على الالتزام بالمقاومة في الظل. وحين بقي الكردينال وحيداً، أطلقاً الانوار ومضى إلى غرفته. كان قد صرف سكرتيهه وجميع عناصر الخدمة في وقت مبكر، لأنه لا يرغب في جعلهم يسهرون مثله. كانت السنوات قد قلصت من وقت نومه، وصار يفضل النوم متأخراً، ويقضي سهراته في مكتبه مكرماً اياها للعمل. جال في لرجاء البيت ليتأكد من ان جميع الابواب موصدة، فمنذ انفجار القبلة الأخيرة في حديثه صار يتخذ بعض الاحتياطات. ورفض باصرار العرض الذي قدمه الجنرال لوضع

طاقم حراسة شخصية كما أنه لم يقبل طلب مجموعة من الشبان الكاثوليكيين المتطوعين الذين عرضوا أنفسهم للسهر على أمنه . كان موقناً من أنه سيعيش حتى ساعته المعلومة دون أن يتأخر عنها لحظة واحدة أو يتقدم . ثم أن ممثلي الكنيسة ، كما كان يقول ، لا يمكنهم ان يتجولوا في سيارات مصفحة أو بمقصان مضادة للرصاص مثلما يفعل السياسيين وزعماء المافيا والطغاة . وإذا ما نجحت أية محاولة للتعرض لحياته ، فسرعان ما سيحتل كاهن آخر مكانه ليواصل عمله . وكان هذا يمنحه طمأنينة عظيمة .

دخل حجرة نومه ، وأغلق الباب الخشبي الثقيل ، ثم خلع ملابسه وارتدى ثوب النوم . وفي هذه اللحظة أحس بالتعب وبثقل المسؤولية التي يتولاها ، ولكنه لم يسمح لأية شكوك أن تسيطر عليه . جثا في كرسي الركوع ، وأغرق وجهه في راحتيه وتكلم إلى الرب مثلما يفعل في كل لحظة من لحظات حياته ، واثقاً من أن كلماته مسموعة ومن أنه سيتلقى الرد على استفساراته . فالرب لم يتخل عنه أبداً . قد يتأخر خالقه أحياناً في اسماعه صوته أو قد يتجلى له عبر سبل مواربة ، ولكنه لا يسكت سكوتاً تاماً أبداً . غرق في الصلوات لوقت طويل إلى أن أحس بقدميه تتجمدان وبثقل السنوات يرهق كاهله . وتذكر أنه لم يعد في سن تمكنه من مطالبة عظامه بمثل هذه الجهود ، فاستلقى في السرير مطلقاً تنهيدة رضى ، لأن الرب قد وافق على قراره .



أشرق يوم الأربعاء مشمساً وكأنه يوم صيفي . ووصلت اللجنة إلى لوس ريسكوس في ثلاث سيارات ، يقودها المطران المساعد ، ويدها على الطريق خوسيه ليال الذي رسم خريطة تبين خط السير حسب تعليمات أخيه . كان الصحفيون وممثلو الهيئات الدولية والمحامون يخضعون عن بعد لمراقبة رجال لجنرال الذين اقتفوا آثارهم منذ الليلة السابقة .

أرادت ايرين الذهاب مع المجموعة باسم مجلتها ، لكن فرانيسكو منعها

من ذلك . فيها لا يستندان إلى أية حماية كما هو شأن بقية أفراد اللجنة الذين يؤمن لهم وضعهم نوعاً من الحماية . وإذا ما ظهرت علاقتها في الكشف عن الجثث ، فلن يكون لها من أمل في الخروج أحياء ، ويمكن لعلاقتها ان تنكشف لأنها كانا حاضرين يوم طوحت ايفانخيلينا بالملازم راميرث في الهواء ، كما انها شوهدا وهما يبحثان عن الفتاة المفقودة ، إضافة إلى علاقتها بأسرة رانكيليو .

توقفت السيارات قريباً من المنجم . وكان خوسيه ليال هو أول من انقض على الانقراض التي تغطي المدخل ، مستخدماً ذراعية اللذين كذراعي دب ومستفيداً من ممارسته للأعمال الشاقة . وحذا الآخرون حذوه ليفتحوا بعد عدة دقائق ثغرة على مرأى من جماعات الأمن التي كانت تقف بعيداً ، وتتصل بأجهزة اللاسلكي لتُخبر ان المشبوهين يخرقون حرمة المنجم المغلق رغم اعلانات التحذير الموجودة ، ونحن ننتظر التعليقات يا سيدي الجنرال ، حوّل . اكتفوا بالمراقبة كما أمرتكم ولا تفكروا بالتدخل . . لا تتدخلوا معها حدث ، حوّل .

كان المطران المساعد ، الذي قرر أخذ زمام المبادرة ، هو أول من دخل إلى المنجم ، لم يكن رشيماً ، لكنه استطاع التلوي مثل نمس ليُدخل ساقه ثم ينزلق ببقية جسده إلى الداخل . صفعته رائحة التنانة مثل ضربة هراوة ، لكنه لم يطلق الصرخة التي شدت انفاس الآخرين إلا بعد أن اعتادت عيناه على العتمة ورأى بقايا ايفانخيلينا رانكيليو . ساعده على الخروج وأوقفوه على قدميه ، ثم قادوه إلى ظل الأشجار ليستعيد انفاسه . وفي اثناء ذلك ، صنع خوسيه ليال مشاعل من أوراق الجرائد الملفوفة ، وأوعز للجميع بان يغطوا وجوههم بمناديل ثم قادهم واحداً بعد آخر إلى المدفن ، حيث استطاع الجميع ان يروا جسد الصبية المتفسخ ويجموعة العظام المتصلة ببعضها بعضاً ، والشعور والملابس المهترئة . كان يكفي تحريك الحجارة قليلاً لتدحرج رؤوس أدمية جديدة . ولم يكن أي منهم قادراً على الكلام لدى خروجه ، فقد كانوا يخرجون مرتعشين وشاحيين ، ويحدقون ببعضهم بعضاً في محاولة لادراك حجم هذه اللقمة . كان خوسيه ليال هو الوحيد الذي وجد

في نفسه الحياسة الكافية لاعادة اغلاق المنجم ، مفكراً بالكلاب التي قد تشم رائحة العظام ، أو بفاعلي هذه الجرائم الذين قد يتنبهون إلى المدخل المفتوح فيعلموا أن أمرهم قد انكشف ، ومحاولون اخفاء الأدلة . لكن ما فعله كان بلا جدوى ، فعلى بعد مئتي متر ، وفي شاحنة مغلقة ، كان رجال الشرطة يرصدون المكان بمناظير مستوردة من أوروبا وبأجهزة تعمل بالاشعة تحت الحمراء مجلوبة من ولايات الشمال ، مما أتاح للكولونيل معرفة ما يحتويه المنجم في اللحظة التي عرف بها ذلك المطران المساعد؛ لكن تعليمات سيدي الجنرال واضحة : لا تدخلوا في مواجهة مع الرهبان ، وانتظروا إلى ان يقوموا بالخطوة التالية لنرى أي خراء ينوون ، والأمر كله في نهاية المطاف ليس إلا بضعة موتى مجهولي الهوية .

رجعت اللجنة إلى المدينة في وقت مبكر ، وبعد أن أقسم جميع افرادها على عدم اطلاع أحد على الأمر ، تفرقوا ليلتقوا في المساء ، ويجتمعوا بالكردينال كي يقدموا له تقريراً عن مهمتهم .

بقي النور مضاء تلك الليلة في المطرانية حتى الفجر ، أمام بلبلة المخبرين الذين تسلقوا أشجار الشارع حاملين اجهزتهم المستوردة من الشرق الأقصى ليتمكنوا من رؤية ما يدور وراء الجدران . ولكننا ما زلنا نهمل ما ينوونه يا سيدي الجنرال ، لقد بدأ حظر التجول وهم ما زالوا يتحدثون ويشربون القهوة ، إذا ما أصدرت لنا الأوامر فاننا سندخل ، ونعتقل الجميع ، ما قولك؟ لا تكونوا خصيان يا رجل!

تفرق الزائرون عند الفجر وودعهم رئيس المطرانية عند الباب . هو وحده كان ثابت الجنان لأن روحه مطمئنة ولا تعرف الخوف . نام قليلاً ، وبعد تناول الفطور اتصل هاتفياً برئيس المحكمة العليا ليطلب منه استقبال ثلاثة مبعوثين من طرفه بأسرع ما يمكن ، لأنهم يحملون اليه رسالة بالغة الأهمية . بعد ساعة من ذلك كان المغلف في يد القاضي ، الذي تمنى عندئذ لو أنه كان في الجانب الآخر من الدنيا ، بعيداً عن هذه القنبلة الزمنية التي ستفجر دون ريب :

السيد رئيس المحكمة العليا .

تحية .

السيد الرئيس : منذ أيام أبلغ أحد الأشخاص كاهناً، تحت سر الاعتراف، أن لديه معلومات وأدلة على وجود عدة جنث في مكان حدده له . وقد نقل هذا الكاهن، بناء على موافقة من أخبره، المعلومات إلى السلطات الكنسية . .
وبهدف التحقق من المعلومات، قامت يوم أمس لجنة مؤلفة من الموقعين أدناه، والسادة مدراء تحرير صحيفتي «اكونتشيير» و«سيبانا»، وموظفين من مكتب حقوق الانسان، ووصلنا إلى المكان الذي أشار اليه ناقل الخبر، وهو عبارة عن منجم قديم، مهجور حالياً، يقع على سفح الجبال القريبة من قرية لوس ريسكوس .

ولدى الوصول إلى المكان، وبعد ازاحة بعض الأنقاض التي تغطي فتحة المنجم، تأكد لنا وجود بقايا بشرية لعدد غير محدد من الأشخاص . . وحين تحققنا من الواقعة أوقفنا تفتيشنا للمكان، لأن هدفنا كان التحقق من صحة الاخبارية فقط، ولأننا لا نستطيع التدخل اكثر من ذلك في مهمة هي من مهمات التحقيق القضائي .

ومع ذلك، فإننا نقدر ان مواصفات المكان وحالة الاشلاء التي تحققنا من وجودها، تجعل الاخبارية القائلة بوجود عدد مرتفع من الضحايا أمراً محتملاً .
ان حالة الذعر العام التي قد تسببها هذه المعلومات، دفعتنا لأن نضعها مباشرة تحت تصرف أعلى سلطة قضائية في البلاد، كي تتخذ المحكمة الموقرة الاجراءات اللازمة لفتح تحقيق سريع وشامل .

مع فائق احترامنا للسيد الرئيس
اربانو اوربانيخو (المطران المساعد)
خيسوس بالدوينوس (القاضي الاسقفي)
اولوخيو غارسيا دي لاروسا (محام)

كان القاضي يعرف الكردينال . فأدرك أن الأمر ليس مجرد مناورة منه ، انما دليل على أنه مستعد لخوض معركة مواجهة . ولا بد في هذه الحالة أن جميع الأوراق الرابحة في يده ، فهو من الذكاء بحيث لا يمكنه أن يضع له هذا الركام من العام بين يديه ويدعوه لتطبيق القانون ، دون ان يكون واثقاً من النتائج . والأمر لا يحتاج لخبرة كبيرة لاستخلاص أن منفذي هذه الجرائم انما عملوا بحماية من نظام القمع القائم ، ولذا فان الكنيسة تتدخل وهي لا تملك الثقة بالعدالة . مسح العرق عن جبهته وعنقه ، وتناول أقراصاً لمقاومة الاحتناق وتسرع نبض القلب ، خائفاً أن تكون ساعة الحقيقة قد أزفت بعد سنوات من تصريحه لشؤون العدالة حسب تعليمات الجنرال ، وبعد سنوات وسنوات من إخفائه للملفات وعرقلته لمهمة محامي المطرانية في متاهات البروقراطية ، وبعد سنوات وسنوات من فبركته القوانين بأثر رجعي على جرائم ابتدعت حديثاً . كان من الخير لي أن اعتزل العمل في الوقت المناسب ، أن أتقاعد حين كان ما يزال بالإمكان عمل ذلك مع الاحتفاظ بقاء الوجه ، أن أنصرف إلى زراعة زهوري بسلام وأنقل إلى التاريخ دون احتمال هذا العبء من الشعور بالذنب والعار الذي لا يتركني أنام ويحاصرني في أية لحظة شرود طوال النهار ، رغم أنني لم أفعل ما فعلت لمطامع شخصية ، وانما لأخدم الوطن كما طلب مني الجنرال بعد أيام من توليه القيادة ؛ لكن الوقت قد فات الآن ، فهذا المنجم اللعين ينشق تحت قدمي وكأنه قبري ، وهؤلاء الموتى لن يصمتوا كما صمت كثيرون غيرهم ما دام الكردينال قد قرر التدخل . كان علي أن استقبل يوم الانقلاب العسكري ، حين قصفوا قصر الرئاسة ، وسجنوا الوزراء ، وحلوا البرلمان ، وحين كانت عيون العالم بأسره تنتظر ان يرفع أحد رأسه ويدافع عن الدستور؛ في ذلك اليوم بالذات كان علي أن أذهب إلى بيتي متدرباً بانني رجل عجوز ومريض ، هذا ما كان علي عمله بدل وضع نفسي تحت تصرف مجلس القادة العكسرين وبدء عمليات التطهير في محاكمي .

كان رد الفعل الأول لرئيس المحكمة العليا هو الاتصال بالكردينال وتقديمه

عرضاً للوصول إلى اتفاق معه، لكنه سرعان ما تبين أن الأمر قد تجاوز قدراته التفاوضية. فتناول الهاتف وأدار الرقم السري واتصل بالجنرال مباشرة.



أقاموا حول منجم لوس ريسكوس دائرة من الحديد والحوذ والاحذية العسكرية، لكنهم لم يستطيعوا أن يمنعوا انتقال الخبر من فم إلى فم، ومن بيت إلى بيت، ومن واد إلى واد، إلى أن انتشر في كل مكان وهز أركان الوطن هزة عنيفة. أبعد الجنود الفضوليين، لكنهم لم يستطيعوا أن يمنعوا تقدم الكردينال وموكبه، كما فعلوا بالصحفيين ومراقبي القوى العظمى الأجنبية الذين جذبتهم فضيحة تلك المجزرة. فمنذ الساعة الثامنة من صباح يوم الجمعة قام عناصر من إدارة التحريات، يرتدون أقنعة واقية وقفازات مطاطية، باخراج الأدلة الرهيبة بناء على تعليمات المحكمة العليا، التي تلقتها بدورها من الجنرال: افتحوا هذا المنجم اللعين وأخرجوا منه كومة الموتى وأكدوا للرأي العام اننا سنعاقب الجناة، وفيما بعد سنرى، فذاكرة الناس ضعيفة. جاؤوا في شاحنة ومعهم اكياس بلاستيكية صفراء وكبيرة وطاقم عمال بناء لازاحة الأنقاض. وسجلوا كل شيء بنظام دقيق ومتطابق: جسد بشري لانثى في حالة تحلل مغطى بحزام قاتم للون، حذاء، بقايا شعر، عظام طرف سفلي، عظم لوح كتف، عظم عضد، فقرات، جذع مع طرفيه العلويين، سروال، جمجمتين، احدهما كاملة والاخرى دون فك سفلي، اسنان اصطناعية مع اطار معدني، مزيد من الفقرات، بقايا أضلاع، جذع مغطى بمزق من ملابس، قمصان وجوارب متنوعة الألوان، عظم حرقفي وعدد آخر من العظام المتفرقة. كل ذلك ملأ ثمانية وثلاثين كيساً خُتمت أصولاً، وأحصيت ونقلت إلى الشاحنة. واضطروا إلى نقلها على عدة دفعات إلى المعهد الطبي. وقد أحصى مفوض التفيتش أربع عشرة جثة، استناداً إلى الرؤوس التي وجدت، لكنه لم يستبعد فظاعة العثور على أجساد اخرى مخفية تحت طبقات الزمن والتراب إذا ما

جرى الحفر بعناية أكبر . وأطلق أحدهم وقتئذ تلك السخرية الرهيبة القائلة انهم إذا حفروا أكثر قليلاً فسيحذون هياكل من عظام الغزاة الاسبان، وموميات ملوك الانكا ومستحاثات كرماغنون، لكن أحداً لم يبتسم لأن الكآبة كانت تخيم على الجميع .

كان الناس قد بدأوا بالتوافد منذ الصباح الباكر، مقتربين إلى الحد الذي رسمته البنادق، ووقفوا وراء الجنود يراقبون . كان أول القادمين هم آرامل وأيتام المنطقة، وكان كل منهم يضع شريطة سوداء على ذراعه الأيسر كإشارة حداد . وفيما بعد جاء الآخرون، جميع فلاحي منطقة لوس ريسكوس تقريباً . وعند منتصف النهار وصلت حافلات من الاحياء الهامشية في العاصمة . كانت الكآبة تطفو في الجو مثل نذير عاصفة، موقفة طيران العاصفير . انتظروا ساعات طويلة تحت شمس زرقاء ضاربة إلى السواد تصبغ بلونها أشياء العالم وألوانه، فيما الأكياس البلاستيكية تمتليء بالعظام . ومن بعيد، كانوا يحاولون التعرف على فردة حذاء، أو قميص، أو خصلة شعر . وكان أقوياء النظر ينقلون ما يرونه للآخرين : ظهرت الآن جمجمة اخرى عليها خصل من شعر شائب، قد تكون جمجمة الصديق فلوريس، أتذكرونه؟ لقد ختموا الآن كيساً آخر، لكنهم لم ينتهوا بعد، انهم يُخرجون المزيد، يقال انهم سينقلون الرفات إلى مستودع الجثث وهناك يمكننا رؤيتها عن قرب . وكم سيكلفنا هذا؟ لا أعرف، ولكن لا بد لنا من دفع شيء . أيقبضون كذلك من أجل التعرف على قتلاهم؟ لا، لا يارجل، لا بد أن يكون ذلك مجاناً .

انقضى وقت الأصيل كله والناس يتوافدون إلى ان شكلوا حشداً كبيراً فوق الرابية، وكانوا يسمعون صوت الرفوش والمعاول وهي تقلب التراب، ويرون ذهاب الشاحنة الرسمية وإياها، وحركة رجال الشرطة، والموظفين والمحامين، وتذمرات الصحفيين الذين لم يُسمح لهم بالاقتراب . وحين غابت الشمس ارتفع كورال أصوات ينشد صلاة جنائزية . وكان هناك من نصب خيمة مرتجلة من بعض البطانيات، مبدياً بذلك استعداده للبقاء إلى وقت غير محدد، لكن الحراس

عاجلوه بأعقاب بنادقهم قبل أن يجذوا آخرون حذوه . كان ذلك قبل قليل من ظهور الكردينال ، الذي اجتاز حاجز الجنود في سيارة المطرانية غير مكترث بالإشارات التي تدعوه للتوقف ، ثم نزل من السيارة وسار بخطوات واسعة ليتوقف أمام الشاحنة ، حيث راح يحصي الأكياس بعينين لا تتساعحان ، فيما مفوض التفتيش يرتجل التفسيرات . حين انطلقت الشحنة الأخيرة من الأكياس البلاستيكية الصفراء وأمر رجال الشرطة الناس باخلاء المنطقة ، كان الظلام قد خيم ، وبدأت الجموع تنسحب تحت جناح الليل وبعضهم يروي مأساته للبعض الآخر ، مثبتاً بذلك أن جميع النكبات متماثلة .

في اليوم التالي ازدحم جميع القادمين من كل أرجاء البلاد على أمل التعرف على موتاهم ، لكنهم منعوا تقدمهم بانتظار صدور أوامر جديدة ، كما أشار الجنرال . لأن الجثث شيء ، وعرضها أمام بصر الجميع كما في معرض شيء آخر تماماً ، ما الذي يتصوره هؤلاء الأندال ، أهيلوا التراب على هذه المسألة أيها الكولونيل قبل أن أفقد صبري .

- وماذا سنقول للرأي العام ، وللدبلوماسيين والصحافة يا سيدي الجنرال؟
- ما قلناه دوماً أيها الكولونيل . ففي الحرب لا يمكن تبديل الاستراتيجية .
علينا أن نتعلم من الأباطرة الرومان . .

في شارع المطرانية جلس مئات الأشخاص حاملين في أيديهم صور مفقودهم ، ومدمدمين دون توقف : أين هم؟ فيما مجموعة من الرهبان العمال والراهبات ذوات السراويل يشاركون في الكندرائية بدعم مطالب الجميع . وفي يوم الأحد قرئت في جميع الكنائس الرسالة الاسقفية التي حررها الكردينال ، وتجراً الناس للمرة الأولى منذ زمن طويل ومظلم من الالتفات نحو من هم إلى جوارهم ليكوا معاً . وصاروا يتنادون ليتداولوا في كل حالة من حالات الضحايا الكثيرة إلى أن نسوا عددها . ونظموا موكباً دينياً للصلاة على القتلى ، وقبل ان تتمكن السلطات من استيعاب ما حدث ، كان حشد متدفق يتقدم في الشوارع حاملاً الرايات واللافتات المطالبة بالحرية والخبز والعدالة . بدأ الموكب بصفوف بشرية

مهلهلة كانت تخرج من الأحياء الهامشية، وراحت تتجمع شيئاً فشيئاً وتتعاظم، إلى أن التفت في كتلة متراصة راحت تنشد بأعلى صوت الأناشيد الدينية والشعارات السياسية المكتومة منذ سنوات عديدة والتي بدا أن الناس قد نسيتها إلى الأبد. ثم تجمع الشعب في الكنائس والمقابر، وهي الأماكن الوحيدة التي لم يدخلها رجال الشرطة بمعداتهم الحربية حتى ذلك الحين.

- ماذا نفعل بهم يا سيدي الجنرال؟

ورد عليه من أعماق الملجأ:

- كالعادة أيها الكولونيل.

في أثناء ذلك كان التلفزيون يقدم براجمه المعتادة من موسيقى خفيفة، ومسابقات، ومسلسلات وأفلام حب وضحك. والصحف تقدم نتائج مباريات الكرة، ونشرة الأخبار تعرض الزعيم الأعلى للأمة وهو يقص شريط مركز مصرفي جديد. لكن أخبار اللقية في المنجم وصور الجثث كانت تجوب العالم بأسره عبر أجهزة التيليتيب بعد عدة أيام. واستولت وكالات الأنباء عليها وأعادتها إلى بلد المنشأ، حيث صار من المستحيل كتم الفضيحة لوقت أطول، رغم الرقابة ورغم التفسيرات الخيالية التي قدمتها السلطات. ورأى الجميع المذيع المزهو وهو يقرأ الرواية الرسمية: انهم ارهابيون أعدهم زملاؤهم؛ ولكن أحداً لم يشك في أنهم معتقلون سياسيون مقتولون. وجرى التداول في القضية المرعبة بين أكداس الخضار والفواكه في الأسواق، وبين التلاميذ ومعلميهم في المدارس، وبين عمال المعامل، بل وفي صالونات البرجوازية المغلقة، حيث فوجيء بعضهم باكتشاف ان هنالك شيئاً يسير على غير ما يرام في البلاد. والتمتمة الخائفة التي دارت خلال سنوات عديدة متخفية وراء الأبواب والنوافذ الموصدة، خرجت مدوية إلى الشارع للمرة الأولى، وظهرت هذه الحسرة المتعاظمة إلى الثور بألف حالة جديدة، لتهد جميع الضمائر. ان أشد المتبلدين هم وحدهم الذين استطاعوا تجاهل هذه الظواهر مرة أخرى ومواصلة حياتهم بهدوء. وكانت بياتريس الكانتر واحدة من هؤلاء.



في يوم الاثنين، وعند موعد الغداء، وجدت بياتريس ابنتها تقرأ الصحيفة في المطبخ ولاحظت ان طفحاً يغطي ذراعيها.

- أنت مصابة بالجرب!

- إنها حساسية يا أماه.

- وكيف عرفت ذلك؟

- فرانيسكو قال لي.

- المصورون صاروا يشخصون الأمراض الآن! أين سننتهي؟

لم تجب ايرين بشيء، وأمعت أمها النظر في الطفح عن قرب لتتأكد حقاً من انه يبدو غير معدٍ، وان هذا الفتى قد يكون على حق، إذ انها لم تكن سوى بشور من تلك التي يسببها الربيع. وحين اطمأنت، تناولت بعض الصحف لتتصفحها، فاصطدمت عيناها بالعنوان الكبير الذي يتصدر الصفحة الأولى: «مفقودون! ها! ها! ها!»، شربت عصير البرتقال مذهولة، لأن ذلك كان يشكل صدمة حتى لمن هم مثلها. ومع ذلك، فقد سئمت من سماع حكاية لوس ريسكوس في كل مكان، وانتهزت الفرصة لتتحدث في الأمر مع روسا وابنتها: فمثل هذه الأحداث هي أمور منطقية في حرب كالحرب التي شنها العسكريون الوطنيون ضد السرطان الماركسي، وفي جميع الحروب تقع خسائر، ومن الأفضل نسيان الماضي وبناء المستقبل.. شطب كل شيء وفتح صفحة جديدة.. عدم التحدث مجدداً عن المختفين، واعتبارهم موتى وحل المسائل القانونية نهائياً.

فسألته ايرين وهي تحك بيديها الاثنين:

- ولماذا لا تفعلين ذلك فيما يتعلق بأبي؟

تجاهلت بياتريس السخرية. وراحت تقرأ المقال بصوت عال: «المهم الآن هو التقدم في طريق التنمية ومحاولة لأم الجراح وتجاوز الضغائن. ولتحقيق ذلك لن يفيد البحث عن الجثث في شيء. فبفضل العمليات التي قامت بها القوات

المسلحة، اتاحت برمجة المرحلة الجديدة التي تعيشها الأمة . وقد اقتضت فترة الطوارئ التي تم اجتيازها بسعادة، منح صلاحيات واسعة للسلطة القائمة، بحيث تتمكن من العمل في عدة مستويات بكل الحزم اللازم لفرض النظام واطرار التعايش الأهلي .

وأضافت بياتريس :

- انني موافقة تماماً . ما هو الغرض من تحديد هوية تلك الأجساد التي وجدت في المنجم والبحث عن مذنبين؟ لقد حدث ذلك منذ عدة سنوات . انهم موتى معتقون .

وهاهم الناس ينعمون أخيراً بالرفاهية، ويستطيعون شراء ما يرغبون، وليس كما كان الحال في السابق، حين كان عليهم الانتظار في الدور حتى من أجل شراء فروج بائس . أما الآن فيمكن طلب كل شيء بسهولة عن طريق الخدمة المنزلية، وقد انتهت حالة الهيجان الاشتراكي التي تسببت في الماضي بأفدح الأخطار . على الشعب أن يعمل أكثر ويتكلم أقل في السياسة، مثلما قال الكولونيل اسبينوسا في عبارة ملهمة، وكررت العبارة من ذاكرتها : «اننا نناضل معاً من أجل هذا البلد الجميل، ذي الشمس الجميلة، والأشياء الجميلة والحرية الجميلة» .

هزت روسا كتفها وهي منحنية تجلو الأطباق، وأحست ايرين بازدياد الحكمة في جسدها كله .

- لا تحكي، فستتلفين بشرتك، وحين يأتي غوستافو ستبدين وكأنك مصابة بالجذام .

- لقد جاء غوستافو ليلاً يا أماه .

- آه! ولماذا لم تخبريني بذلك؟ متى ستتزوجان؟

فردت ايرين :

- لن نتزوج مطلقاً .

توقفت يد بياتريس التي تحمل الفنجان في وسط المسافة بين الطبق

وشفتيها . كانت تعرف ابنتها بما يكفي لتدرك حين تكون قراراتها نهائية ولا عودة عنها . فبريق عينيها ونبرة صوتها أعلمتها ان سبب هذه السعادة ليس مسألة عاطفية ، وانما هي قضية من نوع آخر .

فاستعرضت أحداث الأيام الأخيرة واستنتجت ان ثمة شيئاً غير عادي قد حدث في حياة ايرين . فقد تبدل نظام حياتها ، وصارت تغيب خلال النهار وترجع منهكة من التعب والسيارة مغطاة بالغبار ، وقد هجرت تنانيرها العجورية واساور الخرز التي كأساور ساحرة لتلبس ملابس مثل ملابس الصبيان ، وصارت تأكل قليلاً وتستيقظ في الليل صارخة ، ولكن بياتريس كانت بعيدة رغم ذلك عن ربط هذه الاشارات بمنجم لوس ريسكوس . أرادت التقصي اكثر ، لكن الفتاة انتهت من تناول قهوتها وهي واقفة ، وانصرفت قائلة انها ستجري تحقيقاً صحفياً خارج المدينة ولن ترجع حتى المغيب .

هتفت بياتريس بعد خروج ابنتها :

- المصور هو السبب ، انني متأكدة!

فردت روسا :

- حيث يميل القلب ، تسير القدم .

- لقد اشتريت لها جهاز عرس فاخر ، وهامي ذي تخرج عليّ الآن بهذه

البدعة . بعد كل هذه السنوات من الحب مع غوستافوتاتي لتختلف معه في اللحظة الأخيرة .

- رب ضارة نافعة يا سيدتي .

فخرجت بياتريس صافقة الباب وهي تقول :

- ما عدت أحتمل يا روسا!

لم تقل روسا شيئاً مما رأته في الليلة السابقة ، حين رجع الكابتن بعد عدة

شهور من الغياب واستقبلته الصغيرة ايرين كما لو كان غريباً عنها . كانت تكفييني

رؤية وجهها لأنسى أمر فستان الزفاف وكل الخطط التي وضعتها لترية أطفال شقر

وذوي عيون زرق في أيام شيخوختي . الانسان يطلب والرب يمنح . وإذا ما قدمت

امرأة خدها كي لا يقبلها خطيبتها من شفيتها، فسيلاحظ حتى الأعمى انها لا تشعر نحوه بالحب؛ وإذا قادته إلى الصالون، وجلست في أبعد مكان ممكن عنه وراحت تنظر اليه بصمت، فذلك لأنها تفكر بان تقول له دون مواربة ذلك الكلام الذي سمعه الكابتن: إنني آسفة جداً، لكنني لن أتزوج منك لأنني أحب شخصاً آخر؛ هذا ما قالته له، ولم يجب بشيء. يا للمسكين، لقد أثار شفقتي. احموجه بشدة، وارتعشت ذقنه مثل طفل سينفجر بالبكاء، فأنا رأيت من فرجة الباب الذي بقي موارباً، ولم أفعل ذلك بدافع الفضول، لينجني الرب منه، وانما لأن لي الحق في معرفة مشاكل صغيرتي، وإذا لم أفعل فكيف سأتمكن من مساعدتها؟ فأنا لم أربها وأحبها كل هذا الحب الذي يفوق حب أمها عبثاً، لقد انقبض قلبي حين رأيت هذا الفتى جالساً على طرف الأريكة ومعه العلب الملقوفة بورق الهدايا، دون ان يدري أين يذهب بكل هذا الحب الذي جمعه لآيرين طوال سنين؛ بيدولي أنه شاب جيد، انه طويل وأنيق مثل أسير، وحسن الهندام كما هي عادته دوماً، وصلب مثل عصا مكنسية؛ انه جتلمان حقيقي، لكن مظهره المتأنق لم يفده في شيء، لأن الصغيرة لا تنتبه إلى هذه الأمور، وخصوصاً الآن بعد أن أحببت المصور؛ فالخبار الذي ينام لا بد أن يحمله التيار. ما كان على غوستافو أن يذهب ويتركها وحيدة طوال هذه الشهور. أنا لا أفهم شبان هذه الأيام، ففي زمني لم تكن هناك حريات كثيرة، وكل شيء كان يسير كما يجب: المرأة تقبع في بيتها. والخطيبات ينتظرن العريس وهن يطرزن الشراشف، ولا يمضين ليركبن على المقعد الخلفي لدراجة رجل آخر؛ كان على الكابتن أن يحتاط لهذا الأمر بدلاً من سفره مطمئناً، فقد رأيت هذه النتيجة منذ البدء، وقلت له: البعد يسبب النسيان؛ لكن أحداً لم يهتم بي، ونظروا إلي بشفقة، كما لو كنت معتوهة، ولكن ليس لدى قدر شعرة واحدة من الجنون، والشيطان يعرف الكثير لأنه عجوز وليس لأنه شيطان. أظن أن غوستافو كان يعرف أنه لم يعد مرغوباً فيه، ولم يكن هناك ما يفعله، فهذا الحب كان ميتاً ومدفوناً. كانت يدها تتعرقان عندما وضع علب هداياه فوق طاولة الصلاة، وسأل إن كان ذلك القرار نهائياً، سمع الجواب ومضى

دون أن يلتفت إلى الوراثة ودون أن يسأل عن اسم غريمه، وكأنه يعرف في أعماقه أنه لا يمكن أن يكون إلا فرانثيسكو ليال. إنني أحب شخصاً آخر، كان هذا هو كل ما قالته إيرين، ولا بد أنه كان كافياً، لأنه قطع أوصال خطوبة دامت لسنوات ما عدت أذكر عددها. انني أحب شخصاً آخر، قالت صغيرتي، وشعت عينها ببريق لم أره فيهما من قبل.



بعد اسبوع تراجع خبر لوس ريسكوس ليفسح المجال لغيره من الأخبار، فقد كنته حى تغذية فضول الجمهور بآس جديد. وكما تنبأ الجنرال، بدأ النسيان يغيب الفضيحة، ولم تعد تحتل الصفحة الأولى في الجرائد، وإنما اقتصر ظهورها على بعض المجلات المعارضة محصورة التداول فقط. وحين رأت إيرين هذا الوضع، قررت البحث عن أدلة، وإضافة تفاصيل جديدة إلى القضية لتبقي الاهتمام مشدوداً إليها على أمل ان يتغلب التذمر الشعبي على الخوف. أصبح هاجسها هو كشف النقاب عن القتل وتحديد أسماء الضحايا. كانت تعلم أن خطوة خاطئة واحدة أو تصرف غير مدروس سيكون كافياً لإنهاء حياتها، لكنها كانت مصممة على الحيلولة دون السماح لتعتيم الرقابة وتواطؤ القضاء بمحو الجرائم. ورغم الوعد الذي قطعته لفرانثيسكو بالبقاء في الظل، إلا أنها أحست بالانقياد وراء أهوائها.

حين اتصلت إيرين بالرقيب فاوستينو ريفيرا التذعوه إلى الغداء بحجة اجراء ريبورتاج حول حوادث الطرق، كانت تدرك حجم المخاطرة، ولذلك ذهبت دون أن تخبر أحداً، يراودها شعور بانها تقوم بخطوة متهوره، ولكن لا بد منها. وأظهر لها صمت الرقيب الطويل وهو يردد عليها في الهاتف أنه يشك في أن ما طلبته ليس إلا ذريعة للوصول إلى موضوعات أخرى، لكن قتلى المنجم كانوا يشكلون بالنسبة اليه أيضاً كابوساً يرغب في اطلاق أحد عليه.

اتفقا على اللقاء بعد كوادرتين عن مساحة القرية، في الاستراحة التي التقيا

فيها من قبل . كانت رائحة الفحم واللحم المشوي تنتشر في الشوارع المجاورة ، وكان الرقيب ينتظر عند الباب بملابسه المدنية ، محتماً تحت الشرفة القرميدية . وجدت ايرين صعوبة في التعرف عليه ، بينما تذكرها هوبدقة وقام بأول إشارة تحية . كان يفاخر دوماً بأنه رجل قوي الملاحظة ، معتاد على التقاط أدق التفاصيل ، وهي صفة لا بد منها في مهنته البوليسية . لاحظ الفروق التي طرأت على مظهر الشابة وتساءل أين هي أساورها الفاضحة ، وتنانيرها ذات الكشاكش ومكياجها الدراماتيكي الذي يظلل عينيها اللتين صدمته يوم تعرف عليها . فالمرأة التي وجدها أمامه بشعرها المربوط في ضفيرة ، وبنطالها القطني ، وحقيبتها الضخمة المتدلية من كتفها كانت لا تكاد تشبه الصورة التي يحتفظ بها في مخيلته . جلسا إلى طاولة متوارية في طرف الفناء ، تحت ظلال شجيرات أزهار الثالث الوارفة .

وأثناء تناول الحساء الذي لم تذقه إيرين بيلتران ، ذكر الرقيب بعض الاحصائيات حول ضحايا حوادث المرور في هذه المنطقة ، دون أن يتوقف عن مراقبة مضيفته بطرف عينه . لاحظ تمللمها ، لكنه لم يفسح لها المجال لحرف الحديث بالاتجاه المرغوب إلى أن يتأكد من نواياها . وعندما أحضروا لها خنزيراً صغيراً أحاله الشواء ذهبياً ، فوق فرشاة من البطاطا المحمرة ، وفي فمه جزرة وعلى أذنيه عدد من عروق البقدونس ، تذكرت ايرين ذلك الخنزير الذي دُبح في بيت آل رانكيليو ، فصعدت موجة من الغثيان إلى حلقها . كانت تقلبات معدتها تقلقها منذ اليوم الذي دخلت فيه إلى المنجم ، فما تكاد تضع شيئاً في فمها حتى ترى صورة الجسد المتفسخ ، وتذكر رائحة التنانة التي لا تُسى ، فترتعش برعب كالرعب الذي أحست به في تلك الليلة . حمدت في سرها لحظة الصمت التي سادت ، وحاولت أن تصرف نظرها عن أسنان ضيفها الكبيرة وشاربه الملوث بالدهن الدافئ .

وقالت أخيراً وهي تبحث عن طريقة مباشرة للدخول في الموضوع :

- أظن أنك على علم بأمر موتى منجم لوس ريسكوس .

- أجل يا آنسة .

- يقولون أن ايفانخيلينا رانكيليو بينهم .

سكب الرجل كأساً آخر من النبيذ، وألقى إلى فمه بقطعة اخرى من الخنوص . وأحست ايرين بانها تسيطر على الموقف، فلو كان فاستينور ريفيرا لا ينوي التكلم، لما وافق على هذا اللقاء . وكونه موجوداً معها هو دليل كاف على استعدادها للتعاون . أتاحت له الوقت ليبتلع بعض اللقم ثم بدأت باستخدام بعض خدعها الصحفية وغنجها الطبيعي، لاجباره على اطلاق العنان للسانه . - لا بد من خوزقة مثيري الشغب، والمعدرة لهذه الكلمة يا آنسة . ومثل هذه المهمة تقع على عاتقنا وانجازها شرف كبير لنا . فالمندنيون يتمردون تحت أية ذريعة، ولا بد لنا من الشك بهم وضربهم بيد قوية، كما يقول ملازمي راميرث . ولكن هذا لا يعني القتل دون قانون، لأن الامر سيصبح في مثل هذه الحالة مجرد مجزرة .

- أولم يكن كذلك يا حضرة الرقيب؟

لا . لم يكن موافقاً على ذلك، لأنها افتراءات يروجها خونة الوطن وامساءات يتدعها السوفييت لتشويه سمعة حكومة سيدي الجنرال . والاهتمام بمثل هذه الشائعات أمر لا يطاق؛ فوجود بضع جثث في قاع منجم لا يعني أن جميع من يرتدون الزي العسكري هم قتلة؛ انه لا ينكر وجود بعض المتطرفين، ولكن ليس من العدل تحميل الجميع المسؤولية . ثم ان بعض القسوة خير من عودة القوات المسلحة إلى ثكناتها، وترك البلد في يد السياسيين .

- أتعلمين ما الذي سيحدث لو سقط سيدي الجنرال، لا قدر الله؟ سينهض الماركسيون ويذبحون جميع الجنود مع نسايتهم وأطفالهم . انهم يعرفوننا . وسيقتلوننا جميعاً . هذا هو جزاء قيامنا بواجبنا .

كانت ايرين تستمع اليه صامتة، لكن صبرها ما لبث أن نفذ بعد قليل وقررت محاصرته نهائياً:

- اسمع أيها الرقيب ودعك من اللف والدوران . لماذا لا تقول لي ما يجول في

ذهنك؟

حينئذ، وكما لو أن الرجل كان ينتظر هذه الإشارة، تخلى عن مقاومته وأعاد عليها ما كان قد رواه لبراديليو رانكيليو حول مصير اخته، وأطلعها على شكوكه التي لم يبع بها لأحد من قبل. رجع بذاكرته إلى فجر ذلك اليوم المنهك، حين عاد الملازم خوان دي ديوس راميريث إلى الموقع بعد أن حمل المعتقلة. في ذلك اليوم كانت ذخيرة مسدسه ناقصة طلقة. وكان لابد من إبلاغ عريف الحرس عن أي إطلاق للنار بأسلحة الخدمة. لتثبيت ذلك في سجل محاص بالأسلحة. وأوضح لها الرقيب أنه خلال الشهور الأولى التي تلت التحرك العسكري، سادت الفوضى في السجلات، لأنه كان من المستحيل حساب الذخائر التي تطلقها جميع الرشاشات والبنادق والمسدسات في الموقع، ولكن حين هدأت الأمور، عادوا إلى الروتين السابق. ولهذا قال الملازم عندما أراد تقديم تفسير لإطلاقه الرصاص، إنه قتل كلباً مسعوراً. كما سجل في سجل الحراسة أنه تم إطلاق سراح الفتاة في الساعة السابعة صباحاً، وأنها ذهبت بمشيئتها.

ثم أضاف الرقيب وفمه ممتليء بالطعام:

- وهذا ليس صحيحاً يا آنسة، كما هو مثبت في دفتر الملاحظات هذا.

ومد لها مفكرة جيب صغيرة مهترئة الغلاف، وقال:

- انظري، كل شيء موجود هنا. وموجود فيها كذلك اننا سنلتقي اليوم،

وسجلت أيضاً حديثنا الذي تبادلناه منذ اسبوعين، أتذكرين؟ أنا لا أنسى شيئاً،

وكل شيء يمكن قراءته هنا.

حين أمسكت إيرين المفكرة أحست بها ثقيلة كالصخر. فتأملتها مذعورة،

وأدركت بوضوح خطورة ما تحتويه. كانت على وشك أن تتوسل إليه ليتلفها،

لكنها أقصت هذه الفكرة عن ذهنها، جاهدة للتصرف بشكل طبيعي. فقد راودتها

في الأيام الأخيرة بكثرة تلك الهواجس التي تدفعها للشك في اتزان تفكيرها.

روى لها الرقيب كيف وقع الملازم على ما صرح به وكيف أمر العريف

اغناسيو برافوبان يحدو حذوه. وكيف انه لم يذكر شيئاً عن حمله لايفانخيلينا

رانكيليو خلال الليل ، كما أن رجاله لم يسألوه عن ذلك ، لأنهم يعرفون جيداً سوء نواياه ولا يريدون الانتهاء إلى الزنزانة الانفرادية مثل براديليو.

وقال الرقيب :

- لقد كان رانكيليو شاباً طيباً .

- كان ؟

- يقولون انه مات .

كتمت ايرين بيلتران صرخة يأس . فمثل هذا الخبر يجب مخططاتها . لأنها كانت تأمل في خطوتها التالية أن تعثر على براديليو رانكيليو وتقنعه بالمثل أمام المحاكم . فربما كان هو الشاهد الوحيد على ما جرى في لوس ريسكوس ، المستعد للشهادة ضد الملائم وكشف النقاب عن الاغتيالات ، لأنه يمكن لرغبته في الانتقام لاخته أن تتغلب على خوفه من العواقب . وأعاد الرقيب رواية ما اشيع عن أن براديليو قد وقع في جرف في الجبل ، ورغم انه ، ولشرف الحقيقة ، غير واثق من ذلك ، لأن أحداً لم يرحبته . حين بدأ ريفيرا بتناول زجاجة النيذ الثانية ، كان قد تخلى عن جميع أشكال الحذر وبدأ في البوح بجميع شكوكه . صحيح أن الوطن أولاً ، ولكن هذه القضية ليست لعبة ، ولا بد للعدالة من أن تكون أولاً ، هذا ما أقوله أنا ، رغم أنهم يهددوني ، ورغم اني سأفقد عملي وينتهي بي الأمر إلى حراثة الأرض مثل اخوتي . انني مصمم على الوصول إلى النهاية ، سأذهب إلى المحكمة ، وسأقسم على العَلم والكتاب المقدس ، وسأروي الحقيقة للصحافة . لهذا دونت كل شيء في مفكرتي : اليوم ، والساعة ، وجميع التفاصيل الاخرى . لقد كنت أخبثها تحت قميصي دوماً ، فأنا أحب أن أشعر بملامستها لصدري ، حتى انني أنام وأنا أحملها معي ، لأنهم حاولوا سرقتها في أحد الأيام . هذه الملاحظات تساوي ذهباً يا آنسة ، انها الأدلة التي حاول آخرون محوها ، ولكن كما قلت لك : أنا لا أنس مطلقاً . سأعرضها على القاضي إذا اقتضى الأمر ، لأن براديليو وايفانخيلينا يستحقان العدالة ، فهما من اقربائي .

كان بإمكان الرقيب أن يتصور ما حدث ليلة اختفاء ايفانخيلينا وكأنه يراه في

شريط سينمائي . قاد الملازم راميريث السيارة على الطريق وهو يصفر، فهو يصفر دائماً حين يكون عصبياً؛ وكان يفكر بالطريق رغم معرفته الجيدة بالمنطقة وعلمه بأنه لن يجد أية سيارة في مثل هذا الوقت . انه سائق حذر . وقد رانه بعد أربع دقائق أو خمس دقائق من اجتيازه بوابة الموقع وتلويحه مودعاً للتعريف اغناسيو برافو، الذي كان يحرس الباب، وصل إلى الطريق العام، واتجه شمالاً . وبعد بضعة كيلومترات انحرف عبر الطريق المؤدي إلى المنجم . طريق سيء، غير معبد ومليء بالحفر، لهذا السبب كانت السيارة ملوثة لدى عودته والاطارات ملطخة بالوحل . وافترض ان الضابط قد اختار مكاناً معيناً قريباً جداً من المنجم ليتوقف فيه . ولم يطفىء أنوار السيارة لأنه كان بحاجة إلى استخدام يديه الاثنتين، ولن يتيح له ذلك استعمال المصباح اليدوي . بعد ذلك ذهب إلى القسم الخلفي من الشاحنة، فنزع الغطاء ورأى الفتاة . لا بد انه ابتسم تلك الابتسامة المعوجة التي يعرفها مرؤوسوه ويخشونها . أزاح شعر ايفانخيلينا عن وجهها واستطاع رؤية تقاطيع الوجه، والعنق، والكتفين، ونهدي الفتاة التي في سن تلميذات المدارس . ويدت له جميلة رغم الكدمات والجروح، مثل جميع الصبايا تحت النجوم . وأحس بدفء معروف بين ساقيه، واضطرب تنفسه، فضحك بمكر وهو يهمس لنفسه :
يالي من بهيمة .

- اعذريني لصراحتي يا آنسة .

قال فاوستينو ريفيرا ذلك، قاطعاً روايته، وكان يمص ما تبقى من عظام

الغداء .

لمس الملازم خوان دي ديوس راميريث صدر الفتاة وربما تأكد حينئذ من انها ما زالت تتنفس . هذا أفضل كثيراً بالنسبة له، وأسوأ كثيراً بالنسبة لها . كان يبدو على الرقيب وكأنه يرى بعينه ملازمه حين نزع مسدسه ووضعه فوق صندوق العدة إلى جانب المصباح اليدوي، ثم فك حزامه الجلدي وازرار بنطاله وألقى بنفسه فوق الفتاة بعنف لا طائل منه، لأنه لم يواجه أية مقاومة . اخترقها على عجل، ساحقاً جسدها فوق أرضية الشاحنة المعدنية، وعاصراً الصغيرة الضائعة

تحت ثقل وزنه البالغ ثمانين كيلوغراماً، وثقل احزمته وبدلته العسكرية، وجزمته الثقيلة. كان يحمشها، ويعضها ليسترد بذلك كبرياء رجولته التي انتزعتها منه في يوم الأحد ذاك وسط فناء بيتها. وشعر الرقيب ريفيرا بالغثيان وهوي فكر بذلك، لأن له ابنة في مثل عمر ايفانجيلينا. لا بد انه استراح فوق المعتقلة بعد ان انتهى منها، وبقي كذلك إلى أن لاحظ أنها لا تقوم بأية حركة، ولا تشكو، وعيناها مسمرتان بالسماء، مذهولتان لميتها هذه. حينئذ أعاد ترتيب ملابسه، وأمسكها من قدميها وسحبها إلى الأرض ثم بحث عن المصباح اليدوي والمسدس، ووجه حزمة الضوء نحو الرأس، وقرب فوهة المسدس، وبعد أن نزع مسبار الأمان، أطلق النار عن قرب، متذكراً صباح ذلك اليوم البعيد حين أطلق بحركة ماثلة رصاصة الرحمة على قتيله الأول. فتح مدخل المنجم بالرفش والمعول، وحمل الجثة ملفوفة بالعباءة، وأدخلها كيفما اتفق ساحباً إياها حتى النفق الذي إلى اليمين، وغطاها بالانفاض والاحجار ثم خرج من هناك. وقبل ان ينصرف، أعاد اغلاق مدخل المنجم، وحرك التراب بقدمه ليغطي البقعة القائمة وفتات المادة اللينة التي نثرها الطلقة على الأرض، ثم فتش المكان بدقة إلى ان وجد غلاف الرصاصة، فخبأها في جيب سترته ليقدمها إلى رقابة الدخائر، انسجماً مع الأنظمة. ولا بد أنه ابتدع في تلك اللحظة حكاية الكلب المسعور. طوى قطعة الشمع، ووضعها في مؤخرة الشاحنة، وجمع بقية الأدوات، ووضع المسدس في قرابه وألقى نظرة اخيرة فيما حوله ليتأكد من أنه لم تبق أية آثار للعملية. ثم صعد إلى السيارة وتقدم نحو الطريق المؤدي إلى الثكنة وهو يصفر.

ختم الرقيب ريفيرا كلامه قائلاً:

- وكما قلت لك يا آنسة، فهو يصفر كلما كان عصياً. وأعترف بانى لا أملك أدلة على ما قلته لك، ولكنني أقسم بأمي الطاهرة، لتسترح روحها بسلام، ان الامور حدثت بهذا الشكل تقريباً.

- ومن هم الموتى الآخرون الذين كانوا في المنجم؟ من قتلهم؟

- لست أدري . أسأل فلاحى المنطقة ، فقد اختفى كثيرون في هذه
الأنحاء . اذهبى إلى حيث يقيم آل فلوريس .
- أنت واثق من أنك ستجرؤ على إعادة ما قتلته لي في محكمة؟
- أجل . واثق تمام الثقة . فتحليل الرصاصات وتشريح رفات ايفانجيلينا
سيثبتان انني على حق .
دفعت ايرين الحساب ، ثم وضعت آلة التسجيل في حقيبتها خفية ،
وودعت ضيفها . حين صافحت يده أحست ثانية بذلك القلق الغامض الذي
ساورها حين أمسكت المفكرة . ولم تستطع النظر في يمينه .
لم يتمكن الرقيب فاوستينوريفيرا من تقديم شهادته أمام القاضي ، لأن
شاحنة بيضاء صدمته في تلك الليلة بالذات ، فقتلته في الحال ولاذت بالفرار .
وكان شاهد العيان الوحيد هو العريف اغناسيو برافو الذي أكد ان كل شيء حدث
بسرعة شديدة لم يستطع التحقق من لوحة السيارة ولا من السائق . ولكن لم يُعثر
للمفكرة على أثر .



بحثت ايرين عن بيت آل فلوريس . كان بيتاً من الأخشاب والسواح
التوتياء ، مثل غيره من بيوت تلك المنطقة . ويشكل البيت جزءاً من ضيعة فلاحين
فقراء استفادوا من بضعة هكتارات من الأرض اثناء الاصلاح الزراعي ، لكنها
انتزعت منهم فيما بعد ، فلم يبق لهم سوى بساتينهم العائلية الصغيرة . الطريق
الطويل الذي يقطع الوادي ويصل الأراضي ببعضها بعضاً ، شقه الفلاحون
بعملهم الجماعي ، وساهم في نقل أحجاره حتى الشيوخ والأطفال . وعبر ذلك
الطريق جاءت السيارات العسكرية بالجند ليتهاكوا حرمة البيوت بيتاً بيتاً ،
وليصفوا الرجال في صف طويل ، ويختاروا واحداً من بين كل خمسة رجال دون
تعيين ليعدموهم كعبرة للأحرين ، ثم ليطلقوا النار على البهائم ، ويحرقوا الحقول
ثم ينصرفوا مخلفين هناك الدماء والدمار . كانت الولادات الجديدة نادرة في هذا

المكان، لأن بيوتاً كثيرة كانت بلا رجال منذ عدة سنوات . فكان يُحتفل بالولادات القليلة ببهجة، وتطلق عليهم أسماء الموتى ، كي لا ينساهم أحد .

ظنت ايرين لدى وصولها أن البيت مهجور، وهذا ما كان يوحي به مظهره المتوحد والكئيب . قرعت الباب لبعض الوقت دون أن تسمع حتى ولونباح كلب . وكادت أن تدير ظهرها لتصرف، حين ظهرت من بين الأشجار امرأة ترتدي ثياباً قاتمة، ولا تكاد تكون مرئية في المشهد وأخبرتها ان السيدة فلوريس وابتها في السوق، حيث تبعان الخضار.

على بعد بضعة خطوات من ساحة لوس ريسكوس، كان السوق ينفجر بالصخب والألوان . بحثت ايرين بين أكداس فواكه الموسم من دراقن وشمام وبطيخ، واجتازت متاهات الخضار الطازجة، واكوام البطاطا والذرة الطرية، والطاولات المترعة بالمهايمز والأعنة، وبالاسرجة وقبعات القش، وصفوف الفخار الأحمر والأسود، وأقفاص الدجاج والأرانب، وسط فوضى المناادة والمساومة . ووراء كل ذلك كانت تقوم محلات بيع اللحوم، والاسماك، والقواقع البحرية، وجميع أنواع الأجبان، وسط خليط من الروائح والطعوم . جابت السوق في جميع اتجاهاته على مهل متلذذة بالترفح، وباستنشاق روائح الأرض والبحر، متوقفة لتذوق حبة من بواكير العنب، أو ثمرة فريز ناضجة، أو محاراً حياً في قوقعته اللؤلؤية، أو فطيرة رقائق أعدتها يدا بائعها . وفكرت وهي مفتونة بهذه الأشياء انه لا يمكن لأمر مرعبة أن تحدث في عالم تزهر فيه وفرة كهذه . ولكنها التقت حينئذ بايفانخيلينا فلوريس وتذكرت سبب وجودها في ذلك المكان .

كان الشبه شديداً بين الفتاة وديغنا رانكيليو، لدرجة ان ايرين أحست بالالفة نحوها في الحال، وكلئها تعرفها من قبل . كانت مثل أمها وجميع اخوتها، ذات شعر ناعم وأسود، وبشرة بيضاء وعينين سوداوين وواسعتين، قصيرة الساقين، متينة الصدر، نشيطة ومعافاة، تتحرك بحيوية وتتكلم بدقة وبساطة، مشددة على كلماتها بحركات من يديها . كانت تختلف عن أمها، ديغنا رانكيليو، بطبعها البشوش وشجاعتها في الاعراب عن رأيها دون خوف . وكانت تبدو أكبر

سناً، واكثر نضجاً وتطوراً من ايفانجيلينا الأخرى، التي احتلت مكانها نتيجة خطأ وماتت بدلاً منها. ولم يجعلها الألم الذي تراكم في سنوات عمرها الخمس عشرة تذعن وتنفاد، بل منحها العزيمة والاندفاع. وكان وجهها ذو التقاطيع الخشنة يشرق ويتألق حين تبتسم. كانت رقيقة وحنونا في معاملتها لأمها التي تبتتها، فهي تتصرف معها باحساس الحماية، وتبدو كأنها ترغب في إبعادها عن احزان جديدة. وكانتا تعملان معاً في تصريف شؤون محل صغير تبيعان فيه منتجات بستانهما. روت ايفانجيلينا قصتها وهي جالسة على صندوق من قش القصب. لقد تعرضت اسرتها لعقوبة أقسى مما تعرضت له الأسر الأخرى، وجاءتهم الشرطة بعد التمهيد الأول. وقد تأكد لمن بقي حياً من أفراد العائلة خلال السنوات التالية أنه لا جدوى من البحث عنم أخذوهم، وأدركوا مدى خطورة الاتيان على ذكرهم. لكن روح الصبية كانت جامحة. فحين علمت بأمر اكتشاف الجثث في منجم لوس ريسكوس، راودها الأمل بالحصول على خبر عن أبيها واخوتها بالتبني، ولهذا السبب استقبلت الصحافية المجهولة وأبدت استعدادها للحديث معها. أما أمها فقد انتحت جانباً واعتصمت بالصمت وهي تراقب ايرين بريية.

قالت الشابة موضحة :

- آل فلوريس ليسوا أهلي، لكنهم ربوني، ولهذا أحبهم كما لو كانوا أهلي. كانت قادرة على تحديد تاريخ بدء التعاسة في حياتها. ففي أحد أيام تشرين الأول، قبل خمس سنوات، جاءت سيارة جيب تابعة للشرطة عبر الطريق المؤدي إلى الضيعة وتوقفت أمام البيت. كان ذلك لاعتقال انطونيو فلوريس، وكان على براديليو رانكيليو أن يقوم بهذه المهمة. طرق الباب متورداً من الخجل، لأن القدر ربطه بهذه العائلة بأواصر تصل في متانتها إلى رابطة الدم. فأوضح باحترام أن الأمر لا يتعدى استجواباً روتينياً، وسمح للمعتقل بان يتدثر بكنزة صوفية وقاده دون ان يمسه إلى السيارة. حينئذ رأت السيدة فلوريس وأولادها صاحب كرم «لوس اروموس» جالساً إلى جانب السائق واستغربوا الأمر، فهم لم يتورطوا في أية مشاكل معه، حتى ولا أثناء مرحلة الاصلاح الزراعي العاصفة،

ولهذا لم يفهموا سبب وشأنيته . بعد أن أخذوا انطونيو فلوريس ، توافد الجيران لمواساة الأسرة وامتلا البيت بالناس . فكان هناك عدد كبير من الشهود حين ظهرت بعد نصف ساعة من ذلك شاحنة ممتلئة بالحراس المسلحين . نزلوا من الشاحنة بمناورة قتالية وهم يطلقون صرخات الهجوم ليعتقلوا الأخوة الأربعة الكبار . جروهم إلى السيارة بعد الضرب والركل واشراف الاخوة على فقدان الوعي ، ولم يبق من اثرهم إلا صحابة غبار خلعتها الشاحنة على الطريق . وقف من شهدوا الواقعة مذهولين أمام تلك الوحشية ، لأنه لم يكن لأي من الأخوة سوابق سياسية ، وكانت جريمتهم الوحيدة هي انضمامهم إلى النقابة . بل ان واحداً منهم لم يكن يعيش في المنطقة ، وانما كان يشتغل كعامل بناء في العاصمة وجاء في ذلك اليوم لزيارة أبويه . وفكر الفلاحون بان اعتقالهم لا يمكن أن يكون إلا نتيجة خطأ ما ، وراحوا ينتظرون اعدادتهم . كان الجميع قادرين على تحديد هوية رجال الحرس الذين تولوا اعتقالهم ، وكانوا يعرفونهم بأسمائهم ، فقد ولدوا في المنطقة وتعلموا معهم في المدرسة ذاتها . وبما أن براديليورانكيليو لم يأت مع أفراد المجموعة الثانية ، فقد تصوروا انهم تركوه في الشكنة لحراسة انطونيو فلوريس . وذهبوا اليه فيما بعد ليستفسروا منه عن بعض الأمور ، خارج أوقات الخدمة ، لكنهم لم يحصلوا على شيء ، لأنه كان مستحيلاً الحصول على كلمة واحدة من ابن رانكيليو الكبير .

وقالت ايفانجيلينا فلوريس :

- كانت حياتنا هادئة حتى ذلك الحين . كنا جماعة محبة للعمل ولم يكن ينقصنا شيء . كان والدي يملك حصاناً ويدخر المال لشراء جرار . لكن السلطة القت بثقلها علينا وتبدل كل شيء .

- النكبة تسري مع الدماء في العروق - دمدمت السيدة فلوريس وهي تفكر بذلك المنجم اللعين الذي ربما كان فيه ستة من أفراد اسرتها .

بحشوا عنهم . وقاموا طوال شهر بالخج الاضطرابي الذي يقوم به كل من يقتفون أثر ذوبهم المفقودين . ذهبوا من مكان إلى آخر يسألون دون جدوى ، ولم

يتلقوا سوى النصيحة بالكف عن البحث واعتبارهم ميتين وتوقيع تصريح قانوني، وهذا يصبح لهم الحق في تلقي اعانة الايتام والأرامل. وكانوا يقولون لها: قد تجدين زوجاً آخر يا سيدتي، فأنت ما زلت حسنة المظهر. كانت الاجراءات طويلة ومرهقة ومكلفة. فاستنفدت كل مدخراتهم واضطرتهم إلى الاستدانة. وكانت الأوراق تضيع في مكاتب العاصمة، فيضمحل أملهم مع مرور الوقت مثل تلاشي أثر قديم. واضطر من بقي حياً من الابناء إلى هجر المدرسة والبحث عن عمل في المزارع المجاورة، لكنهم لم يمنحوهم العمل لكونهم مشبوهين. فحزموا ممتلكاتهم البائسة ومضوا في دروب مختلفة بحثاً عن أماكن أخرى حيث لا أحد يعرف شيئاً عن سوء طالعهم. تشتت شمل الأسرة ولم يبق مع السيدة فلوريس بعد سنوات إلا طفلة مستبدلة. كان عمر ايفانخيلينا عشر سنوات حين اعتقلوا أباهما واخوتها بالتبني. وكلما أغمضت عينيها كانت تعود لرؤية تلك اللحظة التي جروهم بها وهم ينزفون. تساقط شعرها، ونحلت، وصارت تسير وهي نائمة، وتبدو وكأنها تطفو في البلاهة وهي مستيقظة، مما جعلها محط سخرية الأطفال الآخرين في المدرسة. وفكرت السيدة فلوريس بابعادها عن البيت الذي يغص بالذكريات الكريهة، فأرسلتها إلى بيت أحد أخوالها في قرية أخرى، كان يعمل في تجارة حطب وفحم ناجحة، ويمكنه أن يؤمن لها حياة أفضل، لكن الصغيرة لم تحتمل افتقاد الحب وساءت حالتها. فأعادوها لتبقى في بيتها، ولم يستطع أي شيء مواساتها لزم من طويل. ولكنها حين أتمت الثانية عشرة من عمرها وجاءها الحيض لأول مرة، ازاحت الحزن نهائياً، ونضجت فجأة لتستيقظ في صباح أحد الأيام وقد غدت امرأة كاملة. وكانت هي التي فكرت ببيع الحصان واقامة كشك لبيع الخضار في سوق لوس ريسكوس، وهي التي قررت كذلك وقف ارسال الطعام والملابس والنقود بواسطة العسكريين إلى ذويها المفقودين، لعدم توفر اية أدلة تشير إلى انهم ما زالوا على قيد الحياة. صارت الشابة تعمل عشر ساعات كل يوم في بيع الخضار والفواكه ونقلها، وخلال الساعات الست الأخرى المتبقية قبل أن تهوي منهوكة على السرير، كانت تدرس في الدفاتر التي تعدها لها معلمة المدرسة كخدمة

خاصة . لم تعد تبكي ، وبدأت تتحدث عن أبيها واخوتها بصيغة الماضي ، لتجعل أمها تعتاد شيئاً فشيئاً على فكرة انها لن تراهم ابداً .

عندما فتحوا المنجم كانت تقف بين الجموع ، وراء الجنود ، واضعة على ذراعها شريطة سوداء . ورأت من بعيد الاكياس الصفراء الكبيرة ، وأمعنت النظر عليها تلمح علامة ما . وقد حدثها أحدهم عن استحالة تحديد هوية البقايا دون دراسة الأسنان وكل قطعة من العظام أو الملابس التي وجدت ، لكنها كانت واثقة من أن قلبها سيدها عليهم إذا ما رأتهم عن قرب .

وطلبت من ايرين :

- أتستطيعين أخذي إلى حيث يحتفظون بهم الآن؟

- سأعمل ما أقدر عليه ، لكن الأمر صعب .

- لماذا لا يعيدون إلينا موتانا؟ لا نريد سوى قبر يستريحون فيه مطمئنين ،

ونضع لهم الزهور عليه ، ونصلي من أجلهم ، ونزورهم في يوم جميع الموتى . . .

سألته ايرين :

- أتعرفين من اعتقل أباك واخوتك؟

فردت ايفانخيلينا فلوريس دون تردد :

- الملازم خوان دي ديوس راميريث وتسعة من رجاله .

★ ★ ★

بعد ثلاثين ساعة من مقتل الرقيب فاوستينوريفيرا ، تعرضت ايرين إلى اطلاق النار عليها عند مدخل المجلة . كانت خارجة من عملها في وقت متأخر ، حين دار محرك سيارة كانت تقف على الرصيف المقابل وانطلقت بسرعة لتمر إلى جانبها مثل ريح مشؤومة وتنطلق منها زخة رصاص من مسدس رشاش قبل أن تضيق في زحمة السير . أحست ايرين بصدمة قوية في مركز حياتها ولم تدر ما الذي حدث . انهارت دون أن تصدر عنها صرخة واحدة ، وتمكنت في لحظة صحو من لمس الدم الذي كان يسيل مشكلاً بركة فيما حولها ، ثم غرقت في السبات .

لم ينتبه البواب وبعض الشهود كذلك لما حدث . فقد سمعوا صوت الرصاص ولم يستطيعوا تحديده، معتقدين أنه صادر عن انفجار محرك أو عن مرور طائرة، ولكنهم هرعوا لمساعدتها حين رأوها تهوي . وبعد عشر دقائق كانت ايرين في سيارة اسعاف تطلق صفيراً مديواً وانواراً متقطعة . وكانت في بطنها عدة ثقوب تفلت منها حياتها .

علم فرانثيسكو ليال بالحادث مصادفة بعد ساعتين ، حين اتصل ببيتها ليدعوها إلى العشاء ، لأن عدة أيام كانت قد انقضت دون ان يلتقيا منفردين وكان الشوق إليها يخنقه . فأعلمته روسا بالخبر وهي تبكي . كانت تلك هي أطول ليلة في حياته . فقد امضاها جالساً إلى جانب بياتريس على مقعد في ممر المستشفى ، مقابل باب جناح العناية المشددة، حيث كانت حبيبته تهيم تائهة في غيبوبة الاحتضار . وبعد عدة ساعات في غرفة العمليات ، لم يكن هناك من يظن انها ستعيش . فكانت تنتظر الموت وهي موصولة بعدد من الانابيب والاسلاك .

كان الجراحون قد شقوا بطنها وفتشوا أحشاءها ليكتشفوا بعد كل غرزة ثقباً جديداً بحاجة لأن يرقعوه . غذوها بليترات من الدم والمصل ، وعاجلها بالمضادات الحيوية ثم صالبوها فوق السرير وبرفقتها كل تلك الانابيب ، وابقوها غارقة في ضباب الغيبوبة كي تحمل آلامها . واستطاع فرانثيسكو رؤيتها لبضع لحظات بتواطؤ من الطبيب المناوب الذي رق لحاله . كانت عارية ، شفافة ، تطفو في انوار الصالة القوية البيضاء ، وإلى جانبها جهاز تنفس متصل بالرغامى ، وأسلاك تصل بينها وبين جهاز لتخطيط القلب لا تبعث حركته التي لا تكاد تكون ملحوظة أي أمل في النفس . وكانت في اوردتها عدة ابر متصلة بأنابيب ، بينما كان لونها شاحباً مثل لون شرشف السرير ، وحول عينيها هالتان بنفسجيتان ، وعلى بطنها كتلة متماسكة من الضمادات ، تبرز من بينها انابيب النضح البطنية . توقفت صرخة بكاء في صدر فرانثيسكو وبقيت عالقة هناك لوقت طويل .

حين رأت بياتريس الكانترا فرانثيسكو ، بادرتة متهمة :

- انها جريمتك ! فمنذ ظهرت في حياة ابنتي بدأت المشاكل !

كانت محطمة، وفاقدة السيطرة على نفسها. فأحس فرانثيسكو بالعطف عليها، لأنه كان يراها لأول مرة دون تصنيع، ومتقدة، وانسانية، متألمة، وقريبة منه. انهارت السيدة على مقعد في الممر وبكت إلى ان استنفدت دموعها. لم تستطع ادراك ما حدث. كانت ترغب في اقناع نفسها بانه عمل اجرامي عادي، كما أكدت الشرطة، لأنها لم تحتمل فكرة أن تكون ابنتها مطاردة لأسباب سياسية. ولم تكن لديها اية فكرة عن مشاركتها في العثور على لقيه الجثث في المنجم، ولم تكن تريد تصورها متورطة في قضايا شائكة مع السلطة. ذهب فرانثيسكو بحثاً عن فنجاني شاي وجلسا معاً لتناولهما صامتين، يجمعهما الاحساس المشترك بالانهار.

كانت بياتريس قد شاركت خلال الحكم السابق، مثل كثيرات غيرها، بالخروج إلى الشارع وهي تدق الطناجر الفارغة علامة الاستنكار. وتعاطفت مع الانقلاب العسكري لأنه بدا لها أفضل ألف مرة من نظام اشتراكي، وحين قصفوا قصر الرئاسة القديم من الجو، فتحت زجاجة شمبانيا لتحتفل بالحدث. كانت تتقد بحمي الوطنية، لكن حماسها لم يصل بها إلى حد التبرع بمجوهراتها لصندوق اعادة الاعمار الوطني، لأنها خافت ان ترى تلك المجوهرات تزين صدور نساء الكولونيالات، كما كانت تشيع السنة السوء. وتأقلمت مع النظام الجديد وكأنها ولدت فيه، وتعلمت ألا تأتي على ذكر ما يستحسن عدم معرفته. وبدا لها الجهل أمراً لا بد منه من أجل راحة البال. وفي تلك الليلة المشؤومة في المشفى، كان فرانثيسكو على وشك ان يحدثها عن ايفانخيلينا رانكيليو، وعن موتى لوس ريسكوس، وعن مئات الضحايا، وعن ابنتها، لكنه رثى لحالها. لم يشأ استغلال هذه اللحظة التي كانت ترتعش فيها انفعالاً ليهدم الاسس التي كانت تستند إليها حتى ذلك الحين. اكتفى بالسؤال عن ايرين، عن سنوات طفولتها ومراهقتها، راضياً بالنوادير الصغيرة، وطالبا تفاصيل دقيقة بفضول المحبين تجاه كل ما يتعلق بالمحجوب. تحدثا عن الماضي فمضت ساعات وسط النجوى والدموع. في ليلة العذاب تلك أوشكت ايرين على الموت مرتين، وكانت اعادتها إلى

عالم الأحياء أشبه بالمعجزة. وفيما الأطباء منهمكون من حولها في تنشيط قلبها بصدمات كهربائية، أحس فرانثيسكوليبال أن عقله يضيع منه، وأنه يرجع إلى أقدم العصور، إلى الكهف، والظلام، والجهل، والرعب. رأى قوى شريرة تشد أيرين نحو الظلال، وفكر بياس أن السحر، والحظ، وتدخل قدرة الهية هي وحدها القادرة على منع الموت. رغب في الصلاة، لكن ذاكرته لم تسعفه في استحضار الكلمات التي تعلمها من أمه في الطفولة. وحاول في بلبته أن ينقذها بقوة حبه، فعزّم الهلاك بذكرى سعادته، وواجه ظلام الاحتضار بنور لقائهما. ابتهل من أجل وقوع معجزة، من أجل أن تنتقل عافيته ودماؤه وروحه إليها لتساعد على الحياة. كرر اسمها ألف مرة متوسلاً إليها ألا تستسلم وان تواصل الصراع، حدثها سراً من مقعده في المر، وبكى دون مداراة وأحس بانفاسه مثقلة بقرون من الانتظار، ومن البحث عنها، واشتهائها وجبها، متذكراً نمش جلدها، وبراءة قدميها، ودخان حدقتيها، وشذى ملابسها، وحرير بشرتها، وخط خصرها، وزجاج ضحكاتها والطمأنينة التي تستسلم بها لذراعيه بعد النشوة. وبقي يتمتم بين اسنانه ويتألم دون عزاء إلى أن تفتحت أضواء الفجر، واستيقظ المشفى، وسمعت ضجة الأبواب وهي تنوس، والمصاعد، ووقع الأحذية، وصوت الأدوات فوق الصواني المعدنية، وصوت قلبه الجامح؛ حينئذ أحس بيد بياتريس الكانتر تلمس يده، فتذكر حضورها. تأمل كل منها الآخر وكانا مرهقين تماماً. لقد أمضيا كل هذه الساعات في ظروف متماثلة. كان وجهها مضطرباً، لا أثر فيه لمساحيق المكياج، بينما بدت فيه خطوط عمليات التجميل الدقيقة. وكانت عيناها منتفختين، وشعرها لزجاً من العرق، وبلوزتها مجمدة.

سألته:

- هل تحبها يا بني؟

فرد فرانثيسكو:

- كثيراً.

حينئذ تعانقا. لقد اكتشفا أخيراً لغة مشتركة تجمع بينهما.

انقضت ثلاثة أيام وايرين على تخوم الموت . بعد تلك الأيام أفادت من غيبوتها لتتوسل بعينها كي يتركوها تناضل بوسائلها الخاصة أو تموت بكرامة ، فأبعدوا عنها جهاز التنفس الاصطناعي ، وبدأ الهواء ينتظم شيئاً فشيئاً في رثتها وإيقاع الدم في عروقها ، فنقلوها عندئذ إلى غرفة خاصة حيث استطاع فرانثيسكو ليال البقاء إلى جانبها . كانت الفتاة غارقة في غيبوبة المخدرات ، تائهة في ضباب كوابيسها ، لكنها كانت تدرك حضوره ، وحين كان يتعد عنها تناديه بصوت ضعيف وواهن كصوت طفل وليد .

في مساء ذلك اليوم حضر غوستافو مورانتي إلى المشفى . فقد علم بالأمر عندما قرأ نشرة الوقائع البوليسية ، وكان الخبر قد نُشر فيها متأخراً ، بين مجموعة من الأحداث الدموية الأخرى ، ونُسب إلى مجرمين عاديين . لم يتشبث أحد بهذه الرواية للحادث إلا بياتريس الكانترا التي رأت كذلك في انتهاك حرمة بيتها تصرفاً شاذاً من الشرطة . أما الكابتن فلم تراوده الشكوك في الأمر . لقد حصل على تصريح بالسفر من موقع الحامية التي كان مفروزاً إليها ، ليزور خطيبته القديمة .

حضر بالملابس المدنية ، تنفيذاً لتوصية من القيادة العليا ، التي لم تكن ترغب في ظهور العسكريين بزيهم الرسمي في الشوارع للحيلولة دون اعطاء انطباع بان البلد محتل . طرق باب الغرفة ففتح له فرانثيسكو الذي فوجيء برؤيته . تفحص كل منها الآخر بعينه ، متقصباً نوايا الآخر ، إلى أن جعلتها تنهيدة أطلقتها المريضة يهرعان إلى جانبها . كانت ايرين مشلولة فوق السرير المرتفع ، مثل أميرة منحوتة من مرمر أبيض فوق ضريحها . كان شريط شعرها الحي وحده هو الذي يشع بالضوء . وكانت ذراعها موشومين بأثار الابروالمجسات ، وكانت تتنفس بصعوبة وهي مغمضة العينين وتلمح ظلالاً قائمة من خلال رموشها . أحس غوستافو مورانتي بشحنة رعب تجتاح جسده وتركه يرتعش حين رأى هذه المرأة ، التي أحب حيوتها ، وقد تحولت إلى جسد بائس ذاويكاد يتبخّر في هواء الحجرة اللالوغي .

دمدم متسائلاً:

- أيمكن أن تعيش؟

منذ عدة أيام وفرانثيسكوليال يراقبها إلى أن عتاد على ادراك أدق علائم التحسن، كان يحصي أنفاسها واغفائها، ويراقب حركاتها الواهنة. وكان سعيداً لأنها صارت تتنفس دون مساعدة جهاز، وأصبح بإمكانها تحريك أطراف أصابعها في حركة خفيفة، لكنه أدرك أن هذا المنظر بالنسبة للكابتن - الذي لم يرها وهي تحتضر - هو ضربة قاسية. نسي تماماً أن الآخر هو ضابط في الجيش، ولم يرفيه إلا رجلاً يتألم من أجل المرأة التي يحبها هو أيضاً.

طلب منه مورانتي وهو يحني رأسه بقلق:

- أريد أن أعرف ما حدث.

وروى له فرانثيسكوليال كل شيء، دون أن يخفي مشاركته في اكتشاف الجثث، أملاً أن ينتصر حرب إيرين على السوء اللذي العسكري. ففي يوم الحادث بالذات أقتحم عدد من الرجال المسلحين بيت الشابة وقلبوا كل ما وجدوه في طريقهم، ابتداء من الفراش الذي نزعوا أحشائه بالسكاكين، وحتى علب مستحضرات التجميل وأواني المطبخ التي أفرغت محتوياتها على الأرض. أخذوا آلة تسجيلها، ودفاتر ملاحظاتها، ومفكرتها وسجل العناوين. وقبل أن يخرجوا أطلقوا رصاصة مجانية على «كليو»، وخلفوا الكلبة تحتضر وسط بركة من الدماء. لم تكن بياتريس في البيت، لأنها كانت تسهر في ذلك الوقت في ممر المشفى حيث ابتتها تحتضر. حاولت روسا إيقافهم، لكنها تلقت ضربة بعقب بندقية في صدرها أفقدتها الصوت والنفس إلى أن ذهبوا، حينئذ حملت الكلبة في مريلتها واحتضنتها كي لا تموت وحيدة. ألقى أولئك الرجال نظرة سريعة على «مشيئة الرب»، زارعين الرعب بين النزلاء والمشرفات، لكنهم انسحبوا سريعاً حين أدركوا أن هؤلاء المسنين المدعورين يعيشون على هامش الحياة، وهم بالتالي على هامش السياسة أيضاً. وفي صباح اليوم التالي اقتحموا مكاتب المجلة وفتشوا كل ما وجوده في مكتب إيرين بيلتران، بما في ذلك شريط آلتها الكاتبة القديم وورق الكربون

المستعمل . وروى فرانيسكو للكاتبين كذلك عن ايفانخيلينا رانكيليو، وعن موت الرقيب ريفيرا المريب، وعن اختفاء براديليو وآل فلوريس، وعن المذابح المقرفة ضد الفلاحين، وعن الملازم خوان دي ديوس راميريث، وكل ما خطر على باله، واضعاً الخيطة جانباً بعد ان حملها كجلد آخر له طوال عدة سنوات . أفرغ الغضب المتراكم خلال كل هذه الفترة من الصمت وأظهر له الوجه الآخر للحكومة - الوجه الذي لم يكن الضابط يراه لكونه خارج الحصار - دون أن ينسى ذكر من قاسوا التعذيب، والموتى، والفقراء القورين والاثرياء الذين يتقاسمون الوطن وكأنه صفقة اخرى من صفقاتهم، فيما الكابتن، الشاحب والصامت، يستمع إلى ما لم يكن يتصور يوماً ان يقال بحضوره .

كانت كلمات فرانيسكو تصطدم في ذهن مورانتي بكلمات اخرى تعلمها في دوراته الحربية . ووجد نفسه للمرة الأولى أمام ضحايا النظام، وليس بين من يمارسون السلطة المطلقة . وصار عليه ان يعاني من ذلك النظام في اكثر مواجعه ايلاماً، في هذه الصبية المعبودة، المشلولة بين شراشف السرير، والتي تميز صورتها روحه مثل ناقوس يُقرع للموت . لم يتخل عن حبها ولو لحظة واحدة في حياته، ولم يجبها يوماً مثلما احبها في تلك اللحظة، وهو يفقدتها . تذكر السنوات التي كبر فيها معاً، ومخططاتها للزواج، ولجعلها سعيدة . وبصمت راح يقول لها كل ذلك الكلام الذي لم تسنح له الفرصة لقوله من قبل . أنها لعدم ثقتها به، لماذا لم تخبريني؟ لو انها أخبرته لكان ساعدها وفتح يديه ذلك القبر اللعين، لا ليرافقها وحسب، بل ومن أجل شرف القوات المسلحة أيضاً . فلا يمكن لهذه الجرائم أن تمر دون عقاب، لأن المجتمع سيذهب حينئذ إلى الشيطان، ولن يكون ثمة معنى لحمل السلاح من أجل اسقاط الحكومة السابقة واتهامها باللا شرعية، إذا كانوا هم أنفسهم يمارسون السلطة بعيداً عن كل القوانين والأخلاق . ان المسؤولين عن مثل هذه الأعمال غير المنضبطة هم بعض الضباط الذين لا بد من معاقبتهم، لكن طهارة المؤسسة العسكرية لم تتلوث يا ايرين، ففي صفوفنا رجال كثير ون مثلي، مستعدون للنضال في سبيل الحقيقة، ولازاحة الأنقاض واظهار كل القمامة وتقديم

حياتهم من أجل الوطن إذا اقتضى الأمر. لقد خنتني يا حبيبتني، وربما لم تحبيني يوماً مثلما أحبتك، ولهذا السبب تركتني دون اتاحة الفرصة لي كي أثبت لك انني لست شريكاً في هذه الهمجية، وأن يديّ نظيفتان، وانني عملت دوماً بحسن نية. أنت تعرفيني؛ فقد كنت في القطب الجنوبي أثناء الانقلاب، وعملي هو أجهزة الكومبيوتر، ولوحات المفاتيح والأزرار، وملفات الارشيف السرية، والاستراتيجية. وأنا لم أطلق النار من سلاحي إلا في التدريب على الرماية. كنت أعتقد أن البلاد بحاجة إلى نقلة سياسية، بحاجة إلى النظام والانضباط للتغلب على البؤس. كيف كان بمقدوري أن أتصور أن الشعب يكرهنا؟ لقد قلت لك مرات ومرات يا ايرين ان هذه العملية قاسية، لكننا سنتجاوز الأزمة. مع انني لم أعد واثقاً تمام الثقة من ذلك، وربما ان الوقت قد حان للعودة إلى الثكنات واعادة الديمقراطية. أين كنت أنا كي لا أرى الحقيقة؟ كيف لم تخبريني من قبل؟ لم تكن هنالك حاجة لتلقيك رشة من الرصاص لكي أصحو وأفتح عيني، ما كان عليك أن تذهبي وتركي لي هذا الحب الهائل والحياة لأعيش بدونك. كنت تبخثن عن الحقيقة منذ طفولتك، ولهذا احبك كل هذا الحب، ولهذا بالذات انت تموتين هنا الآن صامته.

بقي الكابتن يتأمل ايرين لوقت طويل، حتى تلاشى الضوء الذي كان يدخل من النافذة وغرقت الغرفة ببطء في العتمة، فضاعت حدود الأشياء وتحولت الشابة إلى بقعة خفيفة فوق السرير. نظر إليها مورانتي نظرة الوداع، واثقاً من أنه لم يجب أحداً كما أحبها، ومستجمعاً قواه للمهمة التي سيواجهها. انحنى ليقبل شفيتها المشققتين، كابحاً نفسه مستنشقاً رائحة الدواء التي تفوح من جلدها، متخيلاً شكل جسدها، وماسحاً على شعرها المتمرد. حين خرج عريس المنية كانت عيناه جافتين، ونظرته قاسية، وقلبه ثابت العزم. سيحبها إلى الأبد ولن يعود إلى رؤيتها مطلقاً.

وكان كل ما قاله :

- لا تركوها وحيدة، لأنهم سيأتون للإجهاد عليها. أنا لا أستطيع حمايتها.
يجب اخراجها من هنا واخفاؤها.

فرد فرانثيسكو:

- حسن

ثم شد كل منهما على يد الآخر طويلاً وبحزم.

★ ★ ★

كانت ايرين تتحسن ببطء شديد، حتى بدا أنها لن تشفى بشكل كامل أبداً، وكانت تعاني آلاماً فظيعة. وصار فرانثيسكو هوراعي جسدها، يرباه باهتمام مثل اهتمامه به قبل منحه اللذة. لم يكن يبتعد عنها خلال النهار، وكان يستلقي في الليل على اريكة إلى جوار سريرها. كان من عادته أن ينام نوماً هادئاً وثقيلاً، لكنه شحذ سمعه في تلك الأيام مثل حيوان متوفز. فكان يستيقظ مذعوراً ما أن يسمع تبداً في تنفسها، أو حركة أو أنة ضعيفة.

توقفوا عن تغذيتها بواسطة الوريد في ذلك الأسبوع، وتناولت طبقاً من الحساء، أطعمها إياه فرانثيسكو بالملعقة وبطول أناة. فابتسمت حين لمحت جزعه كما لم تبسم منذ زمن، فكانت تلك الابتسامة كابتسامتها اللعوب التي اسرته منذ اللحظة التي تعرف عليها. خرج قافزاً في عمرات المشفى وقد أطارت السعادة عقله، وانطلق إلى الشارع، فاجتازه وسط السيارات، وترك نفسه يهوي على عشب الساحة. لقد حطم حاجز الانفعالات الحبيسة الذي ارتفع خلال أيام طويلة، وراح يضحك ويكي دون ان يداري تأثيره أمام أنظار المربيات المذهولات والمتقاعدن الذين كانوا يتمشون تحت الشمس في ذلك الحين. جاءت أمه لتبحث عنه هناك ولتشاركه سعادته. كانت هيلدا تقضي ساعات طويلة وهي تحوك الصوف صامتة إلى جانب المريضة لتعود نفسها شيئاً فشيئاً على أن ابنها الا صغر سيمضي كذلك، لأن الحياة لن تبقى على حالها بالنسبة اليه وبالنسبة للمرأة التي أحبها. أما البروفسور ليال، فقد حمل كونشيرتاته إلى ايرين ليملاً لها الغرفة

بالموسيقى ويعيد إليها الرغبة في الحياة . كان يزورها كل يوم ويجلس ليروي لها قصصاً سعيدة ، دون أن يأتي على ذكر الحرب الاسبانية ، أو ما رآه في معسكرات الاعتقال ، أو قسوة المنفى وغيرها من الأمور المحزنة . وكان حنانها عليها يصل إلى حد احتمال بياتريس الكانترا دون أن يفقد طيب المزاج .

بعد فترة قصيرة تمكنت إيرين من المشي بضع خطوات ، مستندة إلى فرانيسكو . كان شحوب وجهها يشير إلى درجة اعتلالها ، لكنها طلبت أن يقلصوا من كمية المسكنات التي يعطونها إياها ، لأنها كانت تريد استعادة وضوح الذهن والاهتمام بشؤون الدنيا .

توصل فرانيسكو إلى معرفة إيرين كما يعرف نفسه . ففي ليالي الأرق الطويلة تلك ، روى كل منهما حياته للآخر . لم يبق لديها ذكرى من الماضي ، أو حلم من الحاضر ، أو خطة للمستقبل إلا وتقاسماها . تبادلآ تسليم اسرارهما ، وتجاوزا حدود الجسد ليسلم كل منهما روحه إلى الآخر . كان يغسل جسدها باسفنجة ، ويدعكه بالكولونيا ، ويسرح شعرها ليبسط التجاعيد المتمردة ، وكان يحركها ليستبدل شراشف السرير ، ويطعمها ، ويعرف أدنى احتياجاتها المستعجلة . وكان يتلقف كل ايباءة ، وكل نظرة ليقوم بما يجب عليه أن يفعله وكأنه يفعله لنفسه . لم يلحظ عليها يوماً أي أثر للحياء ، فقد كانت بحاجة اليه كحاجتها للهواء والضوء ، فتطلبه وترى أن وجوده إلى جانبها في الليل والنهار أمر طبيعي . وإذا ما خرج من الغرفة كانت تسمّر عينيها على الباب بانتظار عودته . وإذا ما اشتد عليها الألم بحثت عن يده وهمست باسمه طالبة المساعدة . شرعاً جميع أبوابها ، فولّد ذلك بينها رابطة لا سبيل إلى فطمها ، ساعدتها على تجاوز الخوف المقيم في حياتيهما من الواقع الرهيب .

ما أن سُمح بزياره إيرين ، حتى بدأ اصداقؤها في المجلة بالتوافد . جاءت العرافة مرتدية عباءة مسرحية ، وحاملة معها هدية هي عبارة عن علبة سرية وغريبة ، ونصحت قائلة :

- دلكوها بهذا المرهم من رأسها حتى قدميها ، انه علاج محقق للوهن .

ولم يفد في شيء قولهم لها ان سبب هذا الانهاك هو طلقات مدفع رشاش .
وأصرت على تحميل البروج المسؤولية : العقرب يجذب الموت . ولم يفد كذلك
تذكيرها بان ايرين ليست من مواليد هذا البرج .

صار يتردد على المشفى صحفيون ، ومخرجون ، ورسامون ، وملكات
جمال . كما جاءت عاملة التنظيف في مبنى المجلة حاملة معها للمريضة عدداً من
عبوات الشاي الصغيرة وكيس سكر . لم تكن قد دخلت إلى مشفى خاص من
قبل ، فكانت تعتقد انه لا بد من المشاركة في تقديم بعض الأغذية ، وظنت أن
المرضى يعانون الجوع ، كما هو الحال في مشافي الفقراء العامة . ولكنها هتفت حين
رأت الغرفة ، والأزهار التي على الطاولة والتلفزيون :
- هنا يطيب الموت يا ايرين .

وتناوب مسنو «مشيئة الرب» على زيارتها برفقة المشرفات . فقد كان
الاحساس بغياب الشابة في ملجأ العجزة مثل انقطاع طويل للنور . كان المسنون
يضعفون وهم ينتظرون حلواها ، ورسائلها ، ومداعباتها . لقد علموا بنكبتها ،
لكن بعضهم نسيها في الحال ، لأنهم كانوا عاجزين عن الاحتفاظ بالنكبات
الجديدة في اذهانهم المدبرة . وكانت خوسيفينا بيانتيشي هي الوحيدة التي أدركت ما
حدث تماماً . وأصرت على الذهاب إلى المشفى كلما استطاعت ، حاملة في كل
مرة هدية لايرين : زهرة من الحديقة ، أو شال قديم من صناديقها ، أو بيت من
الشعر تكتبه بخطها الانكليزي المنمق . كانت تظهر في المشفى طافية ومتسريلة
بفساتين من التول الرقيق الباهت أو من الدانتيل المعتقة ، يفوح منها عطر الورد ،
نحيلة مثل شيخ من عصر آخر . فيتوقف الأطباء والمرضات عن أعمالهم ليروها تمر
وقد فاجأهم مظهرها .

في اليوم التالي لضرب ايرين بالرصاص ، وقبل ان تنشر الصحافة الخبر ،
علم به ماريو من خلال قنوات سرية ، فحضر في الحال لتقديم المساعدة . وكان
أول من انتبه إلى أن المشفى مراقب . كانت هناك سيارة ذات زجاج قاتم ترابط
ليلاً ونهاراً في الشارع ، قريباً من مدخل البناء ، وكان مخبر والشرطة السياسية

يتجولون حول المكان متظاهرين بعدم المبالاة، رغم افتضاح أمرهم من القمصان الرياضية التي يرتدونها، وسترات الجلد المزيف المتفتحة بسبب وجود اسلحتهم تحتها. وعلى الرغم من وجودهم في الخارج، فقد نسب فرانيسكو محاولة الاغتيال إلى المجموعات شبه العسكرية أو إلى الملازم راميرث بالذات، لأنه لو كان هناك أمر رسمي بتصفية إيرين، لدخلوا بكل بساطة ضاربين الأبواب بأقدامهم حتى يصلوا إلى غرفة العمليات ويجهزوا عليها. أما هذه الحراسة المتخفية فتشير إلى أنهم غير قادرين على العمل بشكل مكشوف وانهم يفضلون انتظار اللحظة المناسبة لانجاز عملهم. كان ماريو قد اكتسب خبرة في مثل هذه الشؤون خلال عمله السري، فراح يعد خطة لتهديب إيرين عندما يصبح بإمكانها الوقوف على قدميها.

كانت بياتريس الكانتررا في ذلك الحين تصر على أن المسدس الرشاش الذي كاد يودي بحياة ابنتها، كان موجهاً إلى أشخاص آخرين. وكانت تقول: - تصرفات أوغاد. أرادوا قتل مجرم فأصابت الرصاصات إيرين.

قضت أياماً وهي تتصل بمعارفها لتقص عليهم روايتها للواقعة. لم تكن ترغب في الابقاء على أي شكوك حول ابنتها. وكانت تنقل اليهم اثناء ذلك أخبار زوجها الذي استطاع المخبرون أخيراً، وبعد سنوات من البحث والعذاب أن يحددوا مكانه في هذا العالم الفسيح. فإوسيبوبيلتران، الذي سثم من البيت الكبير، ومن تعنيفات زوجته، ومن لحوم الأغنام وملاحقة دائنيه، خرج في مساء ذلك اليوم، وما ان مشى بضع خطوات حتى أدرك ان سنوات طويلة من الحياة ما زالت أمامه، وأن الوقت لم يفت للبدء من جديد. ومنذ فماً وراء أهواء روحه المغامرة، سافر إلى منطقة الكاريبي باسم مستعار وقليل من المال في جيوبه، وبعقل يغص بالأفكار العظيمة. عاش كعجري لبعض القوت، ومر بأيام خشية فيها أن تلتهمه حمى النسيان. لكن حاسة الشم الدقيقة التي يتمتع بها تجاه الثروة حولته إلى رجل ثري عن طريق الآلة التي ابتكرها لجني محصول جوز الهند. فذلك الجهاز العجيب، الذي لم يكن يتمتع بأدنى حد من العلمية حين صممه،¹

حماسة مليونير محلي . وخلال زمن قصير انتشرت آلات جني جوز الهند في المنطقة كلها، واستطاع بيلتران ان يبيع لنفسه ذلك الترف الماجن الذي كان معتاداً عليه والذي لا يمكن لغير الاثرياء الحصول عليه . كان سعيداً . واتخذ له عشيقة أصغر منه بثلاثين سنة ، سمراء وذات مؤخرة عريضة ، متأهبة دوماً للمتعة وللفرح . - ما زال هذا التعيس زوجي شرعياً . سأنتزع منه حتى الهواء الذي يتنفسه ، فلهذا السبب يوجد محامون جيدون - هذا ما كانت تؤكده بياتريس لصديقاتها وهي مهتمة بالطريقة التي ستقذف بها الففاز في وجه ذلك الخصم السافل ، اكثر من اهتمامها بصحة ابنتها . كانت تشعر بالرضى لاثباتها أن اوسيبوييلتران هو رجل منحط ، ولكنه ليس يسارياً بأي شكل من الأشكال كما حاولت بعض المفتريات أن يشعن .

لم تعلم بياتريس بأحداث البلاد لأنها لم تكن تقرأ في الصحف سوى الأخبار السارة . ولم تكن تعلم انه قد تم التعرف على هوية جثث منجم لوس ريسكوس بدراسة الاسنان وبعض العلامات الفارقة الاخرى ، وان تلك البقايا هي لفلاحين من ابناء المنطقة ، اعتقلهم الملازم راميريث بعد الانقلاب العسكري بقليل ، اضافة إلى جثة ايفانجيلينا رانكيليو ، التي كانت تنسب اليها معجزات صغيرة . تجاهلت الضجة الشعبية التي هزت الأمة رغم الرقابة وانتشرت في جانبي العالم لتضع قضية المفقودين في ظل الدكتاتوريات الاميركية اللاتينية في المقام الأول من جديد . وكانت هي الوحيدة التي ظنت حين سمعت الطرق على الطناجر يدوي في عدة أحياء من المدينة ، انهم يفعلون ذلك تأييداً لعمل العسكريين ، كما في زمن الحكومة السابقة ، وذلك لعجزها عن ادراك قدرة الشعب على استخدام المنهج ذاته ضد مبتدعيه . وحين سمعت أن فريقاً من الحقوقيين يساند عائلات الموتى في الدعوى ضد الملازم راميريث ورجاله بتهمة انتهاك حرمة البيوت ، والاختطاف ، وممارسة العقوبات اللاشعورية والاذلال ، أشارت إلى الكردينال على انه المسؤول عن هذه الفظاعة ، وقالت انه لا بد للبابا من استبداله ، لأن مجال عمل الكنيسة يجب أن يكون الروح وحدها ، وليس الأحداث الدنيوية القذرة .

وعلقت السيدة وهي في المطبخ في ذلك الصباح قائلة:
- إنهم يتهمون هذا الملازم المسكين بالقتل يا روسا، لكن أحداً لا يفكر بأنه
ساعدنا على التحرر من الشيوعية.
- من عمل شراً سيدفع الثمن عاجلاً أم آجلاً - ردت عليها روسا بتصميم
وهي تتأمل أول أزهار اللاتسيني.



قدم الملازم خوان دي ديوس راميريث وعدد من رجال وحدته للقضاء.
وعادت أخبار جرائم لوس ريسكوس تحتل صفحات الجرائد، فللمرة الأولى منذ
الانقلاب العسكري يمثل عناصر من القوات المسلحة أمام قاض. عمت طول
البلاد وعرضها موجة من الشعور بالفرج، وخيل للناس أن شرخاً قد أصاب
المؤسسة المتهاسكة التي تمارس السلطة، وحلموا بنهاية الدكتاتورية. في أثناء ذلك
كان الجنرال يضع بكل وقاحة حجر الأساس لنصب منقذي الوطن، دون أن تظهر
حقيقة نواياه التي يخفيها وراء نظارته السوداء. لم يكن يقبل الرد على أسئلة
الصحفيين الحساسة، ويكتفي بحركة ازدراء إذا ما ورد ذكر القضية بحضوره.
خمس عشرة جثة في منجم لا تستدعي كل هذه الضجة. وحين ظهرت قضايا
أخرى وكشفت مدافن جديدة، وقبور جماعية في المقابر، وأجدات على الدروب،
واكياس على شاطئ البحر قدفتها الأمواج، ورماد، وهياكل عظمية، وأجزاء
بشرية، بل وأجساد أطفال أطلقت رصاصاً بين أعينهم لأنهم رضعوا من أئداء
أمهاتهم العقائد الغربية الهدامة التي تلحق الضرر بالسيادة الوطنية وبأعلى قيم
العائلة، وبحق الملكية والتقاليد، هز الجنرال كتفيه بهدوء، لأن الوطن أولاً ثم
ليحاكمني التاريخ فيما بعد.

- وماذا سنفعل بالمشكلة التي أخذت تتسع يا سيدي الجنرال؟
ورد من حمام الساونا، المشيد في الطابق الثالث تحت الأرض:
- كالعادة أيها الكولونيل.

نُشرت أقوال الملازم في المحكمة تحت عناوين كبيرة، وكانت ذات فائدة لايرين بيلتران، لأنها اعادت اليها فجأة الرغبة في الحياة والنضال.

اعلن رئيس موقع لوس ريسكوس أمام المحكمة أن صاحب مزرعة «لوس اروموس» اتهم عائلة فلوريس بعد الانقلاب العسكري بقتيل بان أفرادها يشكلون خطراً على الأمن الوطني، لارتباطهم باحزاب اليسار. وقال انهم من نشطاء هذه الاحزاب ويخططون لمهاجمة الثكنة، لهذا بادرت إلى اعتقالهم يا صاحب السعادة. ألقيت القبض على خمسة من أفراد هذه الاسرة وعلى تسعة أشخاص آخرين في تهم متنوعة، ابتداء من اقتناء السلاح وحتى تعاطي المارجوانا. وقد اعتمدت في ذلك على قائمة وجدتها بحوزة أنطونيو فلوريس. كما وجدت لديه خريطة للثكنة، وهذا دليل على سوء نواياه. استجوبناهم حسب الاجراءات المتبعة وحصلنا منهم على الاعترافات: تلقوا تدريبات ارهابية على يد عملاء خارجيين تسللوا إلى البلاد عبر الحدود البحرية، ولكنهم عجزوا عن تقديم التفاصيل، وبدت لي اعترافاتهم متناقضة، وأنت تعلم يا صاحب السعادة كيف هم هؤلاء الناس. انتهينا من التحقيق معهم بعد منتصف الليل، فأمرت عندئذ بنقلهم إلى الاستاد الرياضي في العاصمة، وكان يستخدم في ذلك الحين كمعسكر اعتقال. وفي اللحظة الأخيرة، طلب أحد المعتقلين مقابلي، وعلمت منه ان المشبهين قد تورطوا في جريمة اخفاء أسلحة في منجم مهجور. حملتهم في شاحنة وأخذتهم إلى المكان المشار اليه. وحين أصبح الطريق وعراً، نزلنا مع المشبهين وهم مقيدوا الأذرع وتحت حراسة مشددة، وواصلنا السير على الأقدام. ما ان تقدمنا قليلاً في الظلام حتى وقعنا ضحية هجوم مباغت بأسلحة نارية أطلقت علينا من عدة أماكن، فلم أجد مفرأ من اصدار الأوامر إلى رجالنا ليدافعوا عن أنفسهم. لا يمكنني أن أقدم تفاصيل كثيرة لأن الظلام كان دامساً، لكنني أوكد لكم انه جرى تبادل اطلاق نار غزير لعدة دقائق. وبعد ذلك توقفت الرماية وتمكنت من اعادة تنظيم وحدتي. بدأنا البحث عن المعتقلين ونحن نظن انهم قد لاذوا بالفرار، لكننا وجدناهم على الأرض، وكانوا جميعهم ميتين، ومبعثرين هنا

وهناك . ولا أستطيع أن أحدد إذا كانوا قد قتلوا برصاصنا أم برصاص المهاجمين . وبعد أن فكرت بالأمر، قررت أن أفعل ما وجدته صائباً، حتى لا أعرض رجالي وعائلاتهم لاعمال انتقامية . فأخفينا الجثث في المنجم ثم أغلقنا المدخل بالانقاض، بالحجارة والتراب، ولم نقم بأية أعمال بناء، لهذا لا أستطيع أن أقول شيئاً حول هذا الأمر. وبعد أن أغلقنا المنجم، أقسمنا جميعنا على كتمان السر. انني اعترف بمسؤوليتي كقائد للمجموعة، ويجب أن أوضح انه لم تقع اصابات بين من هم تحت أمرتي، باستثناء بعض الخدوش البسيطة من جراء زحفنا في أرض وعرة. أمرت بتفتيش المنطاة المحيطة بحثاً عن المهاجمين، لكننا لم نعرهم على أثر، كما لم نجد أغلفة رصاصات فارغة. اعترف انني قد أسأت إلى الحقيقة حين ذكرت في تقريرتي ان المعتقلين ارسلوا إلى العاصمة، لكنني وكما قلت لكم لم أفعل ذلك إلا لحماية رجالي من انتقام محتمل. لقد مات في تلك الليلة أربعة عشر شخصاً. وقد فوجئت بورود ذكر مواطنة تدعى ايفانجيلينا رانكيليو سانتشيث، لأن المذكورة اعتقلت في ثكنة لوس ريسكوس لبضع ساعات، ثم اطلق سراحها كما هو مثبت في سجل المناوبة. وهذا هو كل ما يمكنني قوله لسعادتكم.

اثارت هذه الرواية في المحكمة ما اثارته لدى الرأي العام من ريبة وعدم تصديق. ووجد القاضي انه يستحيل عليه القبول بها دون ان يتحول إلى اضحوكة، فأعلن انه غير مؤهل للبت في المسألة، وأحال القضية إلى المحكمة العسكرية.

رأت ايرين وهي على سرير النقاهاة ان احتمالات معاينة المذنبين تبتعد، فطلبت من فرانثيسكو ان يذهب في الحال إلى ملجأ «مشيئة الرب». قالت له متوسلة:

- خذ هذه الملاحظة إلى خوسيفينا بيانثشي، فهي تحتفظ لي بشيء مهم، فإذا كان قد نجا من حملة المداهمة ستعطيك إياه.

لكنه رفض تركها وحيدة، وأمام أصرارها أخبرها انها مراقبة. كان قد أخفى عنها الأمر حتى ذلك الحين كي لا يخيفها، ولكنه لاح انها على علم بذلك،

لأنه لم يلمح عليها أية امارات للمفاجأة . كانت ايرين قد هيأت نفسها لاستقبال الموت كاحتمال وشيك ويصعب تفاديه . لكن فرانثيسكو لم يذهب لزيارة العجوز إلا عندما جاء البر وفسور وهيلدا برفقة ممرضة ليحلا مكانه .

رحبت به روسا وهي تتحرك بصعوبة ، لأن ثلاثة أضلاع في صدرها كانت قد تهشمت . وكانت قد هزلت وبدا عليها الارهاق . قادته عبر الحديقة وأشارت إلى الأرض المقلوبة حديثاً حيث دفنت كليو، قريباً من قبر الوليد الذي سقط من فتحة النور .

كانت خوسيفينا بيانثشي متكئة إلى الوسائد في حجرتها وهي ترتدي قيمص نوم واسع الأكمام ، مشغول على مغزل تطريز ، وتصنع دثاراً متقن الصنع على كتفيها ، وشريطاً في عنقها علقت فيه حلية ثلجية . وفي متناول يدها كانت توجد مرآة من الفضة المزخرفة وصينية مترعة بأوان مملوءة بمسحوق الأرز، وفراش من وبر السمور، وكريسات من جميع الأنواع ، ومروحة من ريش البجع ، ودبابيس شعر من عظم السلاحف . لقد كانت تقوم برسم مكياجها ، وهي مهمة حساسة تؤديها منذ أكثر من سبعين عاماً ، دون أن تهملها ولول يوم واحد . كان وجهها يبدو على ضوء الصباح مثل قناع ياباني ، رسمت فيه يد مترددة خط الفم الارجواني . وكانت رموشها ترتعش زرقاء ، وخضراء ، وفضية فوق الوجه المطلي بالمساحيق . لم تتعرف الممثلة العجوز على فرانثيسكو ، فقد كانت غارقة في حلم بعيد ، ربما وسط مسرح قبل رفع الستارة في ليلة افتتاح عرض جديد . ارتعشت حدقتها تائهتين في الماضي وبدأت روحها بالعودة شيئاً فشيئاً الى الحاضر . ابتسمت ، فعاد الشباب الى ملاحظها بظهور صفين من الأسنان الاصطناعية المنتظمة .

لقد تعلم فرانثيسكو خلال شهور صداقته مع ايرين التعرف على خصائص المسنين واكتشف ان الحنان هو المفتاح السري الوحيد للتواصل معهم ، وان التعقل ما هو إلا متاهة يضيعون فيها بسهولة . جلس على حافة السرير وداعب يد خوسيفينا بيانثشي . لم تكن هنالك من جدوى في استعجالها . تذكر الفترة الزاهية من حياتها ، حين كانت صالات المسارح تغص بالمعجبين بها ، وكانت حجرتها في

الكواليس تزدهي بياقات الزهور، حين كانت تجوب القارة في جولات صاحبة
وتحتاج خمسة حمالين ليحملوا أمتعتها ويمزقوها من السفن والقطارات .

- ما الذي جرى يا بني؟ أين النبيل، والقبلات، والمرح؟ أين الرجال الذين
أحبوني؟ وأين الجموع التي صفقت لي؟
- كل شيء هنا، في ذاكرتك ياخوسيفينا .

- انني عجوز، لكنني لست معتوهة . وأنا أدرك أنني وحيدة . رأيت حقيبة آلة
التصوير فأرادت أن تتخذ وضعاً لالتقاط صورة تبقى كذكرى منها حين تموت .
تزينت بعقود ألماس زائفة، وشرائط مخملية، وطرحه ذات لون خبازي، وحملت
مروحتها الريشية ورسمت على وجهها ابتسامة من عصر آخر . واتخذت وضعية
للصورة، وبقيت مستعدة لذلك بضع لحظات، لكنها مالبت أن تعبت بسرعة،
فأغمضت عينيها واتكأت ثانية وقد اضطرب تنفسها .

- متى سترجع إيرين؟
- لست أدري . لقد بعثت إليك بهذه الملاحظة . تقول انك تحبين لها شيئاً .
تناولت العجوز الورقة بين أصابعها وشدتها الى صدرها دون أن تقرأها .
- أنت زوج إيرين؟

فرد فرانثيسكو:

- لا، أنا حبيبها .

- لحسن الحظ! يمكنني أن أقول لك اذن إيرين مثل عصفور، لا جلد لها
على الثبات .

ضحك فرانثيسكو:

- أنا لذي ما يكفي لي ولها .

وافقت على تسليمه ثلاثة أشرطة تسجيل كانت تحبها في حقيبة رقص
مطرزة بالخرز . لم تستطع إيرين أن تجد يوماً تبريراً لائتمانها الممثلة على تلك
الشرطة، وكان السبب الوحيد الذي دفعها الى عمل ذلك هو لفتة كرم نحو المرأة
العجوز . لأنها لم تكن تعلم انهم سيحاولون قتلها وسيداهمون بيتها ومكتبها بحثاً

عن الاشرطة، ولكنها كانت تترك قيمة هذه الاشرطة بوضوح. ولقد اعطتها للعجوز لتجعلها تشارك في شيء لم يكن قد تحول إلى سر بعد، مانحة بذلك معنى جديداً لحياة الممثلة. كانت لفظة عفوية مثل تلك اللفظة الكثيرة التي تقدمها الى نزلاء «مشيئة الرب»، من الاحتفال بأعياد ميلاد لا وجود لها، وتنظيم الألعاب، وابتداع العروض المسرحية، إلى تقديم الهدايا وكتابة الرسائل باسم أقرباء وهميين. لقد زارت خوسيفينا بيانثشي في احدى الليالي ووجدتها حزينة، تدمدم انها تفضل الموت، لأنها لا تملك الحب وليس هناك من هو بحاجة اليها. كانت صحتها قد تدهورت خلال الشتاء الاخير، وحين رأت نفسها هرمة ومستنزفة، صارت تعاني حالات من الانقباض، رغم انها لم تفقد الاتزان أو الذاكرة. وأرادت ايرين أن تقدم لها ما يحرف اهتمامها عن الوحدة ويشدها الى اهتمامات اخرى، ولهذا اعطتها الاشرطة ونبهتها الى أهميتها وطلبت منها أن تحببها. وقد فتنت هذه المهمة السيدة العجوز، فمسحت دموعها ووعدت بالبقاء حية ومعافاة لمساعدتها، وهي تظن أنها تصون سرّاً غرامياً. وهكذا، فإن الأمر الذي بدأ مجرد لعبة، انتهى الى اداء فائدة عظيمة. فلم تنجُ الاشرطة من فضول بياتريس الكانتر و حسب، بل ومن التفتيش البوليسي كذلك.

قالت خوسيفينا بيانثشي لفرانثيسكو:

- قل لايرين أن تأتي. لقد وعدت أن تساعدني في ساعة موتي.
- لم تحن هذه الساعة بعد. أمامك عمر طويل تعيشينه، فأنت مازلت معافاة وقوية.

- اسمع أيها الشاب، لقد عشت حياتي كسيدة وأريد أن أموت كسيدة.

أشعر أنني متعبة، وأريد ايرين.

- لا تستطيع المجيء الآن.

- السوء في الشيخوخة أن أحداً لا يحترمنا. يعاملوننا كما لو كنا أطفالاً

لجوجين. لقد عشت حياتي على طريقي وكما أشتهي، دون أن ينقصني أي

شيء، فلماذا تمنع عني مينة نظيفة؟

قبل فرانثيسكو يديها بحنان واحترام . ولدى خروجه رأى النزلاء في الحديقة تحت مراقبة المشرفات، مقعدين متوحدين في كراسيهم ذات العجلات، ومتدثرين بشالاتهم الصوفية وممتلكاتهم البائسة، صمًا، وشبه عميان، محنطين، أشباه أحياء يعيشون بعيداً عن الحاضر والواقع . كان الكولونيل، بميدالياته الصفيحية المتدلّية على صدره يحكي كعادته العلم الوطني الخفاق الذي لا يظهر إلا لعينيه . وكانت أفقر أرملة في المملكة تشد إلى حضنها علبة معدنية تضم بعض الكنوز البائسة . وكان المفلوج ينتظر البريد بحكم العادة، رغم ادراكه في أعماق نفسه ومنذ البداية ان إيرين هي التي تخترع له الردود لتسعده، فيما هو يتكلف تصديق أكاذيبها المشفقة حتى لا يغبنها . وحين توقفت عن المجيء إلى «مشيئة الرب»، لم يبق لديه ما يحلم به . وأوقف عجوز آخر فرانثيسكو عند الباب .

- اسمع أيها الشاب، حيث انهم يجدون قبوراً الآن، أتظن ان ابني وكنتي والصغير سيظهرون أيضاً؟

لم يعرف فرانثيسكو ليال بماذا يجيب، وخرج هارباً من عالم الأجداد المؤثر ذلك .



الاشرطة التي سجلتها إيرين بيلتران كانت تضم أحاديثها مع ديغنا وبراديليو رانكيليو، ومع الرقيب فاوستينو ريفيرا وايفانجيلينا فلوريس .
قالت لفرانثيسكو:

- خذها إلى الكردينال ليستخدمها في محاكمة الشرطيين .
- لكن صوتك فيها يا إيرين . إذا تعرفوا عليه فسيكون بمثابة الحكم عليك بالموت .

- سيقتلونني في كل الأحوال إذا استطاعوا . عليك أن تسلمها .
- عليّ أن أنقلك إلى مكان آمن قبل ذلك .
- استدع ماريو اذن، لأنني سأخرج من هنا مساء هذا اليوم بالذات .

عند المساء جاء خبير المكياج حاملاً حقيبته الشهيرة التي يستخدم محتوياتها في تغيير الشخصيات، فحبس نفسه معهما في غرفة المشفى، حيث قام بقص شعريهما وتغيير لونه، وتعديل قوس حواجبيهما، واختبار نظارات مناسبة، ومكياج وشوارب وجميع حيل مهنته، إلى أن جعل منهما كائنين مختلفين. نظر كل من الشابين إلى الآخر مذهولاً، ولم يتعرفا على بعضهما بعضاً تحت هذه الأقنعة، وابتسما غير مصدقين. فهذا المظهر الجديد سترتب عليهما أن يتعلما كيف يجب أحدهما الآخر منذ البداية.

سألها ماريو:

- هل يمكنك السير يا إيرين؟

- لست أدري.

- عليك أن تفعلي ذلك دون مساعدة. هيا بنا يا صغيرتي، قفي على

قدميك..

نزلت إيرين عن السرير متمهلة دون أن تقبل الاستناد إلى يد صديقها. نزع ماريو عنها قميص النوم، وأخذ صرخة كادت تفلت منه وهو يرى بطنها المغطى بالضمادات ويقع المظهر الحمراء التي على الصدر والفخذين. أخرج من حقيبته العجيبة حشوة من الاسفنج ليجعلها تظهر كحبل، فثبتها بالكتفين وما بين الساقين، لأنها ما كانت لتحتمل ربطها حول خصرها. ثم ألبسها في الحال فستان حمل وردي اللون، وأنعلها صندلاً بلا كعب وودعها بقبلة متمنياً لها حظاً سعيداً.

خرجت إيرين من المشفى بعد ذلك بقليل برفقة فرانيسكو دون ان يثيرا اهتمام العاملين الذين قدموا اليهما الخدمات خلال الوقت الفائت، ومرا أمام السيارة ذات الزجاج القاتم المتوقفة في الشارع، وسارا متمهلين حتى الناصية، وهناك صعدا إلى سيارة الحلاق.

قرر ماريو:

- ستختبان في بيتي إلى أن تتمكننا من السفر.

قادهما إلى شقته، وفتح الباب الذي من برونز وزجاج، أبعدهرر الأنقرة من طريقهما، وأمر الكلب ان يستلقي في أحد الأركان ثم انحنى مازحاً ليرحب بهما، لكنه لم يتمكن من انهاء حركة الترحيب تلك لأن ايرين انهارت على السجادة دون نفس. حملها فرانثيسكو بين ذراعيه ولحق مضيفه إلى الغرفة التي خصصها لهما، حيث احتضن المريضة سرير عريض مغطى بشراشف قطنية فاخرة.

قال فرانثيسكو متأثراً:

- انك تجازف بحياتك من أجلنا.

فرد ماريو وهو يخرج:

- ساعد القهوة، فنحن جميعنا بحاجة اليها.

أمضت ايرين عدة أيام وهي تسترد قواها في هذا الجو النقي والهاديء، حيث كان فرانثيسكو وماريو يتناوبان العناية بها. حاول صاحب البيت تسليتها بالمطالعة الخفيفة، وبالعاب الورق، وبرواية النوادر الكثيرة التي جمعها خلال حياته، وسرد لها حكايات صالون التجميل، وغرامياته، ورحلاته وعذباته حين كان مجرد الابن الضال لعامل منجم. وحين لاحظ أنها تحب الحيوانات، نقل الكلب الأسود الضخم والقطط إلى حجرتها، وكان يغير موضوع الحديث إذا ما سألت عن كليو، لأنه لم يكن راغباً في اطلاعها على نهايته الحزينة. طهى لصديقه وجبات مرضى، وسهر على نومها وساعد فرانثيسكو في علاجها. أغلق نوافذ شقته، وأسدل الستائر السمكية، واستبعد الجرائد وأطفأ التلفزيون كي لا تقلقها فوضى ما يحدث في الخارج. فإذا ما عوت صفارات عربات الشرطة، أو مرت طائرات الهليكوبتر وهي تتزّ مثل طيور خرافية، أو دوى في البعيد الطرق على الطناجر أو قعقة البنادق الرشاشة، كان يرفع صوت الموسيقى كي لا تسمع شيئاً من ذلك. وكان يذيب المسكنات في حسائنها ليجبرها على الراحة، ويمتنع في حضورها عن ذكر الأحداث التي كانت تزعزع أمن الدكتاتورية.

وكان ماريو هو الذي حمل إلى بياتريس الكانترا خبر مغادرة ابنتها المشفى.

كان ينوي ان يوضح لها ضرورة اخراجها من البلاد لانقاذ حياتها، لكنه لاحظ منذ العبارة الأولى عجزها عن احتمال الوضع . فقد كانت السيدة تسكن عالماً وهمياً حيث كل هذه النكبات ملغاة بمرسوم . ففضل أن يقول لها ان ايرين وفرانيسكو قد سافرا لقضاء اجازة قصيرة، وهي رواية لا يمكن تصديقها، نظراً لحالة الفتاة الصحية، لكن الأم اقتنعت بها لأن أي ذريعة كانت مفيدة لها . تأملها ماريودون شفقة وهو يتميز غيظاً أمام تلك المرأة الانانية اللامبالية ، المختبئة وراء طلاوة من الشعائر والصيغ الجاهزة، في هذا الصالون المحكم الذي لا تصله همسات التبرم . نصورها منساقفة فوق طوف مع شيوخها المسنين والمقعدين في بحر ساكن . فقد كانت بياتريس مثل اولئك الشيوخ، تعيش خارج الواقع، لأنها فقدت مكانها في هذا العالم . وكان يمكن لأمنها الواهن ان ينهار في لحظة واحدة، هبية من اعصار الازمنة الجديدة الغاضب . كانت الصورة في ذهنها مغلفة بالحرير وجلود الغزلان، فخرج من عندها دون كلمة وداع .

كانت روسا واقفة في الخارج، تنصت للحديث كعادتها من وراء الباب . فأشارت اليه ان يتبعها إلى المطبخ :

- ماذا جرى لصغيرتي ؟ أين هي ؟

- انها في خطر . علينا مساعدتها للخروج من هنا .

- إلى المنفى ؟

- نعم .

- ليحفظها الله لي وبحميها ! هل سأتمكن من رؤيتها يوماً ؟

- حين تسقط هذه الدكتاتوربة، ترجع ايرين .

فتوسلت روسا وهي تسلمه لفافة صغيرة :

- أعطها هذه، انه تراب من حديقته، ليكون معها اينما ذهبت . وأرجوك

ان تقول لها ان نبتة اللاتسيني قد أزهرت . . .



رافق خوسيه ليال ايفانخيلينا فلوريس للتعرف على رفات أبيها واخوتها . كانت ايرين قد حدثته عنها وطلبت منه مساعدتها ، لثقتها من أن الفتاة ستحتاج لمساعدته ، وهذا ما فعله . كانوا قد أفرغوا محتويات الأكياس الصفراء على طاولتين خشبيتين كبيرتين في فناء مديرية المباحث : ثياب مهترئة ، قطع عظام ، خصل شعر ، مفتاح صديء ، مشط . ذرعت ايفانخيلينا ذلك المعرض الرهيب ببطء ، مشيرة بصمت إلى كل شيء تعرفت اليه : هذه الكنزة الزرقاء ، هذا الحذاء الممزق ، هذا الرأس ذو الاسنان القليلة . مرت ثلاث مرات أمام الطاولتين وهي تتأمل بدقة ، إلى أن وجدت شيئاً ما من كل واحد من موتاها وأثبتت ان الخمسة موجودون هناك ، لا ينقص منهم أحد . ولم يش بالجهد الرهيب الذي كانت تبذله في كل خطوة سوى العرق الذي بلل بلوزتها . كان الراهب يمشي إلى جانبها دون ان يمسه ، كما كان معها موظفان من المحكمة يسجلان الملاحظات . واخيراً قرأت الفتاة التصريح الذي كتباه ووقعت عليه بيد ثابتة وخرجت من هناك بخطوات واسعة ، ورأس مرفوع . حين أصبحت في الشارع ، وبعد ان سمعت صوت اغلاق الباب وراها ، استعادت للحظات قصيرة مظهر الطفلة الريفية . فاحتضنها خوسيه ليال ، وقال لها :

- ابك يا صغيرتي ، فهذا يريحك .

فردت وهي تنفض الدموع بحركة من يدها وتواصل السير مسرعة :

- سأبكي فيما بعد يا أبتاه . لدي عمل كثير الآن .

بعد يومين من ذلك استدعيت للمثول أمام المحكمة العسكرية لتقدم شهادتها حول القتلى المزعومين . جاءت بملابس العمل وهي تضع شريطاً أسود على ذراعها ، وهونفس الشريط الذي استخدمته يوم فتحوا منجم لوس ريسكوس ورأت ان وقت الحداد قد حان . كانت المحكمة سرية ، فلم يسمحوا لأمها ولا لخوسيه ليال ولا لمحامي المطرانية المكلف من الكردينال بمرافقتها ، قادهما جندي عبر ممر عريض يتردد وقع الخطى فيه بصوت كصوت الجرس ، حتى وصلت إلى قاعة المحكمة . كانت القاعة عبارة عن صالة فسيحة شديدة

الاضاءة، وليس فيها من زينة سوى علم وصورة ملونة للجنرال وعلى صدره وشاح الرؤساء.

تقدمت ايضاخيلينا دون خوف إلى ان وقفت أمام منصة الضباط العالية. وتطلعت اليهم واحداً واحداً محدقة في عيونهم مباشرة ثم روت لهم بصوت واضح القصة التي روتها لايرين بيلتران من قبل، دون ان تتمكن تلميحات التخويف من اجبارها على تعديل روايتها. أشارت دون تردد إلى الملازم خوان دي ديوس راميريث وإلى كل رجل شارك في اعتقال أفراد اسرتها، لأنها كانت تحمل صورهم مطبوعة في ذاكرتها بالنار خلال السنوات الماضية.

قال لها ضابط برتبة كولونيل:

- يمكنك ان تنصرفي الآن أيتها المواطنة. لكنك ستبقين تحت تصرف هذه المحكمة. لا تغادري المدينة.

قادها الجندي نفسه إلى المخرج. وكان خوسيه ليال ينتظرها في الخارج فانطلقا يسيران معاً في الشارع. انتبه الكاهن إلى أن هناك سيارة تلاحقهما، ولأنه كان مستعداً لمثل هذا الاحتمال، فقد أمسك الفتاة من ذراعها وركض وهو يدفعها معه ويشدها ليختلط بالجموع. بحث عن ملجأ في أول كنيسة صادفها في طريقه واتصل من هناك بالكردينال.

انقذت ايضاخيلينا فلوريس من مخالب القمع وأخرجت إلى خارج البلاد في ظلال الليل. كانت لها مهمة لا بد من انجازها. وقد نسيت خلال السنوات التالية الريف الهادئ الذي ولدت فيه، لتجوب العالم مشهورة بما يتعرض له وطنها من مأس. مثلت أمام جمعية الأمم المتحدة، وفي مؤتمرات صحفية، وفي ندوات تلفزيونية، ومؤتمرات، وجامعات، وفي كل مكان لتتكلم عن المفقودين ولتحول دون أن يمحو النسيان أولئك الرجال والنساء والأطفال الذين ابتلعهم العنف.

حين تم التعرف على جثث لوس ريسكوس، التمس ذووهم استعادتهم لدفنهم بشكل لائق، لكن طلبهم رفض خوفاً من البلبلة العامة، ولأن الحكومة لم تكن راغبة في مزيد من الفوضى، عندئذ دخل أقرباء هؤلاء الضحايا وغيرهم ممن

عُثر عليهم في قبور سرية اخرى، دخلوا إلى الكتدرائية واعتصموا أمام المذبح الكبير وأعلنوا اضرباً عن الطعام منذ تلك اللحظة وإلى ان يستجاب طلبهم . لقد تخلصوا من الخوف وخاطروا دون تردد بحياتهم ، وهي الشيء الوحيد الذي تبقى لهم بعد ان خسروا كل شيء .

- ما الذي تعنيه هذه الفوضى أيها الكولونيل؟
- انهم يسألون عن مفتودهم يا سيدي الجنرال .
- قل لهم انهم ليسوا أحياء ولا أموات .
- وماذا تفعل بالمضربين عن الطعام يا سيدي الجنرال؟
- كالعادة أيها الكولونيل، ولا تزعجني بالصغائر.

حاولت الشرطة اخراج المعتصمين من المعبد بخراطيم المياه والغازات المسيلة للدموع، لكن الكردينال وقف أمام الباب مع أشخاص اخرين كانوا يشاركون في حملة التضامن، فيما مراقبو الصليب الأحمر، ولجنة حقوق الانسان والصحافة العالمية يلتقطون صوراً للمشهد . بعد ثلاثة أيام لم يعد ضبط الوضع ممكناً، واخترق صحب الشارع جدران الملجأ الرئاسي ، فأمر الجنرال مكرها باعادة رفات الموتى . ولكن في اللحظة الأخيرة، وحين كانت عائلات الضحايا تنتظر حاملة آكاليل الزهور والشموع المضاءة، انحرفت سيارات المآتم عن الطريق بناء على أوامر عليا، ودخلت خفية من البوابة الخلفية للمقبرة وأفرغت الأكياس في قبر جماعي . أما جثة ايفانخيلينا رانكيليو سانتشيث، التي كانت ما تزال في مستودع الجثث لاجراء التشريح عليها، فقد سلمت إلى ابويها . حملها إلى خورانية الأب تيريلو، حيث حصلت على ضريح متواضع . لكنه كان قبراً على أية حال، لم تنقصه الزهور الطازجة أبداً، لأن فلاحي المنطقة كانوا يؤمنون بمعجزاتها الصغيرة .

تحول منجم لوس ريسكوس إلى مكان للحج . وذهبت اليه أرتال لا نهائية من الناس في مهرجان شعبي يتقدمه خوسيه ليال . جاؤوا مشياً على الأقدام وهم يرتلون الصلوات ويرددون شعارات التمرد، ويحملون الصلبان، والمشاعل وصور

موتاهم . فأقام الجيش في اليوم التالي سياجاً عالياً من الأسلاك الشائكة وبوابة حديدية ، لكن الاسلاك الشائكة والجنود الذين أقاموا مراضٍ مدافعهم الرشاشة لم يستطيعوا منع تدفق الموابك . حينئذ استخدموا المتفجرات لمحو المنجم من الأرض ، محاولين بذلك محوه من التاريخ أيضاً .

سلم فرانثيسكو وخوسيه ليال تسجيلات ايرين إلى الكردينال . كانا يعلمان انها ستصل إلى يد المحكمة العسكرية ، وسيتم التعرف على صوت الفتاة واعتقالها . ولهذا كان عليهما ان ينقلها إلى مكان آمن بأسرع ما يمكن .

سألها رئيس المطرانية :

- كم يوماً يلزمها لتهرب .

- اسبوع ، إلى ان تتمكن من السير دون مساعدة .

اتفقوا على ذلك ، وقام الكردينال بتسجيل عدة نسخ من الأشرطة ، وبعد سبعة أيام وزع النسخ على الصحافة وسلم النسخة الأصلية إلى النائب العام . وحين أرادوا اتلاف الأدلة ، كان الوقت قد فات ، لأن المقابلات ظهرت منشورة في الصحف وراحت تجوب العالم ، مثيرة موجة من الاستنكار العام . أصبح اسم الجنرال اضحوكة في الخارج وصار سفراؤه يقابلون بوابل من البندورة والبيض الفاسد كلما ظهروا في مكان عام . فلم تجد العدالة العسكرية ، أمام هذه الضجة المتحدية ، مفرأً من ادانة الملازم خوان دي ديوس راميريث ومن شارك من رجاله في المذبحة بتهمة القتل ، استناداً إلى شهادتهم المتناقضة ، وإلى الأدلة المخبرية التي حددت طريقة القتل كما جرى في الواقع ، وإلى تسجيلات ايرين بيلتران . واستدعيت الصحفية للشهادة عدة مرات وبحثت عنها الشرطة السياسية ، لكنهم لم يتمكنوا من العثور عليها .

لم يستمر الشعور بالرضى الذي أثاره الحكم إلا بضع ساعات ، حيث اطلق سراح المذنبين بناء على مرسوم عفوصدر في اللحظة الأخيرة . فترجم الغضب الشعبي في مظاهرات صاحبة في الشوارع ، لم تتمكن فرق الشرطة الصدامية ولا معدات الجيش الحربية من السيطرة على الناس الذين تدفقوا إلى الشوارع .

وأمام مشروع نصب «منقذي الوطن»، أفلت الشعب خنزيراً ضخماً مزيناً بشرائط ملونة وشاحاً ثلاثياً وعباءة ومراسم وقبعة جنرال. ركض الحيوان مذعوراً وسط الحشود التي راحت تبصق عليه وتركله وتشتهم أمام عيون رجال الشرطة المغتاضين الذين استخدموا كل براعتهم لمحاصرة الخنزير وانتزاع الرموز المقدسة التي اهينت ثم انتهوا أخيراً إلى قتله بالرصاص وسط الصراخ والعصي ولعلعة الصفارات. ولم يبق من الحيوان إلا جثته الضخمة المهانة في بركة من الدم الأسود تتمرغ فيها شعاراته وقبعته وعباءته كطاغية.

رُفِعَ الملازم راميريث إلى رتبة نقيب. وراح يتجول مطمئناً ومرتاح الضمير في كل مكان، إلى أن علم أن مارداً يلبس الاسمالي ويهيم على وجهه في دروب الجنوب، جائعاً وزائغ العينين، يبحث عن قاتل اخته. لم يتلفت إليه أحد، وقالوا إنه معتوه. لكن الضابط كان يعرف النار المسلط فوق رأسه، ففقد راحة النوم، وأدرك أنه لن يجد السلام ما دام براديلور انكيليو على قيد الحياة.

في حامية من جاميات الأقاليم، بعيداً عن العاصمة، كان غوستافو مورانتي يضع مخططاته موضع التنفيذ. فحين حصل على كل الأدلة حول عدم شرعية النظام، بدأ التحرك سراً بين رفاقه في السلاح. كان قد فقد أحلامه، واقتنع أن الدكتاتورية ليست بالمرحلة المؤقتة على طريق التطور، وإنما هي المرحلة الأخيرة في طريق الظلم. لم يعد قادراً على احتمال آلة القمع التي يخدمها بولاء وهو يفكر بمصالح الوطن. فالرعب لم يؤد إلى فرض النظام كما لقنوه في دورات الضباط، بل زرع حقدًا لن يتكون حصيلته إلا مزيداً من العنف. ومنحته سنوات خدمته العسكرية معرفة عميقة بالمؤسسة، فقرر استخدامها للإطاحة بالجنرال. رأى أن هذه المهمة تقع على عاتق الضباط الشباب، وأمن أنه ليس وحيداً في حمل هذه المشاعر، فالفشل الاقتصادي، والتفاوت الاجتماعي الصارخ، ووحشية النظام وفساد ذوي الرتب العالية، تدفع عسكريين آخرين إلى التأمل والتفكير. كان موقناً بوجود آخرين مثله، راغبين في غسل صورة القوات المسلحة وإخراجها من الهوة التي حُشرت فيها. لو أن رجلاً آخر، أقل جرأة وحماسة، حمل مثل هذه

الأفكار، فربما كان سيتوصل إلى تحقيق أهدافه، لكن مورانتي كان متسرعاً في استجابته لدوافع قلبه، فاقترب خطيئةً تحريض جهاز المخابرات، الذي كان يعرف مفاصله جيداً، فاعتقل وبقي على قيد الحياة لمدة اثنتين وسبعين ساعة فقط، لم يستطع أمهر الخبراء خلالها إجباره على الكشف عن أسماء متورطين آخرين في حركة التمرد. فجردوه من رتبته العسكرية وأعدموه اعداماً رمزياً باطلاق الرصاص على ظهره عند الفجر، جزاء له. وعلى الرغم من جميع الاحتياطات، تسربت القصة. وحين علم فرانثيسكو ليال بما حدث، تذكر عريس المنية باحترام. وقال معلقاً: إذا كان يوجد في القوات المسلحة رجال من هذا الطراز، فما زال هناك أمل. ولن يتمكنوا من السيطرة على الانتفاضة دوماً، لأنها ستكبر وتتعاظم في الثكنات، إلى أن يعجز الرصاص عن سحقها. حينئذ سيلتحم الجنود بالناس في الشارع، ومن الألم والعنف الذي تجاوز الحدود، سينبعث وطن جديد. فرد عليه البروفسور ليال:

- أنت تحلم يا بني! فحتى لو وجد عسكريون مثل مورانتي هذا، إلا أن جوهر القوات المسلحة لن يتبدل فالعسكريتارية تسببت في شرور فظيعة للإنسانية، ولا بد من الغائها.



اخيراً أصبحت ايرين بيلتران في حالة تسمح لها بالحركة. حصل خوسيه ليال على جوازي سفر مزيقين، لها ولفرانثيسكو، ألصقت عليها صورة كل منهما بوجهه الجديد. لم يكن التعرف عليهما ممكناً. فقد صار شعرها قصيراً ومصبوغاً، وعلى وجهها نظارة تبدل من لون حدقتها. فيما صار هوبشارب كث ونظارة. تأملا نفسيهما أول الأمر جاهدين في التعرف أحدهما على الآخر، لكنها ما لبثا أن اعتادا على هذا التنكر ونسيا وجهيهما اللذين أحبا بعضهما بهما. وفاجأ فرانثيسكو نفسه وهو يحاول أن يتذكر لون شعر ايرين الذي طالما فتنه. لقد أزقت اللحظة التي

عليها فيها مغادرة عالمها المعروف والالتحاق بموجة المشردين الهائلة التي عرفها عصرهم : المبعدين، المهاجرين، المنفيين، اللاجئين .

عشية الرحيل، ذهب آل ليال لوداع الفارين . فحبس ماريو نفسه في المطبخ ليعد العشاء، دون ان يسمح لأحد بمساعدته . ثم زين المائدة بأزهار وفواكه، بعد ان وضع عليها أفضل شرشف لديه، مبدئياً استعداداً بذلك للتخفيف من وطأة المأساة التي تلف الجميع . اختار موسيقى هادئة، وأضاء شموعاً، وراح يبرد النبيذ، متصنعاً بهجة كان بعيداً جداً عن الاحساس بها . ومع ذلك، فقد كان مستحيلاً تفادي موضوع الفراق الوشيك والمخاطر التي تترصد للشابين ما ان يضعا أقدامهما خارج هذا المخبأ .

قالت هيلدا ليال :

بعد ان تجتازا الحدود يا ابني، اظن انه عليكما الذهاب إلى بيتنا في

ترويل .

وذهل الجميع، لأنهم كانوا يظنون ان هذه الذكرى هي واحدة من الذكريات التي محاهها فقدان الذاكرة من ذهنها .

لكنها لم تكن قد نسيت أي شيء . حدثتهم عن ظل جبل الباراثين الهائل وهو يبدو مبتوراً في الشفق مثل هذه الجبال التي يمتد عند سفحها الوطن الذي تبنها؛ وعن الكروم الجرداء الخزينة الملتوية في الشتاء وهي تجمع الرحيق لتتفجر أعناباً في الصيف؛ عن تلك الطبيعة الجافة والوعرة المحاطة بالجبال، وعن البيت الذي هجرته يوماً لتلحق برجلها إلى الحرب، بيت مهيب وبدائي مبني من الأحجار والخشب والقرميد، ذي نوافذ ضيقة مزودة بقضبان حديدية، ومدخنة شاهقة فيها أطباق من الخزف مغروسة في البناء وكأنها عيون تراقب عبر السنين .

كانت تذكر بدقة رائحة الحطب لدى اضرام النار في المساء، وشذى الياسمين والنعنع تحت النافذة، وبرودة ماء البئر، وصندوق البياضات، وحرامات الصوف على الأسرة . وساد بعد استحضارها للذكرياتها صمت طويل، بدا كما لو أن

روحها قد انتقلت خلاله إلى بيتها القديم . ثم قالت أخيراً ، متجاوزة بكلماتها كل الزمن الذي انقضى وكل هذا البعد :

- البيت ما يزال ملكاً لنا . وهو ينتظركما .

فكر فرانتيسكو بأهواء القدر الذي أجبر والديه على هجر موطن ميلادهما والخروج إلى المنفى ، ربما ليعيده اليه بعد سنوات طويلة للسبب ذاته . تخيل نفسه يفتح الباب بحركة مماثلة لحركة أمه حين أقفلته منذ نصف قرن ، فأحس انه إنما كان يسير في حلقة طوال هذا الزمان . وأدرك أبوه ما يجول في ذهنه فتحدث عما عناه لهما هجر أرضهما والبحث عن آفاق أخرى ؛ وكيف انهما احتاجا الشجاعة لمواجهة الآلام ، والسقوط ، واستنهاض قوى الروح من أجل الوقوف مرة وألف مرة ، والاعتیاد على العيش بين الغرباء . لقد صمدوا ثابتين وراسخين أينما حلوا ، حتى ولو كان ذلك للبقاء اسبوعاً واحداً أو شهراً ، لأنه لا شيء يستنزف الصلابة الداخلية مثل احساس المرء بانه غاير .

- ليكن الحاضر وحده معكما . لا تضيعا جهودكما في البكاء على الأمل أو الحلم بالغد . فالحنين يستنزف ويُفني ، انه خواء المنفيين . ظليكما ان تستقرا وكانكما ستبقيان إلى الأبد ، ولا بد لكما من الاحساس بالاستقرار . هكذا انهى البروفسور ليال حديثه ، فتذكر ابنه انه قد سمع الكلمات ذاتها من فم الممثلة العجوز .

قاد البروفسور فرانتيسكو جانباً . كان متأثراً ، فعانقه وهو يرتعش وعيناه حزيتان . ثم أخرج من جيبه شيئاً صغيراً وقدمه اليه بارتباك : كانت تلك هي المسطرة الحسابية ، الكنز الوحيد الذي يرمز إلى ألم هذا الفراق وصعوبته . وقال بصوت أجش :

- انها مجرد تذكار يا بني . لا نفع فيها لحساب الحياة .

لقد كان يحس ذلك فعلاً . فبعد مشوار حياته الطويل ، أدرك عدم جدوى الحسابات . إذ لم يخطر بباله يوماً أن يجد نفسه متعباً وحزيناً فيما أحد أبنائه في القبر ، وآخر في المنفى ، وأحفاده بعيدون عنه في قرية مشيية ، وخوسيه ، الوحيد

القريب منه، تهدده الشرطة السياسية. تذكر فرانثيسكو شيوخ «مشيئة الرب»
فانحنى ليقبل جبهته، متمنياً بقوة ان يتمكن من ثني اهواء القدر كي لا يموت ابواه
وحيدين.

حين لاحظ ماريو انهيار المعنويات، قرر تقديم العشاء. فوقفوا حول
المائدة، عيونهم مغمضلة وأيديهم متشججة، ورفعوا الكؤوس معاً حين قال
البرفسور ليال:

- نخب ايرين وفرانثيسكو. وليرافكما الحظ يا ابني.

وأضافت هيلدا دون أن تنظر اليهما، حتى لا يظهر حزنها:

- وأنا أضيف: نخب ازدياد حيكما يوماً بعد يوم.

حاولوا جاهدين للحظات الظهور بمظهر المحتفلين، فأطروا على الأطعمة
اللذيذة وشكروا لطف هذا الصديق النبيل، لكن القنوط ما لبث ان خيم مثل
ظل، واكتنفهم جميعاً. ولم يعد يُسمع في صالة الطعام سوى صوت الملاعق
والزجاج.

كانت هيلدا تجلس إلى جوار ابنها الحبيب، تتأمله بعينها، وترسم في
ذاكرتها وإلى الأبد ملامح وجهه، وتعابير نظرتة، والتجاعيد الخفيفة حول عينيه،
وشكل يديه الطويلتين والصلبتين. كانت تمسك الشوكة والسكين بين أصابعها،
لكن طبقها ما يزال على حاله. كانت صلبة في ألمها، وقادرة على كبح دموعها،
لكنها لم تستطع اخفاء كابتها. أحاط فرانثيسكو كتفي أمه بذراعه وقبل صدغها وهو
متأثر مثلها. فهمست هيلدا في اذنه:

- إذا أصابك مكروه يا بني فلن أقدر على الاحتمال.

- لن يحدث أي مكروه يا أماه، اطمثني.

- ومتى سنلتقي ثانية؟

- قريباً، إنني واثق. وحتى ذلك الحين سنكون معاً بأرواحنا. مثلما كنا على

الدوام.

انتهى العشاء بهدوء. وانتقلوا للجلوس في الصالة حيث راحوا ينظرون إلى

بعضهم بعضاً، ويتسمون دون سعادة، إلى أن اقترب موعد حظر التجول مشيراً إلى لحظة الوداع. قادهما فرانثيسكو حتى الباب. كان الشارع في تلك الساعة مقفراً وساكناً، والأبواب موصدة، وليس هناك من نور يشع من النوافذ المجاورة، فكانت أصواتهم وخطاهم تشير صدى أصمّ يتردد يمثل نذير شؤم في هذا الجو المقفر. كان على الوالدين ان يسرعا ليصلا إلى بيتهما في الوقت المناسب. تبادلوا العناق للمرة الأخيرة وهم متوترون وصامتون. اتحد الأب وابنه في عناق طويل وقوي، ملئ بوعود وتنبهات بكاء. ثم أحس فرانثيسكو بأمه بين ذراعيه، كانت ضئيلة وهشة، وجهها الذهبي ضائع في صدره، ففاض الدمع حينئذ، وأمسكت يداها النحيلتان بقماش سترته، وتشبثت به مثل طفل يائس، فأبعدها خو سيه واجبرها على الدوران والسير دون النظر إلى الخلف. رأى فرانثيسكو شبحي والديه المترددين والمحطمين والمنكمشين يبتعدان في الشارع المقفر. فيما بداه له شبح اخيه متماسكاً وصلباً، شبح رجل يعرف المخاطر التي تتهدده ويرضى بمصيره. وحين اختفوا عند المنعطف، انطلق من صدره نحيب وداع وفاضت إلى عينيه كل الدموع التي حبسها طوال تلك الليلة الرهيبة. انهار عند عتبة الباب ووجهه بين كفيه، تهزه أعمق مشاعر الحزن. وهناك وجدته ايرين، وجلست إلى جانبه صامتة.



لم يهتم فرانثيسكو ليال يوماً في احصاء عدد التعساء الذين مدّ إليهم يد المساعدة خلال تلك السنوات. لقد عمل أول الأمر منفرداً، لكن مجموعة من الأصدقاء راحت تتشكل من حوله شيئاً فشيئاً، تجمعهم الخفاصة لمساعدة المطاردين، وتأمين اللجوء السياسي لهم عندما يكون ذلك ممكناً أو حملهم حتى الحدود عبر دروب مختلفة. كان يرى ذلك في البداية على انه مجرد عمل انساني وحتمي إلى حد ما، لكنه تحول مع مرور الوقت إلى نوع من الهوى. كان يتفادى المخاطر بمشاعر مضطربة، هي مزيج من الغضب والسعادة الضارية، وكان يشعر

بدوار المقامرين ، وبتحفز القدر الدائم ، لكنه لم يفقد خصائصه كرجل متيقظ حتى في اكثر لحظات تهوره ، لعلمه انه سيدفع حياته ثمناً لأي سهو . كان يخطط أعماله حتى أدق تفاصيلها ويحاول تنفيذها دون مفاجآت ، مما أتاح له أن يعيش على شفير الهاوية لزمن أو لآخر . لم تكن تراود الشرطة السياسية أية شكوك حول منظمته . وكثيراً ما كان ماريو وشقيقه خوسيه يعملان معه . وفي المرتين اللتين اعتقلوا فيهما الراهب ، كانوا يستجوبونه حول نشاطاته في المطرانية وفي حيه وحسب ، حيث كانت مطالبته بالعدالة وشجاعته في مواجهة السلطة واضحة تماماً . أما الحلاق ، فكان يتمتع بمظهر مناسب . لأن زوجات الكولونيات كن يترددن إلى صالونه ، وكثيراً ما كانت تحمله سيارة مصفحة لتقله إلى القصر القائم تحت الأرض ، حيث تنتظره السيدة الأولى في ملجئها السعيد والمزخرف . فيوجهها في اختيار ملابسها ومجوهراتها ، وابتدع لها تسريحات جديدة يُبرز فيها سمو السلطة ، ويبين لها رأيه في التحف الرومانية والمرمر الفرعوني وثرثرات الكريستال المصقول المجلوبة من الخارج لتزيين منزلها . وكانت شخصيات النظام البارزة تتردد على حفلات الاستقبال التي يقيمها ماريو ، كما كانت تدور وراء البارابان الهندي الذي يقسم محل اثرياته ، مفاوضات مع شبان ذوي مظهر حسن من أجل المتع المحرمة . وكانت الشرطة السياسية تنفذ الأوامر بحماية عملياته التهربية ، وتجارته ، وادارته لردائل سرية ، دون ان تتصور أن المتأنق ذا الحظوة يستغفلها أمام أنفها .

كان فرانيسكو قد قاد مجموعته في مهمات صعبة ، لكنه لم يتصور انه سيعهد اليهم يوماً بانقاذ حياته وحياة ايرين .

كانت الساعة تشير إلى الثامنة صباحاً عندما وصلت شاحنة صغيرة محملة بنباتات غريبة وأشجار قزمية من أجل شرفات ماريو . نزل منها ثلاثة عمال يرتدون الافرهولات ، والقبعات الواقية وأقنعة الحماية من المبيدات ، فحملوا النباتات الاستوائية ، وأزهار الكاميليا المتفتحة ، وشجيرات البرتقال الصينية ، ثم وصلوا الخراطيم بخزان مبيد الحشرات وراحوا يعقمون النباتات وقد غطوا وجوههم

بالأقنعة الواقية . وفيما وقف أحدهم ليراقب الممر، نزع الآخران ملابس عملهما بناء على اشارة من ماريو، وارتداها كل من ايرين وفرانيسكو وغطيا وجهيهما بالأقنعة، ثم نزلا متمهلين ليلتحقا بالسائق وينطلقا دون أن يخطر لأحد أن يوجه نظرة ثانية اليهما . أمضيا بعض الوقت في التجول في المدينة، والتنقل من سيارة أجرة إلى اخرى، إلى ان التقيا عند ناصية أحد الشوارع بجدة عجوز ذات مظهر صريح البراءة، فسلمتهما مفاتيح سيارة صغيرة ووثائقها .

قال فرانيسكو لايرين وهو يجلس وراء عجلة القيادة :

- كل شيء على ما يرام حتى الآن . كيف تشعرين؟

فردت ايرين الشاحبة، التي بدت وكأنها ستتحول إلى ضباب :

- على أحسن حال .

غادرا المدينة عبر الطريق الجنوبي . وكانت خطتهما تقتضي الوصول إلى عمر بين الجبال لاجتياز الحدود قبل ان يطبق حصار القمع عليها . فاسم ايرين بيلتران وأوصافها كانت في حوزة السلطات على طول التراب الوطني وعرضه، وكانا يدركان انهما لن ينجوا من الدكتاتوريات المجاورة، لأن تلك الأنظمة كانت تتبادل المعلومات، والمعتقلين، والجثث . وكان يزيد في تلك المقايضات بعض الموتى لدى هذا الجانب وبطاقات هوية لدى الجانب الآخر، مما يسبب البلبلة عند التعرف على الضحايا، وكان يحدث ان يُعتقل شخص في هذا البلد ثم تظهر جثته مقتولاً في بلد آخر وباسم غريب، أو يتلقى الأهل جثة مجهول ليدفنها على انها جثة ابنهم . ورغم وجود من سيساعدهما في الجانب الآخر من الحدود، إلا أن فرانيسكو كان يعلم انه لا بد له من سرعة التحرك للوصول إلى أية ديمقراطية في القارة أو إلى هدفه الأخير، إلى الوطن الأم، كما صار الفارون من أميركا يسمون اسبانيا .

قطعنا الطريق على مرحلتين، لأن ايرين كانت ما تزال متعبة وغير قادرة على احتمال ساعات طويلة من الجلوس ثابتة . كانت تعاني الدوار والألم . يا حبيبتي المسكينة، لقد نحلنا كثيراً في الأسابيع الأخيرة، وفقدنا مشى وجهك بريقة الذهبي تحت الشمس، لكنك جميلة مثلما كنت يوماً، رغم انهم قصوا شعرك

الملكي الطويل . لست أدري كيف أساعدك ، أود لو ألقى الآمك ومخاوفك على كاهلي ، اللعنة على الحظ الذي يقودنا متعثرين والخوف مسلط على أفكارنا . كيف يمكن لي أن أعيدك يا إيرين إلى أزمنة الاعتاق ، حين كنا نتنزه مع كليو في الجبل ، حيث كنا نجلس تحت الأشجار لتأمل المدينة تحت أقدامنا ، ونشرب النبيذ على قمة الدنيا شاعرين أننا أحرار ومخلدون ؛ لم أكن أتصور في ذلك الحين اني سأقودك اليوم عبر هذا الطريق الطويل من الكوابيس ، أقودك وأنا متيقظ الحواس ، منتبه إلى كل صوت ، مترصد ومرتاب . مذ كادت تلك الرصاصات الرهيبة ان تشطرك شطرين ، لم أجد الراحة في النوم ولا في اليقظة . عليّ أن أكون قوياً يا إيرين ، أن أكون هائلاً وغير قابل للهزيمة كي لا يستطيع أي شيء إلحاق الضرر بك ، ولأحميك من الألم والعنف . حين أراك على هذه الحال ، يضمنك الارهاق ، مستندة إلى المقعد ، مستسلمة لاهتزازات السيارة ، وعيناك مغمضتان ، أحس ان جزءاً رهيباً يثمن على صدري ، أخاف أن أفقدك ، وأرغب في البقاء معك إلى الأبد وحمایتك من كل سوء ، والسهر على نومك ، ومنحك أياماً سعيدة .

توقفا عند الغروب في فندق ريفي صغير . وقد تأثر صاحبه لمنظر الفتاة الضعيفة . وخطواتها المترددة ، وتلك الغيبوبة التي نفذت حتى عظامها ، فرافقها حتى الغرفة وأصر على تقديم بعض الطعام اليهما . نزع فرانثيسكو ملابس إيرين ، وسوى الضمادات الخفيفة التي كانت تضعها للوقاية وساعدها على الاستلقاء . أحضروا لها حساء وكأس نبيذ دافئ ممزوج بالسكر والقرفة ، لكنها لم تستطع مجرد النظر إلى الطعام ، فقد كانت مرهقة تماماً . استلقى فرانثيسكو إلى جوارها ، فلفت ذراعها حول جسده ، وألقت برأسها على كتفه ، ثم تهتدت وغرقت للحال في النوم . لم يتحرك فرانثيسكو ، وابتسم في الظلام سعيداً ، كعادته كلما وجد انها معاً . فتلك المرافقة الحميمة التي يعيشانها منذ عدة أسابيع كانت ما تزال تبدوله كالمعجزة . كان يعرف هذه المرأة حتى أعماق أسرارها ، ولم يكن يرى سراً في عينيها الدخانيتين اللتين تتحولان إلى عيونين ضاريتين في اللذة وتتخضلان سعيدتين حينما تقوم بجردة لغرامياتها . لقد جاب جسدها مرات ومرات إلى أن

أصبح قادراً على رسمها من الذاكرة، ووثقاً من انه سيتذكر حتى انتهاء حياته هذه الجغرافية الرقيقة المتناسكة؛ لكنه كلما امتلكها بين ذراعيه، طغت عليه الانفعالات الخائفة التي أحسها في لقائهما الأول.

استيقظت ايرين في اليوم التالي وهي تفيض حيوية وحماسة كما لو انها أمضت الليل في المرح، لكن طيب نواياها لم يكن كافياً لاختفاء لون الشمع الذي يصبغ بشرتها وهالات المرض التي تحيط بعينيها. قدم لها فرانثيسكو فطوراً غنياً، عساها تسترد شيئاً من قواها، لكنها لم تكذ تذوق الطعام. كانت تنظر من النافذة وترى أن الربيع قد انتهى. فبعد زمن طويل قضته في أرض الموت، اكتسبت الحياة بالنسبة لها قيمة اخرى. كانت تشعر وهي مفهونة بتبدلات الدنيا، وتبدي امتنانها للأشياء الصغيرة التي يأتي بها كل يوم.

ركبا السيارة في وقت مبكر جداً، فأمامهما ساعات من السفر. اجتازا قرية ثملة بالضوء، ومرا أمام عربات الخضار، وبائعي المأكولات الخفيفة، والدراجات، والحافلات التي تغص بالركاب حتى ظهرها. دوت نواقيس الكنيسة، وتقدمت امرأتان عجوزان متشحتان بالسواد في الشارع. ومررتل من التلاميذ مع معلمتهم باتجاه الساحة وهم يغنون: أيها الحصان الأبيض، خذني من هنا، احملني إلى وطني. إلى حيث ولدت. وكانت تنتشر في الجورائحة خبز طازج وصوت جوقة من الزيزان والزرزير. كل شيء كان يبدو نظيفاً ومرتباً وهادئاً، والناس منهمكون في أعمالهم اليومية في جومن الأمان. ارتابا للحظة في سلامة عقليهما. ربما هما ضحية دوار أو وهم فظيع، وليس هناك من خطر يتهددهما. تساءلا إذا ما كانا يهربان من ظلالهما، ولكنها لمسا حينئذ واثقهما المزيفة التي تحرق جيوبهما، ورأيا وجهيهما المختلفين وتذكرا قضية المنجم. لاء ليسا مخبولين. وإنما الزمن هو الذي اختل.

سارا في هذه التدروب الأزلية لساعات، إلى أن فقدا القدرة على رؤية المشهد، وصار كل شيء يبدو لها متشابهاً في آخر النهار. أحسا وكأنهما يسبحان في الفضاء. ولم يقطع رحلتها سوى حواجز الشرطة التي في الطريق. وكلما قدما

وثائقهما أحسا بالخوف يسري في جسديهما مثل صدمة كهربائية تركهما متعرقين
وذاووين . كان الحراس يتصفحون صورتيهما وهم ساهون ويشيرون اليهما
بمواصلة المسير . لكنهم أجبر وهما على النزول في احدى النقاط ، وأوقفوهما لعشر
دقائق كي يردا على أسئلة محددة ، وفتشوا جميع أنحاء السيارة . وحين كانت ايرين
على وشك الصراخ ، واثقة من انهم قد اكتشفوا أمرهما أخيراً ، سمح لهما الرقيب
بمواصلة السير ، وأوصاهما قائلاً :

- كونا على حذر ، ففي هذه المنطقة يوجد اراهيون .

لم يستطيعا التكلم لبعض الوقت ، لأنها لم يشعرا بالخطر قريباً منهما ومؤكداً
كما شعر ا به حينئذ .

واستتجت ايرين وهي مذهولة :

- الرعب أقوى من الحب والحق .

★ ★ ★

تجاوزا ابتداء من تلك اللحظة الخوف بالسخرية منه ، وتبادلا المزاح ليوفرا
على نفسيهما مخاوف لا طائل من ورائها . وأدرك فرانيسكو أن هذه هي نقطة الحياء
الوحيدة لدى ايرين . فقد كانت تجهل جميع أشكال الحياء والخجل ، وتستسلم
لانفعالاتها بصفاء وبحرية مطلقة . انها كان يوجد في أعماقها حصن حياء متطرف .
فهي تتورد أمام ذلك الضعف الذي تراه غير محتمل في الآخرين وغير مسموح به
لها . لقد كان الخوف المكشوف يملؤها بالخرج ، فتحاول اخفائه حتى عن عيني
فرانيسكو . وكان يقبع في روحها خوف عميق ومطلق ، لا يشبه في شيء ذلك
الخوف الأولي الذي غالباً ما كانت تداريه بالضحك . لم تكن تتصنع الشجاعة
أمام حالات الذعر البسيطة ، مثل ذبح خنزير أو سماع صرير باب في بيت مسكون
بالأشباح ، ومع ذلك ، فقد كانت تشعر بالخجل من هذا الشعور الجديد الملصق
بجلدها ، والذي اقتحم اعماقها ، وصار يدفعها إلى الصراخ وهي نائمة ، وإلى
الارتعاش وهي مستيقظة . كان وقع الكوابيس عليها قوياً في بعض الاحيان حتى

لا تعود تعرف ان كانت تعيش حاملة أم أنها تعيش . وفي تلك اللحظات العابرة التي تطل فيها من عتبة حياتها، من عتبة خجلها، كان فرانيسكويزداد حبا لها .

غادرا اخيراً الطريق العام ودخلا في طريق الجبال، إلى أن وصلا إلى محطة استراحة، كان المنتجع مشهوراً في زمن مضى بمياهه التي تصنع المعجزات، لكن صناعة الأدوية الحديثة أغرقته في النسيان . كان البناء ما يزال يحتفظ بذكرى ماض مزدهر، حين كان يستضيف في أوائل القرن العائلات الراقية والأجانب القادمين من بعيد بحثاً عن الشفاء . لم يقوض الإهمال صالاته الفسيحة ذات الدرابزينات والافاريز، ولا اثاثه القديم، ولا ثرياته البرونزية وستائره ذات الهداب والشراشيب . اعطوهما حجرة فيها سرير ضخم وخزانة وطاولة وكرسيين عاديين . كانت الكهرباء تنقطع في ساعة معينة، فيتوجب على النزلاء حينئذ التجول على ضوء الشموع . وعند غياب الشمس، تنخفض درجة الحرارة بشكل مفاجئ، كما يحدث عادة في مثل هذه المناطق شاهقة الارتفاع، فيضرمون عندئذ في مدافئ الحطب جذوع أشجار شذية . وتدخل من النوافذ رائحة لاذعة من الأوراق الجافة التي تُحرق في الفناء . كان نزلاء الفندق، باستثناءها، وباستثناء العاملين فيه، هم مرضى يعانون أمراضاً متنوعة أو متقاعدون يعالجون أنفسهم بالسلوى . كل شيء كان يسير ببطء ونعومة هناك، ابتداء من خطوات النزلاء في الممرات، وحتى الصوت الرتيب المنبعث من مضخات تضخ الماء والوحل العلاجي في أحواض ضخمة من المرمر والحديد . وفي أثناء النهار، كان رتل من الآملين في الشفاء يتسلقون حافة هوة يتصاعد منها البخار، مستندين إلى عكاكيزهم، ومتدثرين بملاءات شاحبة وكأنهم أرواح قديمة . وفي الأعلى، عند حافة البركان، حيث تندفق ينابيع الماء الساخن وأعمدة كثيفة من البخار الكبرى، يجلس المرضى وقد حجبهم الضباب . وعند الظهر، كانوا يقرعون ناقوساً في الفندق، فيتردد دويه المنادي في أرجاء الجبل، وفي الوهاد والكهوف الخفية . انه اشارة استدعاء مرضى الروماتيزم والتهاب المفاصل، والمقروحين، والموسوسين، والمصابين بالحساسية،

والمسنين الذين لا شفاء لهم . فوجبات الطعام تقدم في ساعات محددة في صالة فسيحة تصدح فيها تيارات الهواء وتصلها روائح المطبخ .

- الأمر السيء الوحيد هو أننا لسنا في شهر العسل - قالت إيرين المفتونة بالمكان وهي تخشى ظهور دليلها بسرعة ، ليقودها عبر الحدود .

تعانقا فوق الفراش الذي وفره لهما الحظ بعد الرحلة المضنية ، وفقدا في الحال احساسهما بالزمن . وعندما أيقظتهما أول أنوار الفجر المشع ، لاحظ فرانثيسكو باطمئنان ان حالة إيرين أفضل بكثير مما كانت عليه في اليوم السابق . بل انها أعلنت انها تشعر بجوع مثل جوع بحار . ارتديا ملابسهما بعد ان مارسا الحب وخرجا لاستنشاق هواء الجبال . كانت حركة النزلاء الذاهبين إلى الحمامات الحارة تبدأ منذ الصباح الباكر . وفيما كان الآخرون يحاولون الاستشفاء ، انهمك الشباب في ملء الساعات المتاحة لهما بالحب وبالقبلات المختلصة والوعود الأبدية . أحبا بعضهما وهما يسيران على ممرات البركان الوعرة ، وأحبا بعضهما وهما جالسان على دبال الغابة الشذي ، وأحبا بعضهما هامسين وسط البخار الحلزوني الأصفر المنطلق من الينابيع الكبريتية ، إلى ان حضر عند انتصاف النهار رجل جبلي يتعل حذاء بدائياً من الجلد ، وعباءة سوداء وقبعة بلا حواف ، ويقود ثلاث دواب ويحمل خيراً سيئاً :

- لقد وجدوا طريقكما . عليكما بالرحيل اليوم بالذات .

- بمن أمسكوا؟ سأل فرانثيسكو وهو خائف على اخيه ، وعلى ماريو ،

وعلى كل اصدقائه الآخرين .

- لم يمسكوا أحداً . صاحب الفندق الذي قضيتم عنده الليلة الفاتئة ارتاب

بأمركم ووشى بكم .

- اتستطيعين ركوب الحصان يا إيرين؟

فابتسمت :

- أجل .

لف فرانثيسكو خصم صديقه بمشد متين ، لتتحمل الاهتزازات فوق ظهر

الدابة. وحملوا امتعتها وانطلقوا سائرين وراء بعضهم في سيل يكاد يكون غير مرئي، يؤدي إلى درب منسي بين نقطتي حدود، كان فيما مضى طريقاً للمهربين. حين اختفت آثار الطريق تماماً، وقد ابتلعتها هذه الطبيعة الجاحمة، استرشد الدليل بعلامات محفورة على جذوع الأشجار. لم تكن تلك هي المرة الأولى - ولن تكون الأخيرة - التي يستخدم فيها هذا الطريق مطموس المعالم لانقاذ الملاحقين. ساروا دون توقف لساعات. ولم يلتقوا خلال الطريق بكائن بشري؛ فقد كانوا يجوسون في عزلة بشرية، باردة وبلا ضفاف، في متاهة من الخضرة لا يمشي فيها سواهم. وسرعان ما وصلوا إلى حيث يقع الثلج الضخمة المتبقية من فصل الشتاء. نفذوا إلى الغيوم الواطئة، وأحاط بهم زبد لا يمكن الإمساك به، محاً من حولهم آثار الحياة. وعندما خرجوا من بين الغيوم ظهرت سلسلة الجبال فجأة أمام عيونهم وهي تتلوى إلى اللانهاية بقممها البنفسجية، وبراكينها المعمة بالبياض، بوديانها وانكساراتها، وبكتلها الثلجية التي تذوب في الصيف. وبين الحين والآخر كانوا يلمحون صليباً مغروساً في مكان قضى فيه نجه أحد المسافرين الذين تصرعهم الوحشة، فيرسم الدليل الجبلي شارة الصليب بخشوع، ليستنهض هممها.

كان الدليل يمضي في المقدمة، ووراءه ايرين، فيما يقفل فرانثيسكو الرتل دون أن يرفع نظره عن حبيبته، متأهبا لأي بادرة ارهاق أو ألم، ولكن الفتاة لم تُبدي علائم التعب. كانت تسلم نفسها لخطى البغلة الثابتة، وعيناها هائمتان في الطبيعة العجيبة المحيطة بها، وروحها تدمع. انها تودع بلدها. كانت تضع في صدرها، تحت ملابسها، لفافة التراب الصغيرة التي بعثتها اليها روسا لتزرع فيها نبتة لا تنسني في الجانب الآخر من البحر. كانت تفكر بحجم خسارتها: لن تعود إلى السير في شوارع طفولتها، ولا إلى سماع نبرة لغتها الهجينة العذبة؛ ولن ترى جبلها عند الغروب، ولن يهدل لها خريز أنهارها، ولن تشم شذى الحبق في مطبخها ولا رائحة المطر الذي يتبخر على سطح بيتها. لن تفقد روسا، وأمها، وأصدقاءها، وعملها وماضيها فقط، بل ستفقد وطنها أيضاً. بكت:

- بلدي بلدي . . .

فأسرع فرانثيسكو على بهيمته ليسير إلى جانبها ويمسك بيدها .
عندما خيم الظلام ، قرروا ان يعسكروا لقضاء الليل ، لأنه لا يمكن
التقدم دون ضوء في متاهة الجبال تلك ، ذات المنحدرات الجرداء ، والوهاد الرهيبة
والوديان التي بلا قرار . لم يتجرأوا على اشعال نار ، خشية وجود دوريات رصد قرب
الحدود . وتقاسم الدليل معهما اللحم المملح والقاسي ، وقطعة الخبز اليابسة
والخمر الذي كان يحمله في خُرجه . تدثروا جيداً بالعباءات الثقيلة وقبعوا بين
البهائم محتضنين بعضهم بعضاً وكأنهم ثلاثة اخوة ، لكن البرد نفذ رغم ذلك إلى
عظامهم وأرواحهم . وأمضوا الليل يرتجفون تحت سماء كثيية ، رمادية ، سوداء
الثلج ، يحيط بهم حفيف خفيف وصفير ناعم ، تطلقه أفواه الغابة اللانهائية .
اخيراً طلع الفجر وتقدم الصبح مثل زهرة نار ، مجبراً العتمة على التراجع
بيطء . أشرقت الشمس وتبدى جمال المشهد الثقيل أمام أعينهم مثل عالم حديث
النشوء . نهضوا واقفين ، ونفضوا الأوراق الجافة عن أعظيتهم ، وحركوا أعضائهم
الخدرة وشربوا ما تبقى من الخمر ليستردوا الحياة .

قال لها الدليل وهو يشير إلى نقطة بعيدة :-

- الحدود هناك .

فقرر فرانثيسكو:

- فلنفرق هنا اذن . ثمة من ينتظرنا في الجانب الآخر .

- عليكما مواصلة الطريق مشياً على الأقدام . اتبعوا العلامات المحفورة
على الأشجار ولن تضلوا ، فالطريق آمن . حظاً سعيداً أيها الرفاق . .
عانقاه مودعين . ورجع الدليل على أعقابه مع البهائم ، فيما واصل الشبان
طريقهما باتجاه الخط الوهمي الذي يفصل هذه السلسلة الهائلة من الجبال
والبراكين . أحسا بالضآلة ، والوحدة ، والهشاشة . . بحاران وحيدان في بحر من
القمم والغيوم ، في الصمت القمري ؛ لكنهما أحسا كذلك أن جبهما قد اكتسب
بعداً جديداً وانه سيكون حصنهما الوحيد في المنفى .

وعلى ضوء الفجر الذهبي ، توقفنا لينظرا إلى أرض وطنها للمرة الأخيرة .

فهمست ايرين :

- هل سنعود؟

ورد فرانثيسكو:

- سنعود .

وسترسم هذه الكلمة مصيرهما خلال السنوات التالية : سنعود، سنعود . .



مكتبة دار الثقافة

في عام ١٩٧٩، وفي بلدة لونسكين، على بعد ٦٠ كيلومتراً من العاصمة التشيلية سانتياغو، تم اكتشاف مدفن سرّي في منجم مهجور، أخفى فيه رجال الدرك جثث خمسة عشر فلاحاً من أهالي المنطقة. ومن هذه الواقعة الحقيقية تنطلق ايزابيل الليشني لترسم عالماً من الحب والأمل في مواجهة عالم آخر من العنف والحقْد. كل ذلك في أجواء سحرية تضيق فيها الحدود بين الواقع والخيال لتشكل في نهاية المطاف عملاً أدبياً رائعاً وشهادة تاريخية مأساوية، تروي وقائع جريمة سياسية وقصة تضامن انساني.

الناشر

السعر ١٢٥ ل.س